فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

444-443

آذار 2024

ملف العدد:
تسعون عاماً من السِفر النضالي المجيد

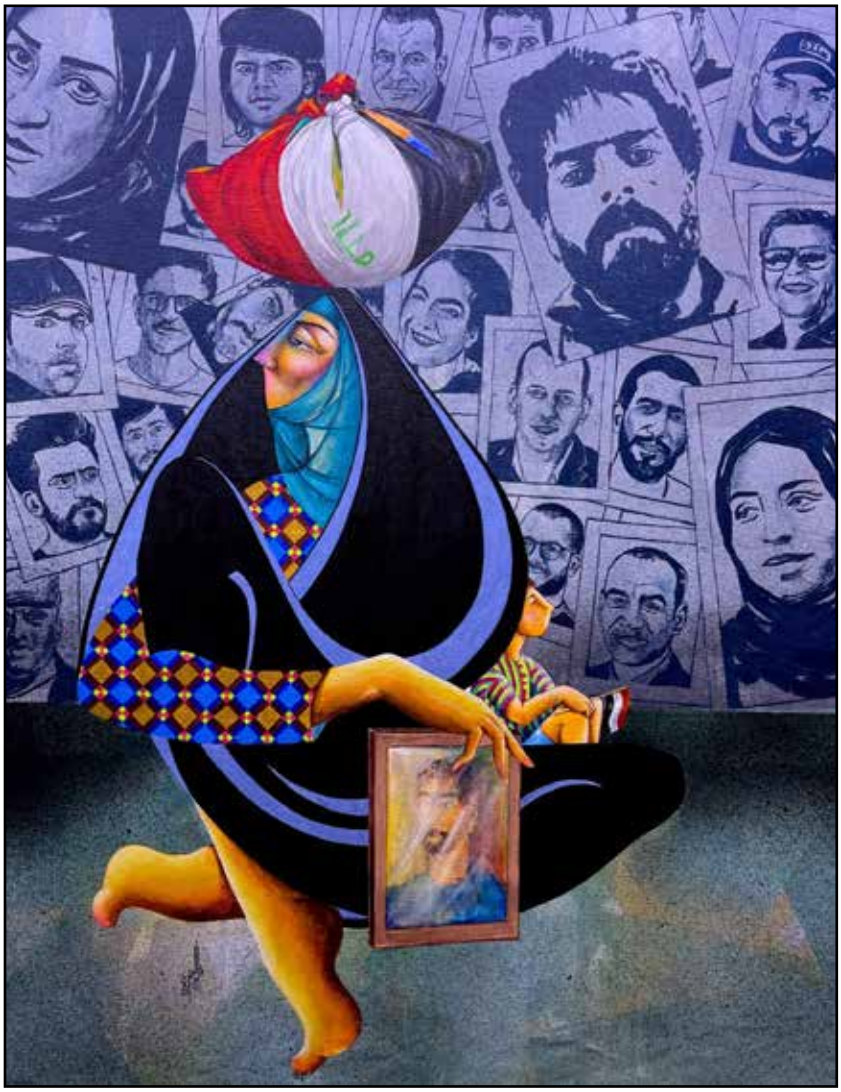

مقالات

ريتا فرج
كاوه محمود
عادل كنيش مطلوب
رعد موسى الجبوري
شميران اوديشو

نصوص قديمة

قائد عراقي بارز وشيوعي فذ

نصوص مترجمة

جاكوب دي هان
كليمنس سيرمان

حوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور
الاستاذ رائد فهمي

أدب وفن

حسب الله يحيى
زينة إبراهيم الخرسان
أوس حسن
صالح الصحن
مصطفى عطية جمعة
خنساء العيداني
طلال حسن
ريسان الخزعلي
نصير الشيخ
حنون مجيد
قيس الزبيدي
مقابلة مع بول أوستر
حسين الساعاتي
البروفيسورة كاث إيليس
الكاتب الأمريكي : وارين كين

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل　　جـــــواد الزيدي
رضـــــا الظاهر　　علي إبـراهيـــم
كـــــاوة محمود　　مظهر محمد صالح
هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري
هـــاشـم نعمـة
سوران قحطـان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

العدد 443-444
آذار 2024

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

7 - **ملف العدد: تسعون عاما من السِفر النضالي المجيد**

المساهمون :صادق الجواهري، عبد السلام الناصري، محمود سعدون، حسان عاكف، مفيد الجزائري، حميد مجيد موسى، قاسم حنون، سكرتارية تحرير"الثقافة الجديدة"، صالح ياسر .

مقالات

62 - إطلالة على النصوص الجدلية في التراث المسيحي العربي .....ريتا فرج

73 - العالم في عصر التطرف (الحرب في غزة نموذجاً) .....كاوه محمود

80 - الهندسة الوراثية والجيل الجديد من المعالجات الالكترونية.....عادل كنيش مطلوب

89 - نحو سياسة نقل عادلة اجتماعيا.....رعد موسى الجبوري

96 - يهود العراق من أحضان الشيوعية الى مشانق البعث.....عرض: شميران اوديشو

نصوص قديمة

104 - قائد عراقي بارز وشيوعي فذ

نصوص مترجمة

116 - تأثير الديمقراطية وعدم الاستقرار السياسي

على النمو الاقتصادي:جاكوب دي هان ...كليمنس سيرمان.....ترجمة: هاشم نعمة

حوارت

123 - (الثقافة الجديدة)

تحاور الرفيق رائد فهمي.....اجرى الحوار :زهير الجزائري و سوران قحطان

أدب وفن

141 - آذار.. بصمات تاريخية.....حسب الله يحيى
142 - تجليات النسق الثقافي المكاني
في رواية (آخر المدن) لزهير الجزائري .....زينة إبراهيم الخرسان
147 - التناغم الإيقاعي في فلسفة هيغل.. من المجرَّد إلى ظاهريات الفكر..... أوس حسن
153 - الليالي العربية: الجذور والقيمة.....صالح الصحن
158 - سينما العولمة والسردلمة والسرد الجديد
قراءة في فيلم(بابل).....مصطفى عطية جمعة
166 - الخزاف أرنولد أننهاس...
أشكال (احفورية) تماثل الكائنات المجهرية المائية.....ترجمة: خنساء العيداني
170 - مسرحيتان قصيرتان جدا.....طلال حسن
172 - تشابك .....ريسان الخزعلي
174 - معاً تحت جدارية فائق حسن.....نصير الشيخ
176 - قصص قصيرة جداً.....حنون مجيد
181 - قراءة في نصٍّ مُبتكر.....قيس الزبيدي
188 - مقابلة مع بول اوستر...اجرى المقابلة: إنج بيرجيت سيكامفيلد.....ترجمة : جواد وادي
193 - اشكالية الانتماء في النص الروائي الكندي.....حسين الساعاتي
195 - الواقعية الإشتراكية
في السياق الأدبي الأسترالي.. البروفيسورة كاث إيليس.....ترجمة جودت جالي
203 - تجليات الشتاء الحزين...
قصة للكاتب الأمريكي : وارين كين.....ترجمة فاطمة حكمت حسن

لوحتا غلافي العدد للفنان فراس البصري

التدقيق اللغوي: مصطفى عبـــــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العتابي

كلمة العدد

تسعون عاما في سفر النضال من أجل مصالح الوطن والشعب

تحلُّ هذه الأيام الذكرى التسعون لميلاد الحزب الشيوعي العراقي، حزب العمال والفلاحين وسائر شغيلة اليد والفكر، حزب النضال والتضحية، الذي تأسس عام 1934 كضرورة موضوعية اقتضتها التطورات والتحويلات والاستقطابات الطبقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية على الساحة الوطنية والأممية. ومن ذلك التاريخ غرس جذوره متشعبة في جميع أرجاء الوطن. ومن الصعب في هذه الكلمة الموجزة جرد ما اجترحه الحزب في سوح النضال وإعطاء تقييم قريب من الواقع لما قام ويقوم به من مهمات لونت تاريخه الطويل المفعم بالعطاء. فقد اقترن نضاله منذ انبثاقه في الجمع بين المهمات الوطنية والطبقية، في النضال من أجل تحقيق سيادة البلاد واستقلالها الناجز من السيطرة الاستعمارية والدفاع عن حقوق ومصالح الجماهير الكادحة في العهد الملكي. وقد دفع جراء مواقفه الصلبة أثمانا باهظة منها اعدام قادته الأماجد فهد وصارم وحازم عام 1949. وتواصلت قوافل الشهداء في العقود المتعاقبة في ظل الأنظمة المستبدة لتسهم في رسم واضاءة دروب النضال للشيوعيين والوطنيين والديمقراطيين. إنها مآثر يحق للشيوعيين العراقيين الافتخار بها واستلهام الدروس منها من أجل مواصلة النضال بلا كلل لتحقيق شعار الحزب الأثير: وطن حر وشعب سعيد.

لقد ساهم الحزب في التمهيد لثورة 14 تموز 1958، سواء من خلال عمله النضالي اليومي المتفاني على المستويات السياسية والثقافية والتعبوية والجماهيرية أو من خلال اسهامه في جبهة الاتحاد الوطني التي كانت مقدمة سياسية ونضالية لدعم الثورة ودعم الضباط الاحرار الذي اخذوا على عاتقهم تنفيذها، وفي مقدمتهم الزعيم عبد الكريم قاسم. وخلال سنين نجاح الثورة القصيرة تبنى الحزب موقف الدفاع عنها وعن منجزاتها على الصُعد الاجتماعية والاقتصادية، والتي أحدثت تحولات مهمة في بنية المجتمع لم تتحقق طيلة العهد الملكي. وفي الوقت نفسه، مارس الحزب نقد الميول الفردية في إدارة الحكم، ومن اجل تحقيق حريات أوسع، والتحذير المتواصل من مخاطر الارتداد والاجهاز على ما تحقق من مكتسبات تقدمية مهمة والذي كانت تخطط له القوى القومية والرجعية وبقايا الاقطاع التي تضررت مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعد قيام الثورة، مدعومة من قوى إقليمية ودولية.

إن نجاح انقلاب 8 شباط الدموي عام 1963 على يد البعث والقوى القومية الرجعية وما اعقبه من محاولة يائسة لتصفية الحزب الشيوعي من خلال سجن وتعذيب واعدام المئات من اعضائه وفي مقدمتهم سكرتير الحزب الشهيد سلام عادل، مثّل حقبة سوداء في تاريخ العراق المعاصر كانت لها تداعيات في العهود اللاحقة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تمثّلت في قيام نظام استبدادي قمعي معادٍ للحريات وحقوق المواطنة،

بعد مجيء البعث ثانية إلى الحكم إثر انقلاب 17 تموز 1968، ذلك النظام الذي أدخل الوطن في دوامة من الأزمات لا تنتهي والحروب وارتهان سيادة البلد والحصار الاقتصادي القاسي والتجويع الذي دفعت ثمنه الباهظ جماهير شعبنا وخصوصا الكادحة منها.

وبعد أن حاول نظام البعث ثانية بعد عام 1978 الاجهاز على الحزب من خلال ممارسة الأساليب الفاشية نفسها التي اعتاد عليها من السجن والتعذيب والتصفيات الجسدية، تبنى الحزب أسلوب الكفاح المسلح الذي خاضه الأنصار الشيوعيون ببسالة نادرة في ذرى جبال كردستان العراق، والذي ساهم في الحفاظ على تنظيمات الحزب داخل الوطن وتعزيزها.

مثّل سقوط النظام الدكتاتوري المدوي في نيسان 2003، إثر الاحتلال الأمريكي – البريطاني مرحلة جديدة في تاريخ العراق. وجاء هذا السقوط السريع نتيجة متوقعة لتقلص قاعدة النظام الاجتماعية بسبب سياسات القمع والتنكيل ومصادرة الحريات والحروب، بعد أن اقتصرت هذه القاعدة على المستوى العائلي بل أن حتى هذا المستوى لم يسلم من التصدع والضعف.

وطيلة السنوات الماضية التي تلت سقوط النظام أعاد الحزب بناء تنظيماته ومارس أساليب النضال التي تلائم المرحلة الجديدة في اشكالها المختلفة السياسية والفكرية والتعبوية والجماهيرية التي شملت المشاركة الفاعلة في انتفاضة تشرين المجيدة عام 2019، وفي الكثير من الاحتجاجات الجماهيرية التي سبقتها وتلتها. وهو يرفع منذ عقد مؤتمره الوطني الحادي عشر في تشرين الثاني 2021 شعار "التغيير الشامل: دولة مدنية ديمقراطية وعدالة اجتماعية".

إن تبني نهج المحاصصة الطائفية-الإثنية في إدارة الحكم والصراع حول شكل بناء الدولة من قبل القوى والأحزاب والكتل المتنفذة وانتشار السلاح خارج سيطرة الدولة وارتهان سيادة البلاد للولاءات الخارجية الإقليمية والدولية، وخرق هذه السيادة من خلال الاعتداءات المتكررة من اطراف إقليمية ودولية عدة دون رادع، وعدم تبني رؤية واضحة لخطط تنموية اجتماعية - اقتصادية شاملة، ولّد الكثير من المشكلات المستعصية وغذى الفساد المالي والإداري الذي استشرى في مفاصل الدولة والمجتمع وأعاد إنتاج المنظومة السياسية ذاتها، منظومة المحاصصة والفساد التي فشلت فشلا ذريعا في إدارة الحكم؛ لذا بات التغيير الشامل مطلباً ملحاً، وهذا يتطلب حشد كل طاقات القوى المدنية، الحزبية والجماهرية والنقابية وممارسة الضغط الشعبي والاحتجاج والمشاركة في الانتخابات لتغيير موازين القوى لصالح القوى المدنية الديمقراطية الحقيقية التي تؤمن حقاً ببناء دولة المواطنة والمؤسسات والحريات والعدالة الاجتماعية إنها الدولة المدنية الديمقراطية.

في عام 2024 يتجدد الأمل بعراق جديد، عراق خال من الازمات والفساد والتهميش والإقصاء والاستعصاءات الدائمة وتناسل الازمات ومكائد حيتان السلطة وحروب المتحاصصين من القوى المتنفذة.

مجدا للذكرى التسعين لميلاد الحزب الشيوعي العراقي، مجدا لهذا السِفر النضالي المفعم بالدروس البليغة التي يتطلب التمعن فيها بعمق لاستخلاص زاد نضالي متجدد دائما.

٩٠
تسعون عاما
من السفر النضالي المجيد
الحزب الشيوعي العراقي

الحزب في تسعينيته

محطات في مسيرة الحزب الشيوعي العراقي

إعداد: رئيس التحرير

تأسس الحزب الشيوعي العراقي في 31 آذار 1934 نتيجة لتطور نضال الشعب العراقي وحركته الوطنية والديمقراطية. ويسترشد الحزب في كفاحه وفي مجمل سياسته وتنظيمه ونشاطه، بالفكر الماركسي وبدروس التجارب الاشتراكية والتراث الاشتراكي عامة، ويسعى إلى تجسيد ذلك في ظروف العراق الملموسة بإبداع، استناداً إلى دراسة عميقة لواقع مجتمعنا المعاصر وما يشهده من تطورات في الميادين كافة.

يجمع الحزب بثبات بين القضية الوطنية وقضية الديمقراطية، وينظر إليهما في إطار وحدة لا تنفصم، فهو يعمل على إقامة نظام ديمقراطي اتحادي أساسه التعددية الفكرية والسياسية، والفصل بين السلطات، والتداول السلمي للسلطة، واحترام حقوق الإنسان، وضمان الحريات الشخصية والعامة، واعتماد مبدأ تكافؤ الفرص، وتأمين العدالة الاجتماعية، وبناء دولة القانون والمؤسسات، الدولة المدنية الديمقراطية العصرية كاملة السيادة.

وينحاز الحزب إلى عالم العمل وقيمه، وإلى العاملين بسواعدهم وفكرهم. وهو يرى أن الدفاع عن مصالح وحقوق الشغيلة والفئات والشرائح الاجتماعية الأكثر تعرّضاً للتهميش والاضطهاد والاستغلال، هو الطريق المفضي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية.

سنتوقف هنا عند القضايا الآتية التي تتيح قراءتها تكوين تصور أولي عن الحزب الشيوعي العراقي، تاريخه وهويته الطبقية ومرجعيته الفكرية... الخ.

- في عام 1924، كون حسين الرحال وأصحابه جماعة تبشر بالاشتراكية، وبالماركسية تحديدا، وأصدروا مجلة (الصحيفة). وكان من أبرز ما تناولوه توضيح مفهومهم عن التقدم والتطور والحرية والمساواة، وحق المرأة في المساواة بالرجل، ودخلوا في هذا الشأن في صراع فكري مع المحافظين.

- في عام 1927 تكونت في البصرة أولى الحلقات الشيوعية. وكان أبرز الناشطين فيها يوسف سلمان يوسف (الذي صار يعرف بفهد لاحقا)، وأخوه داود وغالي الزويد وحسن العياش. وبعد عام تكونت في الناصرية حلقة مماثلة نشط فيها يوسف سلمان يوسف (فهد) أيضاً، وأخوه داود وحسون جار الله وإخوانه ومهدي وفي، وآخرون.

- في عام 1931 أعلن في بغداد والبصرة

والناصرية ومدن أخرى، إضراب عام احتجاجاً على قانون للبلديات يفرض رسوماً على بعض الحرف مما يرهق الكادحين. وقد لعب فيه الشيوعيون الأوائل، ولاسيما في البصرة والناصرية، دوراً بارزاً وقادوا تظاهرات صاخبة في هاتين المدينتين. وبسببه استشهد حسن العياش، أحد الشيوعيين الأوائل، وبهذا يكون العياش أول شهيد شيوعي في العراق.

- في 13 كانون الأول 1932 وزعت في الناصرية أول المناشير الشيوعية. وكان قد وضعها (فهد). وخطها هو ورفاقه من الشيوعيين.

- في 31 آذار 1934 انعقد في بغداد اجتماع تأسيسي للشيوعيين من مختلف أنحاء العراق، وأعلنوا توحيد منظماتهم في تنظيم مركزي واحد باسم « **لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار**» التي كثّف اسمها برنامج عمل أجيال من خيرة أبناء وبنات شعبنا، من العرب والكرد ومن مختلف الانتماءات القومية والدينية والمذهبية، الذين انغمروا في إطارها. ثم منذ صيف 1935 تغير اسمه الى **(الحزب الشيوعي العراقي)** ليواصل نضالا مجيدا حافلا بالعزم والفداء من اجل استقلال العراق وحريته، وخير الشعب وسعادته. وقد لعب الرفيق الخالد يوسف سلمان يوسف (فهد) مؤسس الحزب وبانيه دوراً بارزاً سواء في بناء خلايا الحزب أم في إقامة مركزه في بغداد وتأسيس الحزب. وفي نهاية ذلك العام غادر الرفيق فهد إلى موسكو للدراسة في مدرسة كادحي الشرق. فاختار المؤسسون عاصم فليح ليقود الحزب.

- وقد وزع أول منشور للحزب بعد تأسيسه في 1935/3/14، وكان يحث على النضال لتحقيق مطالب الفلاحين والعمال، وانتهى بالهتاف بسقوط الاستعمار ومعاهداته، وبحياة الجبهة الموحدة ضد الإمبريالية وضد مضطهدي الفلاحين والعمال.

- وفي 31 تموز1935 أيضاً، صدرت أول جريدة للحزب، هي **(كفاح الشعب)** وكانت توزع 500 نسخة من كل عدد. وكان هذا كبيراً في مقاييس ذلك الزمان لحزب سري في بلد تزيد نسبة الأميين من السكان فيه على 90%.

- منذ البداية كشف الفصيل الفتي الرائد، الملتهب حُبا للوطن ولبسطاء الناس أوراقه على صفحات جريدته الأولى السرية **(كفاح الشعب)** حيث دعا في عددها الأول الى **تصفية القواعد العسكرية الأجنبية وإلغاء معاهدة 1930، والى يوم عمل من ثماني ساعات وتوزيع الأراضي على الفلاحين،** وتصدّر الشيوعيون العراقيون نضالات الجماهير ومعارك العمال وهبّات الفلاحين. ولعب باني الحزب الرفيق **(فهد)** دورا أساسيا في بلورة توجهاتهم الوطنية والتقدمية واستراتيجيتهم. وتحت قيادته صاغ الشيوعيون الشعارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الصائبة والجريئة، وقادوا سعي الجماهير الحثيث والجسور لتجسيد تلك الشعارات. وبسبب الدور الكفاحي للحزب وروح اقتحام أعضائه، استشهد مئات الرفاق وبضمنهم الكثير من قادته وكوادره، يتقدمهم سلمان يوسف (فهد) وزكي بسيم (حازم) وحسن الشبيبي (صارم). وأصيب واعتقل الآلاف منهم، فكان لأعضاء الحزب تجربتهم المميزة التي يفخر بها، كنموذج للصمود

والبطولة داخل السجون والزنازين وأقبية التحقيق في مواجهة ظلم وإرهاب القوى المسيطرة.

- في آذار 1944 انعقد (الكونفرنس) الأول للحزب. وبعد عام انعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب. وفي هذين المؤتمرين اللذين انعقدا بقيادة الرفيق (فهد)، صاغ الحزب نظامه الداخلي، الذي ينظم حياته الداخلية والأسس التي تقوم عليها تنظيماته وشروط العضوية فيه. كذلك ميثاقه الوطني الذي يحدد الأهداف التي يناضل الحزب من أجلها. وأرسى المؤتمران خطة الحزب لاستقبال فترة ما بعد الحرب.

- في 12 أيلول 1944 قدمت كوادر شيوعية اغلبها يهودية بتوجيه من الحزب طلباً لتأسيس منظمة معادية للصهيونية باسم (عصبة مكافحة الصهيونية). وقد أجيزت المنظمة فعلاً ولعبت دوراً كبيراً في فضح أغراض الصهيونية وارتباطها بالدوائر الإمبريالية ومعاداتها للشعب العربي الفلسطيني. وأصدرت المنظمة جريدة علنية يومية باسم (العصبة).

- في 18 كانون الثاني 1947 القي القبض على قادة الحزب يوسف سلمان يوسف (فهد) وزكي محمد بسيم (حازم) و حسين محمد الشبيبي (صارم) عضوي المكتب السياسي وكوادر أخرى. وحكم على (فهد) ورفيقيه (حازم) و (صارم) وإبراهيم ناجي بالإعدام وعلى الآخرين بأحكام ثقيلة إلا إن الضغط الشعبي وضغط الرأي العام العالمي، حوّل حكم الإعدام إلى السجن المؤبد.

- واثر تعاظم الحركة الجماهيرية، لاسيما الإضرابات العمالية التي كان يقودها الحزب، سارعت الحكومة العراقية إلى إعلان الأحكام العرفية في 15 أيّار 1948 بحجة حماية مؤخرة الجيش الذي أرسل إلى فلسطين، وذلك لضرب إضرابات وتظاهرات العمال والطلاب، والحد من نشاط الحزب والقوى الديمقراطية. ووجهت أجهزة الأمن بهذه المناسبة، أعنف ضربة ضد الحزب إثر خيانة احد كوادره. وقد اعتقل على أثرها أبرز القائمين على نشاطه.

- وانتهز الحكم الملكي هذه الفرصة، وأعاد محاكمة فهد وزكي محمد بسيم وحسين محمد الشبيبي في مجلس عرفي عسكري في ظل الأحكام العرفية، وذلك خوفاً من فهد ورفيقيه في توجيه العمل القيادي للحزب والحركة الديمقراطية من داخل السجن، وما يشكله ذلك من تهديد للنظام القائم. وقد حكم المجلس العرفي على القادة الثلاثة بالإعدام، ونفذه فيهم في 14و15 شباط 1949 برغم الاحتجاجات الواسعة من جهات دولية ديمقراطية. ويمجد الشيوعيون العراقيون ذكرى استشهاد القادة الثلاثة في 14 شباط من كل عام باعتباره (يوم الشهيد الشيوعي في العراق).

- في صيف 1955 عقدت اللجنة المركزية للحزب اجتماعاً، وانتخبت الرفيق **حسين احمد الرضي** (سلام عادل) سكرتيراً لها. وفي غضون عام، نجح الحزب تحت قيادة (سلام عادل) في تعزيز وحدته وتصفية الانقسامات في صفوف الشيوعيين وإتباع سياسة رصينة تعزز مواقع الحزب في الحركة الوطنية.

- وفي خريف 1956 **انعقد الكونفرنس الثاني للحزب،** الذي دقق سياسة الحزب، وأكد على العمل من اجل تجميع القوى الوطنية في جبهة واحدة، وأوضح موقف

الحزب من القضية الكردية وحق الشعب الكردي في تقرير مصيره وفي الحكم الذاتي.

- في شباط عام 1957 نجح الحزب الشيوعي في إقناع الأحزاب الوطنية القائمة آنذاك في تكوين (جبهة الاتحاد الوطني). وتألفت الجبهة من الحزب الشيوعي العراقي، والحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وحزب البعث العربي الاشتراكي. ونظراً إلى إن بعض الأحزاب الأخرى رفضت مشاركة الحزب الديمقراطي الكردستاني (البارتي) في الجبهة، أقام الحزب الشيوعي تحالفاً ثنائياً بينه وبين البارتي. ساعد تكوين جبهة الاتحاد الوطني في نهوض الحركة الوطنية وتحفز الشعب لإسقاط الحكم الرجعي.

- في 14 تموز 1958 نجحت القطعات العسكرية بقيادة «منظمة الضباط الأحرار» في إسقاط النظام الملكي. وكان الحزب الشيوعي يعرف موعد انطلاق هذه القطعات وغرضها، لذلك عبّأ كوادره استعداداً للأمر، واصدر توجيهات خاصة بهذا الشأن. ولهذا ما إن أعلن عن بدء الحركة، حتى انطلقت الجماهير إلى الشوارع في بغداد والمدن الأخرى، وتحول الانقلاب العسكري إلى ثورة شعبية هائلة، قضت على رموز النظام السابق، وأقامت الجمهورية. لقد كان الحزب في مقدمة المساهمين في إنجاح الثورة ومن المضحين من اجل انتصار قضية الشعب وتحقيق أهدافه عندما عبّأ وفي زمن قياسي قصير مئات الآلاف من المواطنين والمواطنات للدفاع عن الثورة الفتية وبناء النظام الجمهوري.

- بعد انتكاسة ثورة 14 تموز 1958، وقيام انقلاب شباط الدموي الفاشي عام 1963، وجهت ضربة شديدة الى الحزب الشيوعي العراقي وعموم الحركة الديمقراطية في بلادنا، وأهدرت دماء قادة الحزب الأماجد حسين أحمد الرضي (سلام عادل) وجمال الحيدري ومحمد صالح العبلي والكثيرين من الكوادر والأعضاء والأصدقاء، ومن الديمقراطيين الآخرين. وعانى الآلاف من هؤلاء من صنوف الحرمان والآلام في سراديب التعذيب وفي السجون والمعتقلات، وفي ظل ظروف الاختفاء والحرمان من العمل، كما في المنافي، وغير ذلك من مظاهر العسف والاضطهاد.

في 3 تموز 1963 اندلعت انتفاضة معسكر الرشيد البطولية التي قادها شيوعيون من قادة الحزب، عسكريين ومدنيين، على رأسهم العريف حسن سريع، الذي استشهد بعد تعذيب فظ ومحاكمة صورية، حكم فيها بالإعدام، هو وعدد من رفاقه. وكانت الانتفاضة مثالاً على الجرأة الشيوعية والروح الاقتحامية.

لقد فتح انقلاب شباط الأسود الباب لسلسلة من التطورات والانقلابات التي لم تسفر إلا عن إلحاق المزيد من الأذى والخراب بشعبنا ووطننا، والتي بلغت ذروتها في عودة زمرة البكر – صدام الى الحكم في تموز 1968. وقاد ذلك الى إقامة أعتى دكتاتورية عرفها العالم المعاصر تربع على قمتها لاحقا صدام حسين.

- في آب 1964 عقدت اللجنة المركزية للحزب اجتماعاً كاملاً وانتخبت الرفيق **عزيز محمد** سكرتيراً لها، وكذلك مكتباً سياسياً.

- وفي كانون الأول 1967 انعقد في (داربسر) في اربيل، **الكونفرنس الثالث**

للحزب بحضور (57) رفيقاً، واتخذ قرارات هامة لتعزيز وحدة الحزب.

- في عام 1970 **عقد الحزب مؤتمره الوطني الثاني** في كردستان. كما **عقد المؤتمر الوطني الثالث** في عام 1976 في بغداد.

- تصاعدت الحملة القمعية ضد الحزب بعد اجتماع لجنته المركزية في آذار 1978، الذي وجه نقدا شديدا للسلطة الحاكمة ولحزب «البعث» الحاكم حينذاك. وفي أيّار 1978 أقدم النظام على إعدام 31 مواطنا من العسكريين والمدنيين، شيوعيين وأصدقاء للحزب، بحجج واهية، وشن حملات ملاحقة واعتقالات واسعة ومتواصلة. ومارست أجهزة النظام القمعية أشكالا متنوعة من القمع والتعذيب وانتزاع البراءات والتصفية الجسدية في مختلف مناطق العراق، واقترن كل ذلك بحملة إعلامية تضليلية واسعة ضد الحزب.

- في تموز 1979 قررت اللجنة المركزية للحزب قطع العلاقة مع النظام والانتقال الى صفوف المعارضة والعمل على إنهاء نظام صدام حسين الدكتاتوري، وأكدت ان لا منجى للشعب والبلاد من هول الإرهاب والخراب الذي القي فيهما، إلا بإسقاطه والخلاص منه. **وجسّد الحزب توجهه هذا بتبني أسلوب الكفاح المسلح ضد الدكتاتورية وتأسيس حركة الأنصار الذين خاضوا من 1979 الى 1989 قتالاً بطولياً مشهوداً،** مع إخوتهم من بيشمركة الأحزاب الكردستانية، ضد قوات النظام الغاشم ومرتزقته. كما جسده أيضا في العمل السري والتعبوي والتحريضي وتنظيم حملات التضامن الواسعة لدعم نضال شعبنا من اجل السلام وضمان حقوق الإنسان والديمقراطية. ونشط الحزب في إقامة العلاقات مع قوى المعارضة العراقية على اختلاف توجهاتها السياسية والفكرية والقومية وساهم بنشاط وحيوية في الجهود الرامية الى جمع القوى المعارضة للنظام في اطر جبهوية وتنسيقية لتعبئة الطاقات في المعركة ضد الدكتاتورية. وخلال هذه الفترة **عقد الحزب مؤتمره الرابع** في كردستان العراق خلال الفترة 10 – 15 تشرين الثاني 1985.

- في الفترة **12 - 25 تشرين الأول 1993 انعقد المؤتمر الوطني الخامس** (مؤتمر التجديد والديمقراطية) الذي رسم الطريق لإعادة بناء الحزب على أساس من الديمقراطية والتجديد، وصاغ نهج النضال ضد الدكتاتورية ومن أجل البديل الديمقراطي. وانتخب اللجنة المركزية المنبثقة عن المؤتمر الخامس التي بدورها انتخبت الرفيق حميد مجيد موسى (ابو داود) سكرتيرا لها.

- وتطبيقاً لقرارات المؤتمر الوطني الخامس، **عقد الحزب المجلس الحزبي العام (الكونفرنس) الخامس عام 1995، والمؤتمر الوطني السادس عام 1997، والمؤتمر الوطني السابع عام 2001.** وقد كانت هذه الفعاليات محطات مهمة على طريق التجديد والديمقراطية.

- على امتداد التسعينات وحتى انهيار النظام في نيسان (أبريل) 2003، دعا الحزب الى الرفع الفوري وغير المشروط للحصار الاقتصادي الدولي الذي فرض على الشعب العراقي إثر مغامرة نظام صدام الإجرامية بغزو الكويت في آب (أغسطس) 1990.

كما دعا الى تطبيق قرار مجلس الأمن 688 (نيسان 1991)، وهو القرار الوحيد الذي طالب بإنهاء انتهاكات حقوق الإنسان في العراق، وكذلك تقديم صدام وأعوانه الى محكمة دولية لمعاقبتهم على الجرائم التي ارتكبوها ضد الشعب العراقي والإنسانية.

- مع بوادر أزمة جديدة بين نظام صدام والولايات المتحدة، ورغم إدراكه ان الحرب هي الاحتمال الأرجح، سعى الحزب الى طرح خيارات أفضل لتحقيق التغيير، لا سيما خيار مشروعه الوطني الديمقراطي، الذي اعتمد نضال الشعب والقوات المسلحة ووحدة القوى الوطنية المعارضة، وتضمن تأمين الدعم والإسناد الدوليين الشرعيين لتحركهما، لتجنب ويلات ومخاطر الحرب والحيلولة دون احتلال وطننا.

- وبعد انهيار الدكتاتورية في 2003/4/9 واحتلال القوات الأجنبية لبلادنا، واصل الحزب نضاله في الظروف الجديدة الصعبة والمعقدة، ورأى ان السبيل الأنجع لمواجهة الأزمة الناشئة وتجاوزها، هو سبيل **تشكيل الحكومة الوطنية العراقية المؤقتة واسعة التمثيل وذات الصلاحيات، والتي تنبثق عن مؤتمر وطني عام تشارك فيه أطياف الشعب العراقي السياسية والقومية والدينية والطوائف كافة**. فحكومة كهذه، تنبثق عن مثل هذا المؤتمر، هي وحدها القادرة على إنجاز المهمات الصعبة والملحة الكثيرة التي تواجه البلاد، وبضمنها إعداد مشروع الدستور ومشروع القانون الانتخابي، ومباشرة الحوار مع الطرف الأمريكي حول إنهاء الاحتلال.

- **في 13 تموز 2003 شارك الحزب، بشخص الرفيق حميد مجيد موسى، سكرتير اللجنة المركزية للحزب حينذاك، في (مجلس الحكم الانتقالي)**، موضحا في الوقت نفسه ان القبول بـ»مجلس الحكم» في صيغته المطروحة حينها، والمشاركة فيه، لا يعنيان بحال اعتباره بديلاً عن الحكومة الوطنية الائتلافية المؤقتة المرتجاة. بل انه، باعتباره حلاً وسطاً، يمكن ويجب النظر إليه كخطوة في اتجاه إقامة هذه الحكومة، وجزء من التهيئة لإخراجها الى حيز الواقع على أساس برنامج وطني ديمقراطي، يخلص البلاد مما هي فيه ويضعها على طريق إقامة العراق الديمقراطي الفدرالي الموحد.

- **وبحثت اللجنة المركزية للحزب في اجتماعها الاعتيادي المنعقد يومي 24 و 25 تموز 2003 المهام التي تواجه حزبنا والأحزاب والقوى الوطنية الأخرى وعامة جماهير شعبنا في الوقت الحاضر**، ورأت أنها تتمثل في:

• ضمان الأمن والاستقرار وإعادة الأوضاع الطبيعية في البلاد.
• تصفية بقايا النظام المقبور.
• معالجة القضايا المعيشية الملحة: قضية الرواتب، عودة الناس الى أعمالهم، توزيع الحصص التموينية، استئناف مؤسسات الخدمات العامة والبلدية نشاطها الكامل.
• تهيئة مستلزمات إجراء انتخابات حرة نزيهة، تحت إشراف الأمم المتحدة.
• إعداد مشروع دستور يعرض على الاستفتاء الشعبي.
• العمل من ثم على التباحث مع الأمريكيين والبريطانيين حول إنهاء الاحتلال.

- وفي 2004/12/24 التأمت أعمال **المجلس الحزبي العام (الكونفرنس)**

السادس، والذي كان محطة هامة بعد إزاحة النظام الدكتاتوري لتدقيق واغتناء سياسة الحزب التنظيمية والعامة، واقر (الكونفرنس) وثيقة: **توجهاتنا في السياسة الاقتصادية**. وبوحي مما توصل إليه المجلس الحزبي المذكور من قرارات وتوصيات واصل الحزب المسير لتطوير حياته التنظيمية، وتعزيز بناء منظماته وصولا الى الإعداد الجماعي واسع النطاق لعقد المؤتمر الوطني الثامن.

- وخلال الفترة 10 – 13/ أيار 2007، ورغم الاختراقات الأمنية وأعمال الارهاب، أفلح الحزب في عقد **المؤتمر الوطني الثامن** في العاصمة بغداد، في 10 – 13 أيار 2007، وشكّل ذلك تحدياً واضحاً لقوى الارهاب والتخريب، واعلاناً واضحاً عن تمسك الشيوعيين العراقيين بخيار الديمقراطية ودولة القانون والمؤسسات.

وكان شعار المؤتمر هو «**لنعزز صفوف الحزب، ونعمل على توحيد قوى الشعب والوطن، لإحلال الأمن والاستقرار، واستكمال السيادة الوطنية وبناء العراق الديمقراطي الفيديرالي الموحد**».

وأكد المؤتمر «ان حزبنا يعبّر عن ثقته غير المحدودة بشعبنا العراقي، وبقدرته على مواصلة مسيرته، رغم كل ما يواجهه من صعوبات وعراقيل، نحو إقامة دولة المؤسسات والعدل والقانون، وإستعادة السيادة الوطنية الكاملة، وبناء العراق الديمقراطي الفيديرالي الموحد».

وبروح المسؤولية وفي أجواء الشفافية والنقاش الحر والسجال الديمقراطي، بحث المندوبون وأقروا مشاريع الوثائق المقدمة (التقرير السياسي، البرنامج، النظام الداخلي، الورقة الفكرية)، كما صادقوا على عدد من القرارات والتوصيات.

وتوقف المؤتمرون عند سبل تعزيز دور الحزب في حياة البلاد على الصعد المختلفة. واستأثرت بالاهتمام العملية السياسية وآفاق تطورها وتطلع أبناء شعبنا الى دحر الإرهاب والطائفية، وضمان الأمن والاستقرار، وتحسين مستلزمات استكمال الاستقلال والسيادة الوطنية وانهاء الوجود العسكري الأجنبي وآثار الاحتلال وبناء العراق الديمقراطي الفيديرالي الموحد.

كما أقرّ المؤتمر الوثيقة الفكرية المهمة المشار اليها سابقاً، التي نوقشت على مدى سنوات من قبل منظمات الحزب ورفاقه، والتي كانت بعنوان «خيارنا الاشتراكي: دروس بعض التجارب الاشتراكية».

- وفي الفترة 8 - 13 أيار 2012، عقد الحزب مؤتمره الوطني التاسع في بغداد وشقلاوة (اقليم كردستان)، تحت شعار «دولة مدنية ديمقراطية اتحادية.. عدالة اجتماعية».

وكان الافتتاح العلني للمؤتمر، بحضور حشد واسع شعبي ورسمي، هو الأول من نوعه في تاريخ الحزب، وحظي بتغطية إعلامية واسعة.

وانتقل المؤتمرون بعدها الى شقلاوة في كردستان العراق لإكمال أعماله، وتوزعوا على ورشات عمل أربع لدراسة مشاريع الوثائق الأساسية المقدمة إليه: الموضوعات السياسية، برنامج الحزب، النظام الداخلي للحزب، والتقرير الانجازي.

وكانت التحضيرات إلى المؤتمر قد بدأت منذ ما يقارب السنة قبل انعقاده، بطرح وثيقتي الحزب الرئيسيتين (البرنامج

والنظام الداخلي) للنقاش الداخلي والعلني، ونشرتا مع «الموضوعات السياسية» في وسائل إعلامه.

وفي أجواء من الشفافية والديمقراطية والسجال الحر للآراء، جرى تداول وثائق المؤتمر وإقرارها. وفي اليوم الأخير، في اقتراع سري مباشر، تم انتخاب اللجنة المركزية الجديدة للحزب. وشمل التجديد حوالي 47 في المئة من قوامها، وصارت ايضاً، لأول مرة، تضم خمس نساء، اضافة الى ثلاثة من الشباب دون سن الثلاثين.

- بعد شهور من أشغال اللجان المختلفة، والاجتماعات والموسعات الحزبية على مختلف المستويات التنظيمية، ونتائج وخلاصات سلسلة من الفعاليات والندوات واللقاءات مع قطاعات مختلفة، التي راكمت حصيلة كبيرة من الأفكار والتصورات والمقترحات والمقاربات حول المرجعية الفكرية، والبرنامج النضالي، والرؤية الاقتصادية والاجتماعية، وحول تقييم سياسة الحزب خلال السنوات التي تلت انعقاد المؤتمر التاسع (ايار 2012)، وتحت شعار « **التغيير .. دولة مدنية ديمقراطية اتحادية وعدالة اجتماعية**»، وبحضور حشد كبير من المسؤولين والشخصيات السياسية والنواب وممثلي الاحزاب والقوى الوطنية والديمقراطية والمنظمات والاتحادات المهنية والنقابية والجماهيرية، ومن الشخصيات الاجتماعية والدينية والمثقفين والإعلاميين والصحفيين والأكاديميين، الى جانب جمهور واسع من رفاق الحزب وأصدقائه، التأمت أعمال **المؤتمر الوطني العاشر** للحزب خلال الفترة 1-3 كانون الاول 2016. ولم تتقوقع النقاشات، التي جرت على مختلف الصُعد، حول واقع الحزب، وطبيعة دوره الراهن في ظل وضع سياسي مضطرب يموج بكثير من الاحتمالات والمشاهد السياسية على اهمية ذلك كله، بل ركزت الملاحظات والحوارات والوثائق المقرّة أيضا حول آفاق تطور الحزب، فكرا وممارسة، وتوسيع قاعدته في سياق التبدلات والتحولات الجارية على الصُعد المحلية والإقليمية والدولية، باعتبارها تشكل واحدا من التحديات الهامة.

وفي جلسة المؤتمر الأخيرة، في اجواء تنافس ديمقراطي، تم انتخاب اللجنة المركزية الجديدة. وفي الاجواء ذاتها انتخبت اللجنة في اجتماعها الأول يوم 4 كانون الاول 2016، الرفيق رائد فهمي سكرتيراً لها، كما انتخبت مكتبها السياسي.

- وخلال الفترة 24 – 28 تشرين الثاني 2021 **عقد الحزب الشيوعي العراقي مؤتمره الوطني الحادي عشر** في بغداد، تحت شعار «**التغيير الشامل: دولة مدنية ديمقراطية وعدالة اجتماعية**».

افتتح المؤتمر بجلسة علنية وسط حضور رسمي وشعبي حاشد، القيت فيها كلمات وتحيات عديدة، كما وردت العديد من رسائل التحية من الأحزاب والشخصيات ومنظمات المجتمع المدني، كذلك من الأحزاب الشيوعية واليسارية في البلدان العربية والعالم.

وفي كلمته في الجلسة أشار الرفيق رائد فهمي سكرتير اللجنة المركزية للحزب، الى أن انعقاد المؤتمر الحادي عشر يأتي امتدادا لتقاليد حزبنا منذ التأسيس في آذار 1934، ومواصلة لسعيه الى انتظام عقد مؤتمراته،

كي يكون كل منها محطة إضافية للتجديد، ولتطوير الديمقراطية الداخلية، بعد الفحص النقدي للأداء، وبعد المراجعة والتقويم.
وعقدت اللجنة المركزية بقوامها الجديد اجتماعها الأول لاحقا، وفيه انتخبت الرفيق رائد فهمي سكرتيراً لها، والرفيق بسام محيي نائبا له، كما انتخبت مكتبها السياسي.
انبثقت عن المؤتمر قيادة جديدة للحزب زادت نسبة الشباب فيها على 55 بالمائة في المكتب السياسي وعلى 42 بالمائة في اللجنة المركزية، مع التوجه نحو تكثيف الجهود في صفوف النساء وزيادة أدوارهن في هيئات الحزب القيادية على مختلف المستويات.
- منذ تأسيسه اصدر الحزب العديد من الصحف على مستوى المحافظات أو على المستوى الوطني، سواء تلك السرية أم العلنية، ومن بينها: كفاح الشعب، اتحاد الشعب، الفكر الجديد، طريق الشعب التي تصدر حاليا بمعدل 3 مرات في الأسبوع. ومنذ عام 1953 يصدر الحزب مجلة نظرية هي (الثقافة الجديدة) التي تصدر حاليا بمعدل مرة واحدة كل شهرين.
- أما بشأن **الهوية الطبقية**، فإن الحزب الشيوعي العراقي اتحاد طوعي لمواطنات ومواطنين يجمعهم الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة والفلاحين والجماهير الكادحة من شغيلة اليد والفكر وسائر فئات الشعب، والكفاح من اجل تأمين التطور الديمقراطي الحر والمستقل للبلاد. إنه يناضل ضد الاضطهاد السياسي والقومي والاستغلال الاقتصادي والاجتماعي، ومن اجل التحرر وإقامة المجتمع الديمقراطي وتحقيق التقدم الاجتماعي وبناء الاشتراكية.
- ومن حيث **مرجعيته**، وكما اشرنا سابقا فإن الحزب يسترشد في كفاحه، وفي مجمل سياسته وتنظيمه ونشاطه، بالفكر الماركسي والتراث الاشتراكي عامة، ويسعى إلى تجسيد ذلك في ظروف العراق الملموسة بإبداع، استنادا الى دراسة عميقة لواقع مجتمعنا المعاصر وما يشهده من تطورات في ميادينه كلها.
- وبشأن **طبيعته**، هو حزب ديمقراطي من حيث جوهره وأهدافه وبنيته وتنظيمه ونشاطه، ومن حيث علاقاته بالقوى الاجتماعية والسياسية الأخرى. وإذ يرفض كل أشكال الحكم الاستبدادي والتسلط السياسي ومصادرة حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، يعمل الحزب الشيوعي العراقي على إقامة نظام ديمقراطي أساسه التعددية السياسية، والفصل بين السلطات، والتداول السلمي للسلطة، واحترام حقوق الإنسان، وضمان الحريات الشخصية والعامة، واعتماد مبدأ تكافؤ الفرص، وتأمين العدالة الاجتماعية، وبناء دولة القانون والمؤسسات، الدولة الديمقراطية العصرية. كما انه حزب وطني مستقل، يضع المصالح العليا للشعب العراقي والوطن فوق أي مصلحة أخرى. ويذود عن مصالح الطبقة العاملة والفلاحين وبقية الكادحين، وعن المطامح والمصالح الوطنية للشعب العراقي.
- والحزب **مدافع ثابت عن حق جماهير شعبنا في التمتع بالحريات الديمقراطية**، ومنها حرية التنظيم الحزبي والسياسي والنقابي والمهني والاجتماعي والنشر والصحافة، والتعبير عن الرأي وحرية العقيدة والاجتهاد، وكذلك التظاهر والإضراب. فكان للشيوعيين دور ريادي

في تأسيس النقابات والاتحادات والمنظمات المهنية والاجتماعية والثقافية.

- وسعى الحزب على الدوام لربط السياسي من أهدافه بالاجتماعي، والوطني بالطبقي. وإذ يناضل من اجل الحرية والاستقلال وبناء الاقتصاد الوطني، فهو يدافع بثبات عن مصالح وحقوق الكادحين عمالا وفلاحين ومن شغيلة اليد والفكر عموما. وقاد الجماهير الشعبية وحفزها وشجعها للدفاع عن حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية عبر مختلف الأشكال والوسائل.

- كما دافع الحزب مبكراً عن الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي وحقه في تقرير مصيره، وكان الحزب سبّاقا كذلك في إدراك الترابط بين تطمين الحقوق القومية للشعب الكردي وبين إقامة النظام الديمقراطي في بلادنا، وتجلى ذلك في إطلاق شعاره الشهير «الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكردستان»، والذي طوره لاحقا الى مطالبته بالفيدرالية لكردستان ضمن عراق ديمقراطي موحد. ويعمل الحزب على ضمان الحقوق القومية والثقافية والإدارية للتركمان والكلدوآشورسريان والمكونات الأخرى.

- وأدرك حزبنا بعمق ارتباط النضال الوطني لشعبنا بالنضال الوطني التحرري للشعوب العربية وسائر الشعوب وقوى السلام والتقدم في المنطقة والعالم اجمع. فارتفع صوته عاليا مناصراً لقضايا الشعوب العربية الشقيقة في نضالها من أجل التحرر الوطني والديمقراطية والتقدم الاجتماعي وضد الاضطهاد والعسف. كما دافع على الدوام عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته الوطنية المستقلة.

- كما أسهم الحزب بقسطه في نضال البشرية وقواها الديمقراطية ضد الإمبريالية ومختلف منتجاتها متمثلة في الفاشية والنازية وغيرها، وضد الحروب ومن اجل السلام وانعتاق الشعوب وتقدمها. كما اعتبر الحزب نفسه، في الوقت ذاته، جزءاً من الحركة العالمية التي تناهض اليوم استخدام العولمة من جانب قوى الرأسمالية وسيلة لإدامة نظامها وتعظيم قدراته، وفرض إرادته على العالم وشعوبه عن طريق العنف السياسي والتدخل العسكري على حد سواء. ويربي الحزب أعضاءه وأصدقاءه بروح الأممية والتضامن مع الشعوب، ومساندة حقها في تقرير المصير واختيار النظام الذي تريد، ويناضل من اجل تثبيت القيم الإنسانية وحمايتها، ولإقامة نظام عادل للعلاقات الدولية، وحماية البيئة، وتعزيز دور المؤسسات الدولية، وفي مقدمتها منظمة الأمم المتحدة، كي تمارس نفوذها ودورها في معالجة المشكلات الدولية، وفق قرارات الشرعية الدولية وبما يخدم مصالح السلم العالمي وحقوق الشعوب.

مسار صعب ولكنه عذب

ذكريات في العيد التسعين!

صادق الجواهري

ولدت في النجف عام 1934، أي في نفس العام الذي ولد فيه حزبنا الشيوعي العراقي، العام الذي افتخر واعتز به، لانه سجل ولادة حزب النضال والتضحية، حزب وطن حر وشعب سعيد. ومدينة النجف، كما هو معروف، مدينة العلم والأدب والشعر والثقافة، مدينة الثورات والانتفاضات ضد كل أشكال الاستعمار والدكتاتورية. النجف رمز البطولات والتضحيات، مدينة الشهداء نجم البقال وحسين محمد الشبيبي وسلام عادل وحسن عوينة وجعفر الجواهري ومحمد التتنجي وشهيد ابو شبع وغيرهم.

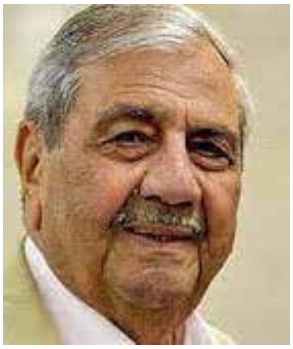

وعي مبكر

انتمي الى عائلة دينية عريقة، يرجع لقبها (الجواهري) الى جد العائلة، الشيخ محمد حسن الشيخ باقر، صاحب الموسوعة الفقهية الاسلامية، جواهر الكلام، والمرجع الأعلى للشيعة في زمانه. وكانت عائلتي متوسطة الحال، فقد كان والدي صاحب محل لبيع التبغ، وكان جدي لوالدتي، الشيخ عبد الحسين الحياوي، مرجعاً دينياً في واسط واديباً وشاعراً، وخاصة في المآتم الحسينية.

تعلمت في الكتّاب، لدى المرحوم ملا سلمان، قبل دخولي المدرسة الابتدائية. وكان والدي يصحبني معه في الأربعينات الى دار احد أصدقائه مساء ويجتمع هو وآخرين في سرداب البيت ليستمعوا الى النشرات الاخبارية عن الحرب العالمية الثانية. كانوا منقسمين فيما بينهم في الموقف منها، فهناك من يقف الى جانب روسيا والجيش الاحمر، ومنهم من يقف الى جانب هتلر وموسوليني. كان النقاش يحتدم وكنت اميل الى جانب والدي الذي كان في صف الإتحاد السوفيتي، دون وعي مني. وكنت حين اسمع صيحة تقول (جاهم ابو الشوارب) اود أن اعرف من هو «ابو شوارب» هذا. كانت نقاشاتهم تمتد الى ثورات النجف وبطولات اهلها ضد العثمانيين والانكليز، وعن الثائر الحاج نجم البقال وثورة النجف وثورة العشرين، وقد

غرس كل ذلك في نفسي فضول التساؤل عن هذه الأمور.

البدايات

في كانون الثاني 1948، اندلعت شرارة الوثبة المجيدة، فعّمت النجف تظاهرات جماهيرية كبيرة، أحرق فيها المركز الثقافي البريطاني، واستخدمت الشرطة الأسلحة النارية، فسقط جراء ذلك شهداء. ووقفت بعض عشائر النجف بأسلحتها الى جانب المتظاهرين. وتمكنت الوثبة من اسقاط وزارة صالح جبر، فتم تكليف رجل دين بتشكيل الحكومة، لامتصاص غضب الجماهير. وقد شنت سلطات الأمن بعدها حملة اعتقالات واسعة، شملت العديد من المناضلين. وعلمت العائلة حينها باستشهاد قريبي جعفر الجواهري في معركة الجسر التي وقعت إبان الوثبة، الامر الذي دفع جميع عائلة ال الجواهري الى الوقوف ضد النظام الملكي، ليس الشباب وحدهم، بل وحتى رجال الدين. ودفن الشهيد في مقبرة ال الجواهري، فيما جاءت وفود المعزّين من جميع محافظات ومدن العراق، وهي تهتف ضد الحكومة وضد الاستعمار، فيما يشبه تظاهرات عفوية، شاركنا نحن شبيبة العائلة والنجف فيها، ومثلت بداية الوعي السياسي.

أكملت الدراسة الابتدائية في عام 1950 - 1951وانتقلت الى المتوسطة، وراحت تتكون لي علاقات جديدة مع طلاب يسبقوني بسنة أو سنتين. وكان اول شخص يتصل بي ويفاتحني بأمور سياسية، الاخ والصديق باقر ابراهيم، الذي ثبّت ذلك في ذكرياته. وقام بتزويدي بكراريس وكتب منها «مستلزمات كفاحنا» و»حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية» للرفيق الخالد فهد، و»الجبهة الوطنية» للرفيق حسين الشبيبي، وكتاب «تحت اعواد المشانق» ليوليوس فوتشك ورواية «الفولاذ سقيناه». وبعد فترة سلمني الى المناضل عبد الزهرة طنبيرة الذي ضمني الى حلقة بصفة صديق منظّم، وهي درجة حزبية كانت تسبق الترشيح الى عضوية الحزب، يتحمل فيها الصديق المنظّم كل المهمات تقريباً التي يمارسها عضو الحزب. وكنت اكلف بكتابة الشعارات على الجدران ولصق المناشير، واستنساخها بقلم قوبية وكاربون، عندما ينام والدي، الذي انتبه يوماً بسبب بقاء مصباح غرفتي مضاءً فأشفق علّي قائلاً (كافي دراسة عيونك راح تعمى) دون أن يدري بأني استنسخ نشرات شيوعية.

المساهمة في النضال

اشتركت بأول تظاهرة انطلقت من سوق الحويش تحمل شعاراً واحداً، اغلق اصحاب المحال على اثرها محالهم، ربما تضامناً معها او خوفاً من تبعات قمعها، وكانت هذه اول تجربة عملية لي. وفي ايار 1952 اضرب القصابون واغلقوا محالهم، احتجاجاً على رفع الضرائب عليهم. وحاولت البلدية القيام بالذبح لإفشال الإضراب، فنظم الحزب تظاهرة جماهيرية كبيرة تضامناً مع القصابين، خرج في حراستها عدد من المناضلين الملثمين. حضرت مفرزة من الشرطة بقيادة المفوض «ابو فائزة» لتفريق التظاهرة، فاصطدم معها حراسها واصيب المفوض ومات فهرب الباقون. وعلى اثرها شنت السلطات حملة اعتقالات واسعة، كنت من بين ضحاياها.

نقلنا الى الموقف في كربلاء ولأول مرة التقي واتعايش مع مناضلين منهم عبد الامير الخياط، الذي علمت في ما بعد انه سكرتير منظمة النجف، وحسين سلطان واخرين. كنا موزعين على زنزانتين. وقد اهتم الرفاق بي لأنني كنت اصغرهم سناً. اضربنا عن الطعام مطالبين باطلاق سراحنا، وتطوع عدد من المحامين من لجنة الدفاع عن العدالة، منهم موسى صبار وجواد عبدالحسين وعبد الغني مطر، للمطالبة باطلاق سراحنا. كما زارنا محافظ كربلاء مكي الجميل وهو شقيق حسين الجميل (القيادي في الحزب الوطني الديمقراطي حينها) لثنينا عن الإضراب دون جدوى.

أدعى افراد الشرطة بأن المتظاهرين الذين هاجموا المفوض هم الرفيق العامل حسين روضة وعبد الرزاق طنبيرة وشخص ثالث لا اتذكر اسمه مع الاسف، رغم عدم وجود علاقة لهم بالأمر. فأبقوا عليهم معتقلين وتم اطلاق سراحنا بعد اكثر من شهر من التوقيف.

استشهاد القادة

بعد الضربة الأليمة التي تلقاها الحزب، بإعدام قادته الرفاق الخالين فهد وحازم وصارم واعتقال العديد من قادة واعضاء حزبنا، تم تشكيل مركز جديد للحزب، وراح يضمد جراحه، ويوسع نشاطه الجماهيري، فنظم العديد من التظاهرات والإضرابات العمالية، وساهم في إنجاح عقد مؤتمر السباع للطلبة والذي انبثق عنه أول اتحاد طلابي (اتحاد الطلبة العام) في 14 نيسان 1948. كما تشكلت المنظمات الجماهيرية كحركة انصار السلام والنقابات واصدار العديد من الصحف والمجلات والكتب وغيرها من الفعاليات والنشاطات الجماهيرية والتظاهرات، وخاصة ضد الأحلاف العسكرية كالحلف الباكستاني التركي الذي كان يمهد لحلف بغداد، واحتجاجاً على زيارة عدنان مندرس رئيس وزراء تركيا وتضامنا مع اضراب عمال السكاير في السليمانية، تلك النشاطات التي استمرت حتى اندلاع انتفاضة تشرين المجيدة.

وفي عام 1952، وبعد أن نضجت الظروف الموضوعية والذاتية، ومنها محاولة جر العراق الى الأحلاف العسكرية وادخاله في مشروع النقطة الرابعة واشتداد القمع وتردي الاوضاع المعيشية وتصاعد المد الثوري، انطلقت شرارة انتفاضة تشرين من اضراب وتظاهر طلاب كلية الصيدلة والكيمياء ثم باقي الكليات وبمشاركة الجماهير الشعبية. وقد لعبت الصحف الوطنية دورا مهما في تعبئة وتحشيد الجماهير مثل جريدة الأهالي والثبات والبلاد والدفاع وغيرها. وما ان وصل خبر اندلاع الانتفاضة في بغداد حتى تجاوب وتضامن طلاب مدينة النجف في المتوسطة والثانوية معها، ودعوا الى الاضراب والتظاهر والتحق بهم الناس. وعند وصول المظاهرة الى ساحة الميدان، تصدت لها مفارز الشرطة بالرصاص، فسقط شهيد وأصيب بالرصاص زميلنا بالمتوسطة حسن تبينه، وسارع موسى الجواهري الى حمله بعربة احد الحمالين لينقذ حياته. استمرت الهتافات عالياً للسلام العالمي وبسقوط النظام الملكي ولإطلاق سراح السجناء السياسيين وتوفير العمل للعاطلين وضد الأحلاف الاستعمارية، ومن اجل تشكيل حكومة وطنية برئاسة كامل الجادرجي. وبعد سقوط وزارة

جميل المدفعي وتولي الوزارة رئيس اركان الجيش نور الدين محمود، كما تم اعلان الاحكام العرفية وتعيين حاكم عسكري. وصدرت من محمود هذا، عدة مراسيم كان منها مرسوم بتسعير المواد الغذائية ومنها الشلغم وبسعر مضاعف لسعره في السوق، فقام احد باعة الشلغم المسلوق بإرسال برقية الى نوري الدين محمود أذيعت من إذاعة بغداد اسوة ببرقيات التأييد للوزارة من قبل شيوخ العشائر والإقطاعيين، وجاء فيها (سيادة رئيس الوزراء، تسعيركم للشلغم اثلج صدورنا سيروا على بركة الله)!

وصلت مدينة النجف قطعات من الجيش كانت بقيادة عبد الوهاب الشواف، الذي كان متعاطفاً مع المتظاهرين، فسمح بصعود بعضهم على الدبابات والقاء الخطب بالجماهير، ومن ابرز الخطباء وقادة التظاهرات، اتذكر الشهيد عواد الصفار والفقيد حسين سلطان والشهيد حسن عوينة وعلي السيد سلمان ومحمد ابو كالة وشهيد ابو شبع. ومن نشطاء الطلبة كان هناك صاحب الحكيم وخضر الصراف وكاظم الصفار وموسى الجواهري وحكمت شبرو وفؤاد الجواهري. ومن نشطاء العمال اتذكر محمود ابو شوارب وفيحان كريم احمد وضياء القزويني ومهدي الرضي وجعفر القاضي ورزاق زيدان ووداعة القصاب وغيرهم من المناضلين البواسل.

السجن

بعد توقف التظاهرات لجأت الى بيت العم موسى الجواهري والد الاستاذ حمزة الجواهري في ابي صخير، وبقيت فترة ثم عدت الى النجف فألقي القبض عليّ، ضمن حملة قمع واسعة شملت العديد من المناضلين. جرى تسفيري الى بغداد وعُرضت على المجلس العرفي، فحكم عليّ بالحبس لمدة شهرين بتهمة التظاهر، ونقلت الى سجن الإصلاحية في وسط بغداد، المخصص للسجناء الشيوعين. استقبلني الرفاق في السجن وكان قد سبقني اليه عدد من المناضلين النجفيين، منهم سكرتير منظمة النجف عبد الامير الخياط (ابو رعد) واربعة اخوة هم اولاد المرجع الديني الكبير الشيخ مشكور احدهم معمم هو الشيخ جواد مشكور وأخوته موسى وجعفر واصغرهم مهدي الذي استشهد لاحقاً في مجزرة سجن بغداد حزيران 1953، وصاحب الحكيم وغازي شريف.

كان هناك في السجن العديد من الرفاق القياديين ومن كل المحافظات، عربا واكراداً واقليات، ومن جميع الاديان والطوائف، منهم من حكم عليه بالاشغال الشاقة فوضعوا السلاسل الحديدية في رجليه وحتى خصره:

سلام على مثقل بالحديد

ويشمخ كالقائد الظافر

كأن القيود على معصميه

مفاتيح مستقبل زاهر

كان هناك الشاعر الكردي الكبير عبد الله كوران، ومعه اثنين من اولاده، والفنان التشكيلي رشاد حاتم الذي أرخّت لوحاته حياة السجن، ولا أدري الان ماذا حل بها، خاصة بعد المجزرة، والشاعر الشعبي الشهيد شهيد شبع، الذي نظم كل اناشيد السجون بمشاركة الرفيق الشهيد حسن عوينة. كما كنت أشاهد الرفيق مكرم الطالباني، الذي لم يكن منتمياً للحزب حينها، يتمشى في ساحة السجن بشكل مهيب يفرض احترامه. وكان هناك

ابن الفنان محمد القبنجي وآخرون. تعرفت على الكثير من المناضلين في هذه الفترة من بينهم الرفيق الراحل عزالدين مصطفى رسول، الذي التقيته لاحقاً في دمشق وفي باكو بعد الانقلاب المشؤوم في 8 شباط حيث كان يدرس الدكتوراه هناك، وكان اخر لقاء لنا اثناء زيارته لأحد اقربائه في مدينة مالمو السويدية. له الرحمة والذكر الطيب دوماً.

كانت الحياة في السجن منظّمة، وكان من وضع اسسها الرفيق الخالد فهد. كان علينا النهوض صباحاً وممارسة التمارين الرياضية ثم تناول الفطور والشاي. وبعد استراحة يدخل السجانة الى السجن يرافقهم ممثل المنظمة لاجراء التعداد، يعقبها اجتماع السجناء في قاعة كبيرة لسماع اخر الاخبار والتعليق عليها، ثم ينشغلون بممارسة هواياتهم، كلعب الشطرنج او الدامة او قراءة الكتب أو تبادل الأحاديث السياسية. كما كانت هناك اجتماعات فكرية، تتم فيها مناقشة أمور عديدة ونستمع فيها لمحاضرات غنية. ظهراً نتناول الغداء وبعده الشاي والاستراحة، قبل أن تبدأ مباريات كرة الطائرة ودروس محو الأمية وتعلم اللغة الإنكليزية او الروسية، ثم تناول العشاء حتى يطفأ النور في العاشرة مساء.

عندما وصلت الى السجن كان السجناء في حركة دائبة استعدادا لاحتفالات عيد نوروز وعيد تأسيس الحزب حيث تدريب فرق النشيد والغناء والتمثيل ومسابقات الشطرنج وكرة الطائرة. الا ان موت جوزيف ستالين والحزن الذي عمّ الجميع والإنشقاق الذي حدث بعد ذلك، أدى لالغاء الاحتفالات والاكتفاء بالكلمات والأناشيد الثورية ومنها النشيد الأممي.

حدثان مهمان

في السجن عشت حدثين مهمين، الأول في 5 آذار 1953 حين مات جوزيف ستالين. والثاني الانشقاق الكبير الذي حدث في السجن. كان المنشقون متوزعين على الغرف والقواويش، ومعظمهم من الكوادر القديمة، مثل إبراهيم ناجي، والذي اشيع بأنه كان عراب الانشقاق، ويعقوب مير مصري والشهيد جمال الحيدري وعزيز محمد وحسقيل قوجمان وصبيح مير وهادي عبد الرضا وآخرون، تجاوز عددهم الستين رفيقاً. أما من بقي مع الحزب فكان عددهم يربو على الستين ومنهم المخضرم سليم الجلبي وعزيز الشيخ وحمزة سلمان وصادق جعفر الفلاحي وعطشان الازيرجاوي وحمدي ايوب العاني وعدنان البراك وصبيح سباهي وغيرهم. وكانت هناك غرف صغيرة، يعيش فيها بعض المناضلين الذين كانت لديهم مواقف ضعف اثناء التحقيق. والغريب أن احد هؤلاء، وكان من اصول افريقية ويدعى الحاج بشير، قاوم السجانة ببسالة وشجاعة لاحقا وإستشهد وهو يهتف بحياة الحزب، في معركة دارت في السجن.

كنت أنا في بادئ الأمر مع المنشقين لاني انبهرت بشخصياتهم. وبعد أسبوع من الانشقاق، نظم طلبة الكليات تظاهرة بنفس اليوم، اعتقل على اثرها 35 متظاهراً، واحيلوا بنفس اليوم الى المجلس العرفي العسكري وحكم عليهم وجيء بهم الى السجن بعد منتصف الليل. وحال وصولهم راحوا يهتفون ضد المنشقين وبأسمائهم الحزبية (مخلص و جبار و مشعل و مظفر وقادر) واستقبلهم الرفاق من مجموعة الحزب بالاحضان، فتأثرت بالمشهد وعدت

الى صفوف الحزب ومعي عدد من الرفاق أبرزهم نجفي يدعى غازي شريف.

وبتأريخ 20 اذار، اطلق سراحي، وأرسلت مخفوراً الى النجف وعندما وصلتها علمت ان المنظمة ذهبت بالكامل مع المنشقين. ويبدو أن مسؤول النجف الذي كان في السجن قبل الانشقاق، تمت تعبئته بأطروحات المنشقين، فتبناها مباشرة حال إعلان الانشقاق.

هرب من السجن الرفيق الشهيد جمال الحيدري وكذلك سليم الجلبي وصادق جعفر الفلاحي. وشكّل الشهيد جمال الحيدري مركزاً حزبياً ثانياً، وأصدر جريدة «راية الشغيلة»، التي تبادلت الاتهامات مع الحزب، أو كما كانت تسميه جماعة باسم – بهاء الذين نوري، ووصفته بالتطرف اليساري التصفوي والتجاوز على البرنامج الذي صاغه الرفيق الخالد فهد والذي اقر في مؤتمر الحزب الأول. وكانت جريدة الحزب، القاعدة، تصف جماعة راية الشغيلة بالبلاطين نسبة الى البلاط الملكي لانهم رفضوا تغيير برنامج الحزب ورفع شعار إسقاط النظام الملكي.

للنضال مجدداً

وصلتُ النجف، وانا صديق منظم وعضو في اتحاد الطلبة. في بادئ الامر تحركت على اقاربي لسحبهم من «راية الشغيلة» فتجاوب أربعة من اقاربي وابن خالتي شاكر الصراف معي، وتحركوا هم بدورهم على أصدقائهم، فازداد عددنا، ونشطنا دون ان تكون لنا صلة مع الحزب. كسبنا رفيق هو وداعة القصاب وحسن معدل وكانا نشطين جدا وشكلنا فريق كرة طائرة خارج الولاية قرب شط النجف. ازداد عددنا والتحق بنا الرفيق غازي شريف بعد أن انهى محكوميته وتحرك لإيجاد صلة بالحزب وتم لنا ذلك.

أصبحنا منافسين لمنظمة راية الشغيلة والتحق بنا عبد الجليل موسى وكريم كاشف الغطاء وآخرون وتوطدت صلتنا بالحزب وبدأنا استلام البريد الحزبي والتوجيهات بانتظام، وكلف الحزب رفيقا من خارج مدينة النجف لقيادة المنظمة، عرفت فيما بعد انه عدنان الديّو، الذي التقيته في اقبية التحقيقات الجنائية بعد العام 1954، معتقلاً في قضية مع الرفيق الفقيد كريم احمد، حيث اعتقلا معاً في منطقة طاطران بشارع الكفاح.

نشرت راية الشغيلة الرسالة الإنتقادية التي وجهها من السجن الرفيق مخلص (عزيز محمد) الى قيادة الحزب، وكانت مكونة من اكثر من ستين صفحة، وللأسف كان جواب الرفيق (باسم) عليها مكونا من سطر واحد يقول (نقاشكم اكاديمي عقيم تشم منه رائحة الانتهازية)، ثم قرر طردهم من الحزب!

سجين للمرة الثانية

لم يطل بي الامر حتى جاءت الشرطة الى دارنا وعثرت على كتاب تأريخ الحزب الشيوعي البلشفي ورواية الفولاذ سقيناه، فألقت القبض علي وعلى الرفيق نعمة المختار في جدول النجف، بعد مطاردة ورمي بالرصاص ووضعوا كل واحد منا في زنزانة.

في احدى الليالي وانا في زنزانتي، جاؤوا بشخص لا اعرفه وحشروه معي في الزنزانة. سألته عن التهمة فقال لا اعرف، انا تاجر سجاد من اهالي بغداد، وتدعي الشرطة بأنه كان معي واحد شيوعي وهرب. كان الرجل شديد التكتم وقليل الكلام، واخبرني

بأنه مريض بالسل وطلب مني عدم الإقتراب منه خاصة حين يسعل. وبعد يومين بدأ يسعل ويخرج الدم من فمه، فرحت اصرخ واضرب باب الزنزانة الى ان جاء الحراس وحملوه الى المستشفى. بعد ايام ومساء جاء معاون المركز وبدأ بشتمي وسحبوني الى غرفته وراحوا يعذبونني بالضرب علي كل جسمي، دون أن اعرف السبب. ثم سألوني عن ذلك الرجل (المسلول) فأجبت بأني لا أعرفه، وحكيت لهم ما حدث بدقة، فلم يصدقونني، وقالوا بأنه شيوعي كبير وقد هرب من المستشفى. بعد فترة علمت بأن الرجل بقي في ازقة النجف صحبة القصاب الشيوعي المعروف وداعة، الذي ساعده على الهرب عند رؤيته لمفرزة الشرطة، وإنه كان يحمل بريدا حزبيا.

بعد انتصار ثورة 14 تموز، ذهبت الى مقر الحزب في شارع الكفاح، وكنت على موعد مع الرفيق سليم اسماعيل مرزة، النجفي المحرر في جريدة اتحاد الشعب واذا بي اجد تاجر السجاد محررا في الجريدة هو الآخر. كان من مدينة راوة، احتضنني بفرح غامر، وأخبرته ضاحكاً، بحجم العذاب الذي لقيته بسببه على يد عباس جرموكة معاون النجف، فقال علمت ذلك وانا مدين لك. كان قد جرح لسانه لكي يبصق دماً وينفذ خطته للهرب. وللأسف لا أتذكر اسمه.

في 16 حزيران عام 1953 وصلنا انا والرفيق نعمة المختار الى سجن بغداد المركزي، طلبنا من ادارة السجن نقلنا الى سجن السياسيين القريب من سجن السجناء العاديين، الا أنهم رفضوا ووضعنا في زنزانات صغيرة مخصصة للمحكومين بالإعدام. وفي نفس المكان وجدنا الرفيق (الخالدي) مع الأسف نسيت اسمه، قد سبقنا الى إحدى غرف الإعدام. قررنا البدء بإضراب عن الطعام، وفي اليوم التالي 18 حزيران بدأنا نسمع هتافات السجناء السياسيين وحركة الشرطة والسجانين على الأسطح المطلة على السجن، ونداءات تطالب السجناء بالاستسلام، ويرد السجناء بالهتافات ورفض نقلهم الى سجون اخرى، بعد أكثر من ساعة بدأ رمي الرصاص الحي على السجناء العزل، ما أدى الى استشهاد عدد من السجناء الشيوعيين واصابة العشرات منهم، وتم نقل من بقي على قيد الحياة الى سجن بعقوبة الانفرادي.

مجزرة سجن الكوت

وبتاريخ 21 حزيران تم تسفيرنا نحن الثلاثة الى سجن الكوت، وحين وصولنا تم استقبالنا بحرارة من رفاقنا في سجن الكوت، كانت الاجواء متوترة بين السجناء وادارة السجن بسبب عدم الاستجابة لمطالب السجناء بوقف سوء المعاملة والتعذيب، والاحتجاج على ما تم في مجزرة سجن بغداد.

وفي تموز 1953 بعد اقل من شهر على مجزرة بغداد سعت سلطات العهد الملكي، والتي يحلو للبعض اليوم وصفها بالنزيهة، الى تجريدنا نحن السجناء من حقوقنا الادمية، التي أجبرنا الجلادين بنضال شاق واضرابات عن الطعام وسقوط شهداء، على الاعتراف لنا بها، فطلبت من السجناء تسليمها عشرة رفاق من اليهود لتسفيرهم الى سجن نقرة السلمان وتسليم مكتبة السجن التي انشأها الرفيق الخالد فهد حين كان سجينا في الكوت، وكل محتويات الصيدلية، والقيام بتفتيش دوري للردهات، الا ان منظمة السجن

رفضت هذا، وكلفت الرفيق ممثل السجن ابلاغ ادارة السجن بالرفض لشروطهم، الامر الذي دفع ادارة السجن الى اختطاف الرفيق الممثل. وفي نفس الوقت احالت تلك السلطات عددا كبيرا من الرفاق الى محكمة صورية في غرفة مدير السجن المدعو حسين الجاف، والذي عرف بميله للإجرام والقسوة. التأمت ما يسمى المحكمة من مدير السجون العام طاهر الزبيدي والمجرم عبد الجبار ايوب والمجلس العرفي العسكري وحكمتهم بتهم غريبة ككتابة المذكرات الاحتجاجية والإضراب عن الطعام وانشاد اغان وطنية، واصدرت ضدهم احكاما ثقيلة، اضيفت الى الأحكام التي كان رفاقنا قد حكموا بها سابقا، وقد رفضت منظمة الحزب هذه الأوامر القرقوشية الجائرة، ففرض الجلادون حصارا على السجن في بداية شهر آب، ومنعوا عنا الأكل والماء والكهرباء، وحشدوا قوات لاقتحام السجن.

استعد الرفاق لذلك فتكونت فرق للدفاع واخرى لتوزيع ما مدّخر من الطعام، واضطر الرفاق الى حفر بئر للحصول على الماء بما يبقينا على قيد الحياة، كما صمم الرفاق بوقا تم وضعه في اعلى الشجرة وكان الرفيق حميد بخش بصوته الجهوري يذيع بيانات لأبناء شعبنا يطالبهم بالتضامن ويعطي وصفا لما يعانيه السجناء بسبب شح الغذاء ورداءة الماء وعدد المصابين نتيجة رمي الحجارة والحصى علينا، كما كنا نوصل رسائل الى خارج السجن بعد لفها بالحصى ورميها عن طريق المقلاع – المعجال– .

في 18 اب وتزامنا مع سقوط حكومة مصدق الوطنية في إيران، فتحت الشرطة النار علينا فجأة، واستشهد الرفيق صبيح مير وكان يقف بجوار الرفيق عزيز محمد، وجرح الرفيق عامل المطبعة حميد منصور ثم استشهد متأثرا بجراحه، واستمرت نداءات البوق الموجهة الى جماهير الكوت لحثها على المطالبة بالجثتين وتشييعهما والمطالبة بإنزال العقاب بالقتلة المجرمين.

تواصل الصراع فواجه رفاقنا الرصاص الحي بصدور عارية وبطون خاوية وبالحجارة والمقلاع والهتافات التي كانت ترعب الجلادين، الذين كانوا يرددون نفس شعاراتنا لكنهم يبدلون فقط كلمة يسقط الى يعيش، مثلا عندما نهتف تسقط العائلة المالكة الخائنة هم يرددون: تعيش العائلة المالكة الخائنة. لقد اجبر الصمود البطولي الجلادين على التفاوض معنا بعد ثلاثين يوما من الحصار وسمحنا لهم بتفتيش الردهات بحثا عن السلاح الذي زعموا باننا نختزنه فيها، وحين افتضحت اكاذيبهم خططوا لمجزرة رهيبة؛ ففي الساعة الرابعة فجر يوم 2 ايلول، بدأ رمي الرصاص علينا من كل الجهات. القى الرفاق بطانية مشتعلة على الكهرباء فعطلوها واستفدنا من الظلام للانبطاح ارضا والزحف للاحتماء بالردهات، أصبنا جميعا ولم يسلم اي رفيق، وهناك من مُزق جسده بأربع وعشرين اطلاقة كالرفيق الشاب من أهل الكاظمية واسمه هاني هلال، كما استشهد ثمانية رفاق اخرون، الرفيق عبد النبي حمزة من اهالي الكوفة، جرح فقتله احد الجلاوزة رفسا في معدته، والرفيق رؤوف صادق الدجيلي جرح فأجهز عليه شرطي وهو جريح. كما استشهد الرفاق جبار الزهيري من العمارة ومحسن هداد من الناصرية وحسن مهدي من الكاظمية ويحيى عباس البارح والمناضل الشيوعي أحمد

علوان المساهم في أول حلقة ماركسية في البصرة، وهناك رفاق اصيبوا بإطلاقات عدة على سبيل المثال الرفيق الشجاع حيدر حاتم الذي توفي مؤخرا ونعته منظمة الحزب في السويد.

لم يسلم اي رفيق من الاصابة واذا سلم تستقبله الشرطة والسجانة الذين اصطفوا على الجانبين بالهراوات وقضبان الحديد، نقل الجميع الى المستشفى لتلقي العلاج. ومن الصدف ان مدة الحكم بحقي انتهت في 2 ايلول ولم يطلق سراحي قبل ان أشفى من الشظية التي اصابتني بالرأس.

مسار صعب وعذب

تعرفتُ على الكثير من المناضلين في سجون بغداد والكوت وبعقوبة الانفرادي والعمارة ومعتقل الشعيبة والكثير من زنزانات التوقيف في النجف كربلاء والحلة والبصرة. اذكر بعد هروبي من معتقل الشعيبة في البصرة، انتقلت الى بغداد وانقطعت صلتي بمنظمة النجف. وفي عام 1954 وبمناسبة الذكرى العشرين لتأسيس الحزب اصبحت عضوا، علما انني كنت ومنذ العام 1951 صديقا منظما ولكن كثرة وجودي في السجون واغلاق باب الترشيحات للحزب حينها، أخّرت حصولي على شرف العضوية.

في اذار 1954 شكل فاضل الجمالي الوزارة وأعلن عن انتخابات لمجلس البرلمان وعلى اثر ذلك تشكلت جبهة وطنية تضم احزاب الوطني الديمقراطي والاستقلال والجبهة الشعبية، وبسبب رفض هذه الاحزاب دخول الحزب الشيوعي العراقي في الجبهة، شارك حزبنا عبر ممثليه في حركة انصار السلام واتحاد الطلبة والشبيبة والنقابات.

في فترة الانتخابات كنت مختفيا في مدينة طويريج عند الرفيق الفقيد غني عبد الهادي الظاهر، العائلة الشيوعية المناضلة، وعلمت ان الجبهة الوطنية في النجف رشحت الدكتور خليل جميل الجواد. اما منظمة راية الشغيلة فقد رشحت الشيخ الجليل محمد الشبيبي، والذي كان يتمتع بجماهيرية كبيرة وكانت مجالسه الحسينية مناسبة لتعبئة وتحريض الجماهير، يحضرها الالاف من النجف والكوفة وابي صخير تحديا للنظام الملكي واجهزته القمعية. مع الاسف لم يحقق الفوز اي منهما لتشتت الاصوات، علما ان الشيخ عبد الكريم الماشطة رئيس حركة انصار السلام قد رشح في مدينة الحلة.

وفاءً لمسيرة الشهداء، سيبقى حزبنا ورفاقه مصرين على مواصلة التقاليد الثورية المجيدة، تقاليد التضحية والشهامة والقيم الانسانية والذود عن مصالح العمال والفلاحين وسائر شغيلة اليد والفكر، فراية الوطن الحر والشعب السعيد ستبقى مرفوعة عاليا بإرادة الشيوعيين وكل الخيرين من ابناء شعبنا.

المجد للذكرى التسعين لميلاد حزبنا الشيوعي العراقي.

وثبة كانون الثاني المجيدة 27 كانون الثاني عام 1948 *

عبد السلام الناصري

كانت انتفاضة كانون الثاني (الوثبة) عام 1948 واحدة من أروع صفحات تاريخ نضال الشعب العراقي وقواه الوطنية وفي طليعتها الحزب الشيوعي العراقي ضد الاستعمار والرجعية. إذْ أقدم رئيس الوزراء (صالح جبر) هذا الشهر على تحدي الوطن والشعب والسعي المحموم لتوقيع معاهدة (بورتسموث) مع بريطانيا باعتبارها البديل لمعاهدة 1930 التي سمحت لبريطانيا بإقامة قواعد عسكرية لها في البلد تحت حجة التخلص من هذه القواعد. ولكن المعاهدة تضع سيادة العراق واستقلاله كله بيد الاستعمار البريطاني ولفترة طويلة. وسميت (بورتسموث) نسبة الى الميناء الذي عُقِدت فيه. وقد اتحدت القوى الوطنية ضد هذه المعاهدة، وعمَّت المقاومة ضدها جميع انحاء العراق. وشرع الحزب الشيوعي يحشد الجماهير الواسعة في بغداد وسواها، وكُلِّف مسؤولون حزبيون لقيادة «الوثبة» في شوارع بغداد المهمة. وعلى ما أتذكر فإنّ الرفيق (ابراهيم شاؤول) كان مسؤولاً عن تحشيد جماهير الرصافة، لأنه كان مسؤولاً عن تنظيمها الحزبي، ونسيت اسم مسؤول الكرخ، وكذلك الطلبة والشباب والنساء. وكُلِّفتُ أنا بقيادة الجماهير العُمّالية ضمن المشاريع الكبرى وكذلك قيادة جماهير الكاظمية والاعظمية التي كنت مشرفاً على تنظيماتها الحزبية. وقمنا بعقد الاجتماعات بمسؤولي اللجان الحزبية في الرصافة والكرخ والمنظمات النسائية والشبابية والطلابية وواصلنا العمل ليل نهار لِزَج الجماهير في الشوارع ولعدة أيام وخاصة في شارع الرشيد وساحة التحرير وباب المعظم.

كانت الخطة تقضي بأن يعبر المتظاهرون من صوب الكرخ ليلتحقوا بجماهير التظاهرة في صوب الرصافة عبر (الجسر العتيق) كما كان يُسمّى سابقاً وان هذا الجسر كان واقفاً على الطوافات (الدوب). والذي سُمّيَ فيما بعد بجسر الوثبة بعد انتصارها. ان الهدف من تحرك الجماهير بهذا الشكل لكي يصبحوا قوة قاهرة. وعلى هذا الجسر وقعت التظاهرة الرئيسية واستخدمت حكومة صالح جبر العميلة قوى الشرطة والجيش لتفريق المتظاهرين، والحيلولة دون اتصال جماهير الكرخ المنتفضة بجماهير الرصافة المنتفضة وقُتِلَ عدد غير قليل من المتظاهرين صوب جسر (العتيق) ناحية الكرخ ومنهم الشهيدة (عدوية) التي كانت في مقدمة حشد كبير من اراد عبور الجسر. واستخدمت القوات المسلحة حتى منابر الجوامع الواقعة قرب الجسر وكذلك البيوت المرتفعة لرشق الناس بالرشاشات والبنادق.

وقد لعب عمال السكك في الشالجية، تحت قيادة رفاق الحزب، دوراً مشهوداً لإنهاء

معركة العبور لصالح الشعب. اذ حركتهم روحهم الوطنية للأضراب عن العمل والاندفاع بتظاهرة كبيرة صوب الجسر، وتمكنوا من اختراق القوى المُعادية والاندفاع مع بقية الجماهير. وتمكن الجميع في آخر المطاف من عبور الجسر والالتحام مع اخوتهم المتظاهرين في الرصافة، وتقدمت الحشود الهائلة الى شارع الرشيد وساحة التحرير وباب المعظم وسواها، الى مقر رئاسة الوزراء وكانت الشعارات المرفوعة «تسقط معاهدة بورتسموث الاستعمارية ويسقط صالح جبر» والمطالبة بأطلاق سراح السجناء السياسيين، وإطلاق الحريات.. الخ. وكنا نشرف على/ونقود التظاهرات من شرفات بعض الشقق في شارع الرشيد. وهي شقق بعض المحامين والاطباء من أصدقاء الحزب، وكنا نتلقى توجيهات مركز الحزب عبر مراسلين، وكذلك بيننا وبين القيادات الموقعية وكنا ننزل الى الشوارع بين فترة وأخرى لنتأكد من سير التظاهرات بما رُسِمَ لها. وأكدت قيادة الحزب على الطابع السلمي للتظاهرات وعدم الخروج من اهداف شعاراتها.

وبعد ايام من التظاهر وفي يوم 27 كانون الثاني من عام 1948 الخالد حُسِمت المعركة لصالح الشعب، اذ أدرك الوصي على العرش (عبد الاله)، وكان الملك فيصل الثاني صبيّاً صغيراً، ان نظام حكمهم كله معرض للخطر ويجب عمل شيء. وقد هدد صالح جبر وهو يستعد لتوقيع المعاهدة، بانه قادم للعراق «لتأديب المشاغبين». وعاد الى العراق فعلاً ولكنه فشل فشلاً ذريعاً في تفريق التظاهرات، التي تزايد زخمها بعد تهديده. وطلب الوصي على العرش عبد الاله التنحي عن السلطة والغاء المفاوضات التي كان مقرراً لها ان تنتهي بعد ساعات للتوقيع، وهرب صالح جبر الى الخارج بعد الاستقالة محبطاً أمام جبروت الشعب وسُمّيت المعركة تاريخيا بـ «وثبة كانون».

وممن أُستشهد في اثناء معارك الوثبة (الشهيد جعفر) أخ الشاعر الكبير (محمد مهدي الجواهري) وقد رثاه بقصيدة يُمجِّد فيها نضالات الشعب العراقي «أخي جعفراً يا رُواء الربيع...ألخ». وكلّفَ الوصي عبد الاله الشخصية الوطنية السيد محمد الصدر بتشكيل حكومة (تهدئة) أو تنفيس كما سمتها ادبيات الحزب آنذاك وذلك لاستيعاب غضب الجماهير. وأطلق الصدر بعض الحريات وقام ببعض الاصلاحات الاقتصادية والخدمية وصدرت بعض الصحف الوطنية، وكذلك سمح لمساحة من التحرك للأحزاب الوطنية والتقدمية والنقابات العُمّالية...ألخ. وكانت فترة (التنفيس) والتهدئة قصيرة لم تتجاوز عدة شهور، سعت خلالها القوى الرجعية لِلَملَمة صفوفها، وبعدها أُعفيَ محمد الصدر من رئاسة الوزارة. وجيْء برئيس وزراء آخر رجعي معروف بعدائه للشعب لا اتذكر من هو. وقامت الوزارة بإجراءات قمعية كبيرة واسقطت الاجراءات الايجابية التي قام بها (الصدر) وسُحِبت كل الحريات النسبية، وتم اعتقال المئات من الوطنيين ومنهم الشيوعيون ثم القيام بحملة ضارية ضد الحزب الشيوعي.

وكانت فترة التهدئة، المشار اليها، فرصة للحزب للتحرك لتقريب وجهات النظر بين الاحزاب الوطنية والشيوعيين، وأهم الاحزاب كان الحزب الوطني الديمقراطي

بقيادة الاستاذ كامل الجادرجي وحزب الاتحاد الوطني بقيادة الشخصية البارزة (سعد صالح) وحزب الاستقلال.. الخ. وقد كلفتني قيادة الحزب آنذاك بزيارة الاستاذ (سعد صالح) لغرض تقريب وجهات النظر وازالة الخلافات والفتور، واستقبلني الاستاذ (سعد) في داره مرحباً بالحزب الشيوعي ووعدني خيراً بالاتصال بالقوى الاخرى، باتجاه تأسيس جبهة وطنية.

لم يقتصر زخم وثبة كانون التحرري والثوري على العراق بل تعداه الى الدعم المعنوي السياسي لنضال القوى الوطنية في البلدان العربية الاخرى ضد الاستعمار والقوى الموالية له.

الهجوم على الحزب الشيوعي

في أواخر عام 1948 وأوائل 1949، شُنَّت حملة مركزية ضد الحزب وأُلقي القبض على (مالك سيف)، مسؤول الحزب آنذاك. وسقط في مستنقع الخيانة وسَلَّم أسرار الحزب للتحقيقات الجنائية، ونتج عن ذلك اعتقال المئات من كوادر الحزب واعضائه وحُطِّمت أكثر منظماته في بغداد خاصة والمدن الاخرى. وكلِّفت قيادة الحزب من سجن الكوت (عزيز الحاج) لقيادة مؤقتة للحزب. وكانت مهمتنا الاساسية الشاقة والمُعقّدة والمحفوفة بأعظم الاخطار «اعادة تنظيم الحزب ولملمة صفوفه، مع اتخاذ اجراءات صيانة حادة والتزام اليقظة والحذر».

وشرعنا في العمل لتنفيذ أوامر الرفيق (فهد)، وكانت المهمة الاولى هي استلام المطبعة السرية التي سلمت من خيانة (مالك سيف) بعد ان استطاع الرفيق (ح.ع) مسؤول المطبعة نقلها الى مكان سري آخر قد تم استلامها قبل ان تصل إليها يد الامن. وواصلنا العمل (عزيز وأنا) وتحيط بنا الاخطار من كل جانب. وبعد فترة ليست بالطويلة طالتنا يد العدو. كنا نتناول العشاء في غرفة بدار سرية، وكان عشاءنا البيض، وكانت الساعة التاسعة مساءً، حين فوجئنا بضجة كبيرة ووقع اقدام هائلة فوق سطح الدار (طلع الاكل زقنبوت!)، ولم نفلح في الهرب، اذ ما هي إلاّ ثوانٍ حتى سمعنا باب السطح تُكسر واذا برجالٍ الامن يقفون امامنا، شاهرين الاسلحة بوجوهنا، وقيدوا أيادينا بالسلاسل الحديدية وعصّبوا أعيننا، وبدأ الضرب المُبرِح على أجسامنا، ونُقلنا بالسيارة المهيأة الى مبنى مديرية الامن العامة التي كان يرأسها آنذاك المجرم (بهجت العطية). ونُقلنا من هناك الى سرداب (قبو) مُظلم عميق وعُلقنا بالسلاسل الضخمة على باب السرداب من الداخل وفوق سُلّمهِ، وأيدينا بالسلاسل مُعلّقة الى اعلى وأرجلنا في الهواء ولا تكاد تلامس أرض السُلّم. وبقينا على هذه الحالة حتى الفجر، وكنّا على وشك الاغماء والارهاق يصل بنا قرب الموت.

وفي مقتبل النهار، جرى التحقيق معنا. وصمدنا ولم يحصلوا على أي شيء، وقالوا «أنتم لا تتكلمون الا بأوهام ولكن لدينا معلومات وثيقة عنكم». وكان (مالك سيف) ينظر الينا بِتَشفٍّ من احدى غرف الامن القريبة من موقع التحقيق.. وفهمنا انهم يأتون إليه بالمشروبات الكحولية يومياً بناء على طلبه.

ونُقِلنا الى سجن بغداد المركزي في قسمه السياسي في باب المعظم، ثم بعد أيام، الى

معتقل عسكري في ثكنة (أبو غريب). ووُضِعتُ في غرفة انفرادية ضيقة لا تسع الا الى لثلاثة اشخاص وكان قبلنا عشرات من كوادر الحزب وقياداته موضوعة في هذه الغرف، ونصيبي في غرفة انفرادية، وجدتُ فيها الرفيق (عبد علوان) وأحد العمال الشيوعيين الاثوريين (شمشون). بعد فترة قُدّمنا الى «المحاكمة!». وكان يترأس المحكمة العسكرية ضابط كبير وهو (النعساني). ولم يكن هناك أي مقوِّم من مقوِّمات محكمة شرعية، بل هي مهزلة مضحكة (وشر البلية ما يُضحِكُ!). وقُسّمنا الى وجبات، تقدَّمَنا في الوجبة الاولى وهي الرفاق (فهد وحازم وصارم). الذين جيء بهم من سجن الكوت (ليُحاكَموا) مجدداً بتهمة التحريض على اشاعة الفوضى (من سجنهم) في البلد، ويقصدون وثبة كانون المجيدة، وكذلك توجيه الحزب من السجن بحسب اعتراف مالك سيف. وقد أُدخِلوا (قبل وجبتنا التي هي الثانية) الى قاعة المحكمة العسكرية، وحُكموا بالإعدام المهيأ سلفاً من السلطة، ونُفِّذ فيهم الحكم سِراعاً في ساحات رئيسية في بغداد.

وكانت وجبتنا، وجبة الكوادر القيادية هي الثانية، بعد وجبة الرفيق الشهيد (فهد). اذ أُدخلنا الى القاعة نفسها، ولم نُحاكم كأفراد بل كمجموعات. وقفنا في الصف الاول، ووراءنا الصف الثاني ثم الثالث ونطق (النعساني) بالحكم قائلاً: « الصف الاول المكون من المتهمين فلان وفلان.. ألخ لمدة خمسة عشر عاماً « والصف الثاني عشر سنوات والصف الثالث.. وهكذا.. الخ. مهزلة مضحكة.. لا استجواب كأفراد.. لا محامي دفاع.. لا نقاش. ونُقِلنا الى سجن بغداد لفترة قصيرة ومنها نُقلنا الى سجن (نُقرة السلمان) الصحراوي. وبالمناسبة تحضرني نكتة ظريفة عن المحاكمة إياها، كان في الصف الذي بعدنا أحد الرفاق القياديين في نقابة عمال الميناء، العامل (چنچون حسين)، خاطبه النعساني:» ها اسمك چنچون ها يابه تريد تصير وزير براسنه؟ انت سامع بعمرك وزير اسمه چنچون؟» فاجابه چنچون بسرعة: وانت حضرة الحاكم سامع رئيس وزراء اسمه تِشر..تِشِل؟ (ويقصد ونستون تشرتشل الذي كان رئيس وزراء بريطانيا انذاك) .. هذا يابه رئيس وزرائكم؟

---

* فصل من مذكرات معدة للنشر

عشرة أعوام في صفوف الحزب الشيوعي العراقي

محمود سعدون

" لا يوجد ما هو اكثر قوة وأمنا لمواجهة طوارئ الحياة من الحقيقة المجردة "

تشارلز ديكنز

ما من شيء في حياة الانسان اعظم من بلوغ حقيقة الواقع الذي يعيش فيه، فبحث الانسان عن الحقيقة هو اجمل شيء يفعله الانسان.
كنت غير معبأ بالوعي الكافي عندما فكرت في الانتماء الى صفوف الحزب الشيوعي العراقي، ولا أدعي انني وبعد عشر اعوام صرت امتلك الحقيقة او الوعي المطلق، لكنني لازلت باحثا عنها في مدرسة الحياة والحزب . عشت وسط اسرة كادحة تتمالك قواها بشق الانفس، ولكنها تتمتع بجو من الانفتاح السياسي والمدني، الامر الذي اتاح لي سهولة الانضمام الى صفوف الحزب. وطوال العشر سنوات عملت على محاولة اصطياد الحقيقة بالجهود الأيديولوجية والعلمية .

• لحظة الإعتقال

تصاعد نشاط الحركة الاحتجاجية في مدينة البصرة كبقية المدن في العراق نتيجة لسوء الخدمات والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة في البلد كله. وأخذ النشاط الاحتجاجي يتوسع وينشط. ويوم 16 من شهر كانون الأول 2016 ألقت القوات الأمنية القبض عليَّ وتم تحويلي إلى مركز شرطة العشار لغرض توجيه التهم ضدي. وكما هو معلوم فإن التظاهر السلمي حق كفله الدستور، ولا يجوز للقوات الأمنية القاء القبض على اي مواطن يتظاهر للمطالبة بحقوقه المشروعة مما اضطرهم إلى اتهامي بتصوير القوات الأمنية والغرض منه هو التوقيع على تعهد شخصي بعدم الخروج مرة أخرى للمظاهرات، وفي حالة الرفض يتم التحويل والتوقيف في السجن لغرض المحاكمة بعد ثلاث أيام. قدمت الورقة الذي كتبها ضابط في المركز لغرض التوقيع، وتسجيل رقم بطاقة الأحوال المدنية عليها. في هذه الاثناء تذكرت مقطع كتبه مكسيم كوركي يصف السجن للمناضلين حيث قال: " السجن محطة راحة اضطرارية للمناضلين الذين يجب عليهم المحافظة على مزاجهم الثوري " . رفضت التوقيع على

التعهد، ولحق بي الرفيق مسؤول الحزب في البصرة آنذاك والذي كان عضوا في مجلس المحافظة واخبرني بنبرة هادئة " لا تقلق انا معك والمتظاهرون لن يبرحوا ساحة التظاهرة حتى تعود إليهم سالما ". وما هي الا ساعات قليلة حتى اصدر ضابط المركز أمر بإطلاق سراحي واخراجي من السجن .

• سنة الإنتماء

عام 2014 كنت طالباً للصف الخامس في المدرسة الإعدادية وكنت اجدُ لذة كبيرة في مطالعة الكتب الخارجية، وارتاد المكتبات بشكل متكرر واجمع مصروفي اليومي لغرض شراء الكتب لقراءتها. في احدى هذه القراءات تعرفت لأول مرة على مصطلح الشيوعية، وأخذت أسبوعاً كاملاً للبحث عن ماذا تعنيه الشيوعية ومن هم أبرز منظّريها ؟ ولماذا كانت محرمة في العراق أيام الملكية والبعث ؟ واوصلتني معلوماتي الشحيحة في وقتها إلى أن الشيوعية هي التي تدافع عن العمال والفلاحين والطبقات الفقيرة في المجتمعات . ولم اتردد بعدها بالبحث عن الحزب الشيوعي العراقي ومقراته في العراق. وسألت عن أحد هذه المقرات والذي كان في محافظة البصرة - قضاء الزبير – صعدت الى المقر لألتقي بمسؤول المنظمة الحزبية وطلبت الإنتماء إلى صفوف الحزب . تفاجئ الرفيق من طلبي أولاً لصغر سني والذي بلغ السابعة عشر عاماً في وقتها والأمر الثاني عندما قدمت له استمارة الإنتماء بعد ان ملائتها قرأ تاريخ ميلادي وهو 31 / اذار / 1997 المطابق لميلاد الحزب باليوم والشهر، ابتسم لي وقال " انت ولدت لتكون عضوا في الحزب الشيوعي العراقي وأهلا بك يا رفيق " . خرجت من هذا اللقاء فخوراً بالحزب الذي انتمي اليه وعقدت العزم على بذل قصارى جهدي لكي أكون مفيداً للحزب . وخلال أربعة أشهر من عملي داخل صفوف الحزب سُلمت لي في إحدى الاجتماعات الحزبية بطاقة العضوية وعدت من هذا الاجتماع مسروراً بالعزم والحماسة . بعدها في عام واحد انتخبت عضواً في مكتب المنظمة القيادية ومسؤول لإحدى الخلايا وانيطت بي مسؤولية أخرى وهي تمثيل المنظمة القيادية في لجنة العمل الفكري (لعف) لمحافظة البصرة . وهذه المهمة جعلتني أبذل المزيد من الجهد لتثقيف نفسي سياسياً وفكرياً فانكببت على قراءة أدبيات الحزب ووثائقه والادبيات الماركسية الكلاسيكية لأنّني شعرت بحاجة إلى زيادة معرفتي بهذا الجانب كوني أصغر عضو في لجنة العمل الفكري للبصرة . وفي مؤتمر المحلية الذي عقد عام 2017 تم ترشيحي لنيل عضوية اللجنة القيادية للحزب في البصرة ومسؤول لمنظمة الحزب في الزبير ومسؤول لجنة العمل الفكري في البصرة وعضواً في المنطقة الجنوبية للعمل الفكري . اما على المستوى الديمقراطي فقد انتخبت لأكون مسؤول اتحاد الشبيبة الديمقراطي العراقي في البصرة وعضوا في اللجنة التنفيذية للاتحاد، وعملت على اصدار صحيفة تحت اسم " شبيبة البصرة " التي كانت تعنى بالجانب الشبابي، وما تعانيه شبيبتنا في العراقي من واقع مأساوي .

• المسؤولية الكبرى

في عام 2019 تفجرت انتفاضة تشرين التي هزت أركان نهج المحاصصة الطائفية وتضافرت قطاعات واسعة من المجتمع

بالمشاركة فيها، والذي لم يشارك قدم الدعم المعنوي لها ، طالبت الانتفاضة بشعارها المركزي (نريد وطن) وهي صرخة اطلقها المنتفضون احتجاجا على الأوضاع المأساوية التي يعيشها غالبية ابناء شعبنا . بدأت الاضرابات عن الدوام ، كنت في وقتها طالب مرحلة ثالثة في كلية الإدارة والاقتصاد واخذت بإقناع الطلبة على عدم الالتزام بالدوام والخروج بالتظاهر نصرة لساحة الاحتجاج، مما اضطر عميد الجامعة إلى منعي من دخول الجامعة كوني احد المحرضين البارزين على كسر الدوام والخروج بالتظاهرات. في العام نفسه والذي كان يشهد مرحلة من النهوض الثوري للشعب العراقي عقدت اللجنة المحلية مؤتمرها وانتخبتُ عضواً في مكتب المحلية، دون ان افكر بالترشيح لهذا الموقع او ان امتلك عمرا حزبيا طويلا او تجربة سياسية تؤهلني لمثل هذا الموقع وانا ابن الثانية والعشرين من عمري. تنامت الاحداث سريعاً بالأخص بعد ان اتخذ المنتفضون قرار الاعتصامات المفتوحة ونصب الخيم في مراكز المحافظات، مما جعلني انكب على قراءة ماركس و انجلز و لينين وما كتبه قادة الاحزاب الشيوعية، بالإضافة الى مؤلفات الرفيق الخالد فهد، خصوصا نضالنا الوطني الديمقراطي، وعن الوضع الثوري، وبدا تفكري اكبر في القضية المهمة والتي يجب على كل شوعي فهمها بشكل دقيق وهي " النظرية والممارسة "، إضافة إلى ما كانت تنشره جريدة الحزب المركزية "طريق الشعب" عن أوضاع المحتجين وحكومة عادل عبد المهدي التي تصدت الى الانتفاضة بالعنف المفرط و الرصاص الحي. وحينها قدمت مجموعة من المحاضرات داخل ساحات الاحتجاج مثل" دور الطلبة في الحركة الاحتجاجية، و محاضرة عن وثبة كانون ". بعد أشهر دامية ومريرة اجبر عبد المهدي على تقديم استقالته، وهذا يعتبر بالنسبة لي اول نصر اخوضه مع أبناء وبنات شعبنا، رغم ان قوى الفساد والمحاصصة ألتفت على مطالب الانتفاضة وسعت الى وأدها . وفي ظل هذه الظروف المعقدة عقد الحزب مؤتمره الحادي عشر عام 2021 ، واثناء انعقاده تكلم معي أحد الرفاق القياديين بشأن ترشيحي إلى اللجنة المركزية، قبلت هذه المسؤولية الكبرى بحماس ثوري وجهادية عالية وعرفت أنّه يجب عليَّ أن أمتلك الإخلاص لقضية الشعب والشيوعية . وبهذا أكون أصغر عضو في اللجنة المركزية ، التي انتخبها المؤتمر، وانيطت بي عضوية لجنة العمل الفكري المركزية (لعف) كذلك مسؤولية المنطقة الجنوبية للعمل الفكري. وتعلمت أهم درس خلال هذه المدة التي أصبحت عضوا في اللجنة المركزية أن الطريق الوحيد لكسب أوسع الجماهير هو النضال في سبيل مصالحها الحيوية المباشرة، كما وصفها الرفيق الشهيد سلام عادل بدقة .

في الختام أؤكد ان الحزب هو المدرسة التي تربيت وسطها، فلم يكن للعائلة الوقت الكافي لتربية مراهق خرج من رحم الاسرة وانتقل الى رحم مجتمع متفكك منهار خصوصا بعد سقوط النظام الدكتاتوري، واستلام السلطة من قبل احزاب طائفية اثنية همها الوحيد سرقة المال العام، حتى وان كلفها هذا الامر تحطيم المجتمع بأسره. فقد ساعدني الحزب على اكتشاف ومواجهة الحقائق الاجتماعية التي سيمر بها اي انسان عاجلا ام اجلا.

محطات من نضال الشيوعيين العراقيين في لبنان لنصرة القضية الفلسطينية

حسان عاكف

ليس من باب المبالغة القول ان منظمة الحزب الشيوعي العراقي في بيروت، حديثة النشأة آنذاك، كانت في الفترة 1979 - 1982 من انشط وأهم منظمات الحزب في الخارج. وذلك ارتباطا بالمهام التي انيطت بها، باستقبال واحتضان الرفاق والعوائل الفارين من جحيم الدكتاتورية داخل الوطن. وتوفير الحد الادنى من ظروف الاقامة والمعيشة لهم. الى جانب استقبال الرفاق الشباب في معسكرات التدريب بالاعتماد على الاصدقاء الفلسطينيين، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين على وجه الخصوص. وتهيئتهم للالتحاق بفصائل الانصار في كردستان. في تلك الايام تحولت بيروت الى المركز السياسي والاعلامي والثقافي الاهم بالنسبة للحزب خلال السنوات الثلاث اللاحقة.

منذ وقت مبكر تم بناء علاقات سياسية مميزة مع عموم قيادات المنظمات الفلسطينية وممثلي منظمة التحرير والمجلس الوطني الفلسطيني في لبنان ومع الكثير من كوادر وقواعد هذه المنظمات. وانعكس ذلك بإبداء الدعم والاحتضان الواسعين من اغلب هذه المنظمات للحزب، بضمنها التدريب العسكري للمئات من أعضاء وعضوات الحزب وأصدقائه، والتطوع او توفير فرص عمل مناسبة في كافة المؤسسات الاعلامية والثقافية والخدمية الصحية والقضائية والعلمية الفلسطينية. كما عمل عدد من كوادر الحزب كمدرسين في المدارس الحزبية للجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين.

لقد جسد الشيوعيون العراقيون موقفهم الداعم للقضية الفلسطينية بالتواجد في المواقع والمعسكرات الفدائية في الجنوب والبقاع وفي تشكيل افواج عسكرية بالتنسيق مع المنظمات الفلسطينية خلال الظروف الطارئة، كما حصل إبان العدوانيين الاسرائيليين بغزو الجنوب اللبناني عام 1981 واجتياح لبنان وحصار بيروت عام 1982.

اما بخصوص لبنان، حيث كان يتواجد الحزب، فلقد تعززت علاقاته مع عموم احزاب وتنظيمات الحركة الوطنية اللبنانية،

التي كانت تخوض مواجهات مسلحة ضد حزب الكتائب اللبنانية وبقية أحزاب الجبهة اليمينية اللبنانية. وكان ممثلو الحزب وأعضاؤه ومثقفوه يشاركون في اغلب الفعاليات السياسية والثقافية ومناسبات أحزاب الحركة الوطنية اللبنانية لاسيما الحزب الشيوعي اللبناني الشقيق.

من جهة أخرى، كان يعيش في لبنان في تلك الفترة، مثقفون وممثلون للعديد من الاحزاب الوطنية والديمقراطية العربية المعارضة لحكوماتها؛ مصر، البحرين، السعودية، السودان...الخ، وكان لجميع هؤلاء علاقات ايجابية وفعاليات مشتركة مع أقرانهم العراقيين ومع ممثلي الحزب.

كان التواجد في بيروت فرصة اضافية للشيوعيين العراقيين للتعرف والتفاعل أكثر مع اغلب رموز الثقافة اللبنانية والعربية من ادباء وفنانين، من الذين عاشوا في لبنان او مروا بها في تلك الفترة، وشارك الكثير منهم في مناسبات واحتفالات سياسية وثقافية عراقية آنذاك. كما أنها كانت فرصة جيدة للحزب والقوى الوطنية العراقية ان تعبئ الرأي العام العالمي للتضامن معها وإيصال صوتها الى الكم الكبير من الصحفيين الأجانب ومراسلي وسائل الاعلام العالمية المتواجدين آنذاك في لبنان.

بالإضافة الى الدعم المادي عالي المستوى الذي قدمه الاصدقاء اللبنانيين والفلسطينيين والعرب، والذي يعكس مكانة الحزب لديهم، كانت الفعاليات السياسية والثقافية التي يقوم بها الحزب، بضمنها احياء ذكرى تأسيس الحزب الثامنة والاربعين، تحظى باهتمام ومشاركة واضحتين من قادة هذه الاحزاب والمنظمات من خلال حضور قادة الصف الاول لها والقاء كلمات الاشادة بالحزب مؤكدين على مكانته الوطنية والعربية.

دون ان ننسى أيضا، انه في موازاة النشاط السياسي كان هناك نشاط مهني اجتماعي في فروع منظمات الشبيبة والطلبة والمرأة والاعلاميين والمثقفين العراقيين، وكان لجميع هذه المنظمات علاقاتها الطيبة وأنشطتها المشتركة مع عموم المنظمات اللبنانية والفلسطينية والعربية النظيرة العاملة في بيروت. كما لعب الاطباء العراقيون ومعهم الاخرون من العاملين في المجال الطبي دورا مشهودا في الخدمات التي كانت تقدمها مستشفيات منظمة التحرير الفلسطينية وجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني، لاسيما خلال فترة حصار بيروت عام 1982.

ومن الجدير بالذكر أيضا، ان (الثقافة الجديدة) بدأت تصدر في بيروت، بعد فترة من توقف اصدارها في بغداد. ولاحقا، انتقل اصدارها الى دمشق بعد خروج القوات الفلسطينية من بيروت..

لست هنا في معرض الحديث عن القضية الفلسطينية او عن الحرب الاهلية اللبنانية، او التوسع في الحديث عن تجارب عموم الشيوعيين واليساريين العراقيين، تنظيمات وأفراد، واعطاء تقييمات بشأنهما. لكن ما أود التركيز عليه في هذه السطور هو اشارة الى تلك الصفحات المشرقة في تاريخ الشيوعيين واليساريين العراقيين ونضالهم الوطني والقومي والاممي على الساحة اللبنانية نهاية سبعينيات بداية ثمانينيات القرن الماضي، واستذكار الشهداء الميامين منهم وتخليد اسمائهم.

تجسدت المساهمة الميدانية المنظمة الاولى للشيوعيين واليساريين العرب في النضال

الفلسطيني بشكل واضح بعد هزيمة حزيران 1967 الى جنب اخوتهم ورفاقهم في المنظمات الفلسطينية، وتجلى ذلك في تشكيل قوات الانصار الشيوعيين من قبل الاحزاب الشيوعية العربية: العراقي، السوري، اللبناني، الاردني والفلسطيني وكان لها تواجدها بشكل خاص على الاراضي الاردنية قبل ايلول عام 1970. وجاءت المشاركات التالية للشيوعيين واليساريين العراقيين مع نهاية السبعينيات بداية الثمانينيات، وحتى الاجتياح الاسرائيلي للبنان وحصار بيروت وخروج القوات الفلسطينية من لبنان وتوزعها في شتات بلدان عربية اخرى في نهاية صيف 1982.

وبعد الاجتياح الاسرائيلي للجنوب اللبناني عام 1981 وهجوم الطيران الاسرائيلي على بيروت وقصف منطقة " الفاكهاني/الملعب البلدي"، الذي سقط فيه العشرات من الشهداء الفلسطينيين واللبنانيين بضمنهم شهيدان للحزب الشيوعي هما الاعلامية ثائرة فخري بطرس والشهيد غازي فيصل ذرب (أبو داليا) الذي جاء من تشيكوسلوفاكيا، الى جانب العديد من الجرحى، الذين بلغ عددهم بين الاشقاء الفلسطينيين واللبنانيين أكثر من مئة جريح؛ شكل الحزب في تموز من ذلك العام (الفصيل العراقي المساند للثورة الفلسطينية).

وخلال حصار بيروت شكل الحزب فصيلا باسم (فصيل الحزب الشيوعي العراقي لدعم القوات المشتركة اللبنانية الفلسطينية). بقرار من اجتماع موسع لمنظمة الحزب في بيروت في حزيران 1982. لاحقا أخذ الفصيل مواقعه في حي السلم جنوب العاصمة اللبنانية، وقدم حينها عدداً من الشهداء الى جانب أسري وقعوا بأيدي القوات الاسرائيلية، منهم الدكتور نظمي عبد الصاحب الذي اقتيد أسيرا من مستشفى الهلال الاحمر الفلسطيني الى معسكر الخيام الاسرائيلي في صيدا. فيما اختطفت قوات حزب الكتائب اللبنانية ثلاثة من الشيوعيين العراقيين ولم يعرف مصيرهم حتى الان وهم كل من : الشاعر الغنائي ذياب گزار (ابو سرحان) والمخرج المسرحي كاظم الخالدي (أبو مخلص) والطالب الجامعي صباح ستراك.

وهنا، نتذكر شهداء حي السلم الثلاثة الأبطال ورابعهم الجريح الاسير لدى قوات الاحتلال الاسرائيلي، الذين سقطوا على بوابات بيروت الجنوبية وهم يتصدون للغزاة الإسرائيليين في اجتياح عام 1982؛ الشهداء: عبد الكريم جبار كريم (ابو فيروز)، كريم محمد لازم (رشاد)، حازم محمد خليل (جمال)، والاسير الجريح سعيد عبد الكافي حسن (ابو احمد)، وخلدتهم فرقة الطريق العراقية بأغنية خاصة "أربعة كانوا في حي السلم"كتب كلماتها الشاعر الكبير سعدي يوسف.

ومع كل هذه النضالات والمآثر التي اجترحها الحزب، لم يسلم الرفاق ومعهم الاصدقاء وعموم المعارضين العراقيين الذين كانوا في بيروت من ملاحقة اجهزة المخابرات ومحطتها في السفارة العراقية واستهدافهم بالرصاص الغادر وكواتم الصوت. ومن بينهم الشيوعي البصري الشاب أسعد لعيبي منصور (ابو جنان)، وكذلك الشهيدان ابو فهد العراقي، والصحفي اليساري ونائب رئيس تحرير صحيفة (فلسطين الثورة) الصحيفة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية الشهيد عادل وصفي (يحيى العراقي).

وبعد ذلك، غداة الخروج من لبنان نهاية صيف عام 1982، تعزز دور حزبنا في سوريا وعلاقاته الوطنية، وعمله التنظيمي والتعبوي، الى جانب العمل الاعلامي والثقافي بشكل أكبر بعد انضمام رفاق واصدقاء منظمة الحزب في بيروت ودمجهم بمنظمة سوريا. وأصبحت دمشق المركز القيادي الرئيسي في متابعة عموم منظمات الحزب الشيوعي العراقي في الخارج ومحطة للصلة مع قيادة الحزب في كردستان.

إلى جانب ادامة العلاقات التي كانت قائمة في لبنان مع المنظمات الفلسطينية والعربية، كانت هناك علاقات للحزب مع اغلب الاحزاب والمنظمات العراقية المعارضة الموجودة في دمشق وكذلك احزاب الجبهة الوطنية السورية وفي المقدمة منها الحزب الشيوعي السوري الشقيق. اما العلاقات السياسية في سوريا فقد كانت على مستويين؛ علاقات مع قيادة الدولة السورية وأخرى مع القيادة القومية لحزب البعث جناح سوريا، الى جانب العلاقات الفنية واللوجستية مع بعض المؤسسات السورية لتسهيل امور الاقامة والتنقل والسفر وغيرها.

يضاف الى ذلك كان للحزب علاقات منتظمة مع عموم سفارات الدول الاشتراكية في دمشق. وقد وظفت هذه العلاقات بشكل جيد لاستيعاب الاعداد الكبيرة من الرفاق والعوائل في زمالات دراسية اكاديمية ومهنية وحزبية، وفي علاج أعداد كبيرة من الرفاق والعوائل والبيشمركة.

ويمكن القول ايضا ان نشاطنا الحزبي في دمشق كان على مستويين ايضا؛ نشاط مركزي يتعلق بمهام قيادية نهض به الرفاق في قيادة الحزب، كهيئة قيادية للحزب في الخارج كما سبق ذكره، تساعدها لجان اختصاص داعمة تضم كوادر حزبية وتعمل تحت اشرافها، ونشاط اخر يتعلق بتنظيم الرفاق المقيمين في سوريا ومتابعة نشاطهم وادارة شؤونهم تقوم به منظمة سوريا.

كان هناك في سوريا 3 لجان اختصاص مركزية أساسية؛ لجنة الاعلام، لجنة العلاقات الوطنية والعربية، لجنة او هيئة (قزلر) - اسم معركة خاضها الرفاق الانصار مبكراً في منطقة گرميان- وهي هيئة حزبية خاصة بمتابعة قضايا الانصار واحتياجاتهم، سواء القادمون منهم الى سوريا لغرض التوجه الى كردستان، او القادمون منهم من كردستان لغرض العلاج او الدراسات الحزبية والاكاديمية وغيرها.

اما القامشلي، المنفذ الرئيسي لحركة الرفاق في الدخول الى العراق والخروج منه، فكان لها وضعها الخاص ودورها الخاص وكان عملها يدار مباشرة من المركز القيادي في دمشق.

وفي الحديث عن منظمة القامشلي لا يمكن إلا ان يشار الى مفرزتين باسلتين ضمتا كوكبة من خيرة وأشجع الرفاق كانت مهمتهما النشاط في أعقد وأخطر المناطق لنقل الرفاق والسلاح الى داخل الوطن، وهما (مفرزة الطريق) و(مفرزة السلاح)، وقدمت المفرزتان عددا من أعضائهما شهداء شجعان في مواجهات مسلحة مع قوات السلطة وجحوشها.

كما كانت هناك صلة خاصة، الى جانب بريد مشترك، بين المركز القيادي في دمشق ومنظمة طهران باعتبارها، أي منظمة طهران، تشكل احدى حلقات الوصل بين المركزين القياديين في الداخل(كردستان) والخارج (دمشق).

حول اعلام الحزب الشيوعي العراقي (1993 - 2003)

مفيد الجزائري

شهدت السنوات العشر التي تلت انعقاد المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي العراقي في تشرين الاول 1993 وانتهت بالغزو الامريكي وانهيار النظام الدكتاتوري في نيسان 2003، استقرارا وتحسنا ملحوظين للعمل الاعلامي للحزب الشيوعي العراقي. وارتبط ذلك اساسا بالأجواء الايجابية في عموم العمل الحزبي، التي أطلقها التئام المؤتمر والنتائج التي تمخض عنها، خاصة اعتماده "الديمقراطية والتجديد" نهجا للحزب.

وجاء انعقاد المؤتمر، كما هو معروف، غداة تطورات محلية ودولية بالغة الصعوبة والتعقيد، تصدرها قمع انتفاضة آذار وتفاقم ازمة النظام الدكتاتوري الشاملة والعميقة من جانب، ومن جانب آخر انهيار الاتحاد السوفييتي ودول اوربا الاشتراكية، وتأثيراته المباشرة على الحركة الشيوعية والعمالية والتحررية العالمية. وتركت هذه التطورات آثارها السلبية حتى على الاجواء في حزبنا وتنظيماته وعلى مواقف وأمزجة العديد من رفاقه.

وانعكس هذا بوضوح خلال عمليات التحضير والتهيئة الحزبيين والجماهيريين لعقد المؤتمر الخامس، وبضمنها ما بذله اعلام الحزب من جهود لاستيعاب مدلولات الواقع المتجدد ومواجهة التحديات الفكرية والسياسية والتنظيمية التي يفرزها، والحاجة الى الارتقاء بعمل الحزب انسجاما مع الاوضاع المتجددة. وفي هذا الإطار وفي ضوء الخطة العامة للحزب، بادر الى إطلاق حوار علني لمناقشة ما يواجهه الوطن والشعب من مستجدات، وما يواجهه الحزب من مهمات للنهوض بدوره المنشود. وقد كرست "طريق الشعب" و"الثقافة الجديدة" و"رسالة العراق" الى جانب اذاعة "صوت الشعب العراقي" مساحات واسعة في صفحاتها واوقات بثها، لتحفيز النقاش واستنتاج خلاصاته وصياغة الدروس، ولتحديد ما يحتاجه الحزب من طاقات ووسائل لتحقيق ما يصبو اليه شعبنا، للخلاص من النظام الدكتاتوري والحصار الاقتصادي الدولي، وللوقوف بوجه أية حرب وغزو واحتلال، وتحقيق البديل

الديمقراطي والعدالة الاجتماعية.
وبعد ان تم عقد المؤتمر الوطني الخامس واقرّ وثائقه وانتخب قيادة الحزب الجديدة وحدد استراتيجيته وتكتيكه بما ينسجم مع الاوضاع الجديدة، انغمرت وسائل الحزب الاعلامية في جهد مثابر ومتواصل تبشيراً بما اعتمد المؤتمر من توجهات، ونشراً واذاعة لما أقرّ من وثائق، وتوضيحا للمستجدات الفكرية والسياسية والتنظيمية في سياق مناقشاته ومجرى اعماله.
وكان ذلك ضروريا في مواجهة حملة التشويه المعادية التي شنها اعلام النظام الفاشي، وما كان يطرحه بعض من انهارت قناعاتهم وانقلبت توجهاتهم، ولتعزيز روح التفاؤل بمستقبل الحزب ومستقبل قضية التقدم في العالم، وتأكيد استمرار المسيرة الثورية لتجسيد الحلم بـ "وطن حر وشعب سعيد"، وتحقيق الخلاص للإنسان من الاستغلال والاستعباد الرأسمالي، واقامة مجتمع العدالة الاجتماعية والاشتراكية، الى جانب ادامة وترسيخ الثقة في قدرة شعبنا على بناء العراق الديمقراطي الفيدرالي المستقل.
ولم تكن مهمة اعلام الحزب يسيرة في المرحلة الجديدة التي دشنها مؤتمره الخامس. فانهيار الدولة السوفييتية والمعسكر الاشتراكي كانت له تداعياته وتأثيراته على مستوى العالم كله، وسبّب صدمة عميقة في عموم اوساط شعبنا التي كان اعلامنا يستهدفها ويخاطبها.
وفي الداخل ظلت الحركة الوطنية العراقية مشتتة غير موحدة من جانب، واستمرت التدخلات الاقليمية والدولية في شؤون البلد الداخلية واستباحة سيادته واستقلاله من جانب آخر. فيما تواصلت الحملات الدموية للنظام الدكتاتوري المأزوم ضد منظمات الحزب ومناضليه وفكره، بكل ما كانت تحمل من أخطار داهمة دائمة على ارواح الرفاق وعلى حركتهم وجوانب نشاطهم المختلفة، وبضمنها مجال جمع المعلومات ونقلها، ذو الاهمية الخاصة لإعلام الحزب.
يضاف الى ذلك ان خبرات منظماتنا المحلية وقدراتها على تلبية متطلبات وسائل اعلامنا واحتياجاتها من المواد الاعلامية ضعيفة اصلا، كما ان امكانيات الحزب المادية، الضرورية لتعزيز وسائله تلك ودعمها بالحديث من المعدات والتجهيزات، محدودة وضئيلة، وان الكادر المحترف والمتفرغ للعمل فيها شحيح جدا. وذلك ما فرض الاعتماد في الغالب على النشاطات والمساهمات التطوعية لرفاقنا واصدقائنا الاعلاميين المنتشرين في انحاء العالم المختلفة، وبضمنهم من كانوا او أصبحوا لاحقا وبمرور الوقت رموزا اعلامية بارزة.
مع ذلك كله ورغم صعوبة الظروف المحيطة عموما وقسوتها، استطاع العاملون في اعلام الحزب، تدعمهم قيادته ومساهمات اعضائها المباشرة، ادامته وتطويره، وحتى تمكينه من احراز نجاحات.. لم تخل بالطبع من نواقص وجوانب ضعف.
فقد أمّنوا استمرار صدور (الثقافة الجديدة) كمجلة نظرية فكرية رائدة ومتميزة في عالم المجلات الثقافية العراقية والعربية، وكمنبر للثقافة العلمية التقدمية ومنصة للتعريف بالتطورات والمستجدات في ميدان اهتمامها، والتي تعكس تجربة انتكاسة الحركة الشيوعية العالمية، وسبل

استنهاضها واستخلاص الدروس لمواصلة المسير.
كذلك ضمنوا تواصل صدور الصحيفة المركزية للحزب "طريق الشعب" وتطويرها وتوسيع انتشارها، داخل العراق وخارجه، مع تركيزها على معاناة الشعب وعلى نضاله البطولي، وعلى الدعوة الى وحدة القوى الوطنية والديمقراطية لضمان خلاص شعبنا من الدكتاتورية والحصار، ومن الحرب التي بقي شعبنا يعاني منها على الدوام بأشكالها المتنوعة، كذلك المتابعة المستمرة لمطالب الجماهير الشعبية وتحفيز نضالها وتنظيم صفوفها، والدفاع عن حقوق الانسان والديمقراطية.
وفي الوقت نفسه كرسوا الكثير من اهتمامهم وعنايتهم لإدامة الاذاعة "صوت الشعب العراقي"، التي كانت لسان الحزب اليومي الناطق بجانب "طريق الشعب" الشهرية و"الثقافة الجديدة" الفصلية، ولرفدها بمستلزمات الانتشار والوصول الى اوسع رقعة جغرافية داخل الوطن وخارجه، وتنوير الجماهير بما يستجد من تطورات داخلية وخارجية، ومن مواقف الحزب والحركة الوطنية الديمقراطية ازاءها وسبل التعامل معها، الى جانب ايصال المعلومة الموثوقة الصادقة، التي تشجع وتحفز ابناء الشعب على خوض النضال من أجل العراق الديمقراطي الفيديرالي التعددي بديلا عن سلطة الدكتاتورية الدموية.
وفي أثناء ذلك تنامى وتحسن العمل والأداء الاعلامي في تلك المنابر بفضل ادخال الادوات التكنولوجية الحديثة، وإن بحدود معينة، كما أخذ يتضافر مع حضور وسائل التواصل الحديثة، الذي بدأ يتصاعد آنذاك، محققا في ذلك بعض النجاح.
والى جانب هذا كله دعم اعلام الحزب جهود منظماتنا في الخارج لإدامة صدور مجلة "رسالة العراق" باللغة العربية في لندن، والهادفة الى التعريف بمعاناة شعبنا العراقي في ظل الدكتاتورية والعقوبات الاقتصادية الدولية، وتشجيع النشاطات التضامنية معه في مواجهة المحنة. كذلك تحفيز منظمات الحزب في الخارج على اصدار مطبوعاتها الخاصة، بما يسهم في تعزيز روح الانشداد الى الوطن وقضاياه في اوساط الجاليات العراقية، ومواجهة أجواء الاحباط ومشاعر اليأس، والمشاركة في التحصين الفكري لرفاق الحزب وعامة الجمهور وحمايتهم من افكار الانهزام وجذبهم الى النضال في سبيل مستقبل أفضل للعراق.
وفي غضون ذلك كان الحزب يقدم، من ناحية، ما يستطيع من دعم لضمان الصدور المنتظم للطبعة العربية من "ريكاي كوردستان"، الجريدة المركزية للحزب الشيوعي الكردستاني، ومن ناحية ثانية يولي اهتماما خاصا لما يصدر سرا داخل الوطن من نشرات ومطبوعات، بإمكانيات بالغة التواضع وفي ظروف بالغة الصعوبة والخطورة. وكانت هذه النشرات على تواضعها الشديد تسد فراغا وتشبع حاجة نضالية محسوسة في ميادين الشؤون المحلية، السياسية والفكرية والاجتماعية، وتحرّض الجماهير على المطالبة بحقوقها المستلبة.
ولعل أبرز تلك النشرات كانت "الحقيقة" الصادرة سنة 1993 في الفرات الاوسط، كذلك "صوت العمال" و"النصير الشيوعي" وغيرهما.

وارتباطا بالتطورات الخطيرة والاحداث الجسام، التي شهدتها تلك الفترة على المستويين الدولي والمحلي، ركزت منابر الحزب الاعلامية في ما تنشر وتبث على جملة مهمات فكرية وسياسية وتعبوية - تحريضية:

من جانب كانت تشدد على ان انهيار المعسكر الاشتراكي لا يعني انهيار الفكر الاشتراكي، وان من واجب حَمَلة هذا الفكر العمل على تجديده في ضوء تجارب البناء الاشتراكي في القرن العشرين وما انتهت اليه، باعتباره المرشد على طريق خلاص البشرية من نظام الاستغلال والاستعباد والاضطهاد الرأسمالي، وإقامة مجتمع العلاقات الانسانية والعدالة الاجتماعية، المتنعم بالحرية والمساواة والتقدم، بعيدا عن ممارسات ومظاهر الاستغلال والتمييز الطبقيين.

وفي إطار ذلك كانت تؤكد الحاجة الى الاستفادة من اخطاء الماضي، واستخلاص الدروس الحقيقية البعيدة عن نزعات الجمود العقائدي والعدمية والانهزامية، لتأمين تدقيقات واغناءات نظرية، وتطوير اساليب عملية لاستنهاض الحركة الثورية عالميا ووطنيا.

وفي هذا الميدان صدرت عشرات بل ربما مئات الكراريس والنشرات الحزبية، التي تلبي تلك الحاجة النضالية وتسهم في الارتقاء بمستوى الوعي والادراك الفكري للمستجدات التي يفرضها تطور الواقع، والتي تعرّف بخلاصات تجارب الحركات الثورية والشيوعية في محاربة الاستعمار والقمع الفاشي وانتهاك حقوق الانسان.

من جانب آخر كانت وسائل اعلامنا تبشر بحتمية زوال النظام الدكتاتوري، وبضرورة اعتماد العامل الداخلي اساسا لعملية التغيير، مع الاستعانة بالعامل الخارجي كعنصر مساعد عبر التضامن المعنوي والسياسي والمادي مع قوى شعبنا المكافحة ضد النظام، ولزعزعة شرعيته، وتمكين قوى المعارضة العراقية من توحيد صفوفها لإطاحته والخلاص منه.

وفي اثناء ذلك كان اعلامنا يرفع شعار "لا للحرب لا للدكتاتورية"، مؤكدا ومكررا في كل مناسبة رفض التغيير بواسطة التدخل العسكري الخارجي والغزو والاحتلال، ومحذرا من ان هذه الوسائل لن تأتي للبلاد بالأمن والاستقرار والديمقراطية.

واسترشادا بالمشروع الوطني الديمقراطي الذي تبناه الحزب وبشّر به، ألقى اعلامنا الاضواء على سبل معالجة المعضلات التي كان البلد يئن تحت وطأتها في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها، وعلى متطلبات العمل في شتى المجالات لبناء عراق متقدم، يضمن الرفاهية للشعب ولفئاته الكادحة المحرومة بالذات.

وفي هذا السياق كان يولي بالطبع اهتماما استثنائيا ودائما لمعاناة شعبنا في ظل الحصار الاقتصادي، والتي كان يضاعفها جور النظام وعسف سلطاته ودموية اجهزته القمعية، مشددا خلال ذلك على النضال من اجل خلاص شعبنا من مآسي الحصار والدكتاتورية في الآن نفسه، تحت شعار "رفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا واسقاط الدكتاتورية".

وفي السياق ذاته ايضا ساهم اعلام الحزب بصورة فعالة في الدعوة الى السلام ورفض الاحتلال، وفي الحثّ على عقد مؤتمر لجميع القوى الوطنية العراقية، يبحث ويحدد مستلزمات اقامة الحكم الديمقراطي المطلوب، بعيدا عن الوصاية الاجنبية وبشكل ينسجم مع

ارادة الشعب ومطالبه.
وبجانب هذا كله، وغيره من المهمات التي ركزت منابر حزبنا الاعلامية عليها وعملت على النهوض بها، ساعدت بأشكال مختلفة على ترصين حياة الحزب الداخلية فكريا وتنظيميا، وهو ما كان ضروريا لمواجهة الدكتاتورية الشرسة ونزعاتها وأدواتها التخريبية.

- انتهى -

ملحق

خصّ الرفيق حميد مجيد موسى سكرتير الحزب الشيوعي العراقي سابقا (الثقافة الجديدة) بتعقيب حول محتوى المقال اعلاه، وما يتضمن من عرض وتقييم لعمل اعلام الحزب في الفترة المحددة، جاء فيه الآتي:

استنادا الى ما كنت مطلعا عليه من موقعي في قيادة الحزب في تلك الفترة، وانا على علم كامل بإمكانيات اعلامنا آنذاك، وبالظروف التي كانت تحيط بعمله، والاجواء العامة الذي كان يتحرك في اطارها، أستطيع القول ان ما قدمه كان أفضل ما بوسعه تقديمه.

وإذا كانت هناك نواقص في إنجازه وأدائه، فذلك ليس غريبا، فما من عمل يمكن ان يخلو من هذا او ذاك. لكن ذلك لا ينال من مستوى الانجاز ولا يقلل مما ابداه إعلاميينا من بسالة في عملهم، رغم محدودية الامكانيات المتاحة لهم وتواضع الادوات التي كانوا يستخدمونها وضعفها تكنولوجيا. كانوا يملئون فراغا كبيرا جدا، إذا ما قارنّاهم بأمثالهم ممن كانوا يتوفرون على امكانيات مادية وتقنية وعلاقاتية كبيرة.

كان إعلام حزبنا شاخصا حاضرا في كل المعارك السياسية والفكرية، التي يخوضها شعبنا ضد الدكتاتورية.

ومن ناحية اخرى تكفيه فخرا مساهمته في بناء الحزب وتعزيز دوره.

ونحن بالطبع لا نستطيع النظر الى ذلك بمنظار الحاضر، او نقيم احوالنا يومها وفقا لمقاييس اليوم. صحيح انه لم تكن لدينا حينئذ لجنة اعلام مركزية، لكن عمل وسائل اعلامنا كان منسقا ومتكاملا، وكانت الادارة الموحدة للأعلام متمركزة على العموم في يد قيادة الحزب، وكان الجهاز الحزبي موجها بشكل كامل للعمل بهذا الاتجاه.

أخيرا.. لن ننسى رفاقنا الابطال، الذين أسهموا في نقل وسائل انتاجنا الاعلامي المركزي الى عامة الناس، وبذلوا من أجل ذلك جهودا تستحق الاشادة وقدموا تضحيات كبرى نبقى نتذكرها دائما.

لمناسبة الذكرى التسعين لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي

الصهيونية بوصفها ايديولوجيا عنصرية ومشروعاً استعمارياً
فلسطين بوصفها قضية تحرر وانعتاق

قاسم حنون

ظلّ موقف الحزب الشيوعي العراقي من القضية الفلسطينية وتصوره للصراع العربي الإسرائيلي - شأن غيره من الأحزاب الشيوعية والقوى التقدمية العربية - ظل عرضة للتشويه المتعمد والتعمية الأيديولوجية التي لجأت إليها معظم فصائل الحركة القومية العربية وفي مقدمتها البعث فضلا عن قوى اليمين والرجعية من أعداء الشيوعية التقليديين. وفسرت أممية الشيوعيين ونبذهم للتعصب القومي والديني على نحو يثلم وطنيتهم وانحيازهم للقضايا الوطنية والقومية.

اقترن كفاح الحزب منذ بداية تأسيسه من اجل حل مسائل التحرر الوطني بمعاداته للمشروع الصهيوني في المنطقة، فقد شارك المثقفون الماركسيون في التظاهرات التي حدثت في بغداد 1928 بمناسبة زيارة الصهيوني "الفريد موند" فأعقبت تلك التظاهرات اعتقالات طالت حسين الرحال وعزيز شريف وزكي خيري وعبدالفتاح ابراهيم الذي ينسب إليهم الدور الكبير في تأسيس الحزب الشيوعي العراقي منتصف الثلاثينيات. وقد نبّه الحزب الى خطورة الصهيونية باعتبارها ايديولوجية عنصرية والى الترابط البنيوي بين الأمبريالية والصهيونية، ففي آب 1935 نشرت جريدة كفاح الشعب الناطقة باسم الحزب مقالا يعبّر عن التضامن مع الشعب الفلسطيني. وقد ساهم في تهريب السلاح الى الفلسطينيين بالتنسيق مع الضابط القومي المعروف يونس السبعاوي عبر دائرة كَمارك الرمادي، وكان يتسلمها فؤاد نصار الذي سيصبح في ما بعد سكرتير الحزب الشيوعي الأردني. ولذا فإن قضية فلسطين بقدر ما هي قضية النضال من أجل الحقوق العادلة والمشروعة للشعب الفلسطيني فهي نضال ضد الامبريالية وقاعدتها المتقدمة في الشرق الأوسط، اسرائيل، ولا يمكن حلّها بمعزل عن تطلعات شعوبنا نحو الأستقلال الوطني

والتقدم الاجتماعي .

لم تكن (المسألة اليهودية) وليدة ظروف وتحولات الشرق بقدر ما كانت نتاجاً غريباً سعت الدول الأوربية لتصديره الى الشرق والتخلص من موروث العلاقة الملتبسة مع اليهود في المجتمعات الغربية. لقد نوّه ماركس ببصيرة ثاقبة في كتابه (المسألة اليهودية) ان خلاص اليهودي ليس في العودة الى (أرض الميعاد) بحسب المقولات التوراتية والترويج الصهيوني لها بل في اندماجه في الواقع الاجتماعي والتاريخي المعين، فالمسألة اليهودية مسألة اجتماعية تاريخية بالتحديد ولا يمكن تقبل التفسير الميتافيزيقي للشخصية اليهودية أو النظر الى صيرورة التاريخ اليهودي بمعزل عن الشروط الاجتماعية والاقتصادية . منذ زوال حكم المور (المسلمين) في الأندلس شهد اليهود ألواناً من التمييز والكراهية وسوء المعاملة بما يؤسس لتاريخ من العداء للسامية بصوره ومراحله المختلفة وصولاً الى القرن التاسع عشر والجدل الذي استعر في الأوساط السياسية والثقافية حول الحاجة الى وطن لليهود مما مهد لظهور الصهيونية باعتبارها تعبيراً عن مصالح وفكر البرجوازية اليهودية العليا وان من مصلحتها تجنيد جماهير الشغيلة من اليهود لصالح برنامجها الاستيطاني الذي يتواءم الى حد كبير مع النهج الكولونيالي للقوى الاستعمارية الكبرى آنذاك. وكان لابدّ للصهيونية أن تحشد إمكاناتها وأساليبها المختلفة في تضليل المفكرين والساسة وقطاعات الرأي العام الأوربي للإيهام بمشروعية وطن قومي ينقذ اليهود من عناء الشتات والتمزق والغيتو مستعينة مرة بأسفار العهد القديم وأخرى بالأفكار الجديدة الليبرالية والأشتراكية وتصوير الصهيونية على أنها حركة تحرر قومي خاصة وان المرحلة التاريخية كانت تشهد نهوض القوميات وتأسيس الدول القومية ، وكل ذلك جرى في سياق أيديولوجي مشبوه يتساوق مع المشروع الامبريالي للهيمنة على الشرق الأوسط.

على أن الدارس لأحوال القرن التاسع عشر في أوربا يتبين مدى التلاؤم الذي عبرت عنه البرجوازية اليهودية الجديدة مع النظام الرأسمالي واندماجها في المحيط البرجوازي الأوربي الغربي عن طريق ظواهر شتى :

أ- على الصعيد الاقتصادي اتجهت الشرائح العليا للبرجوازية اليهودية نحو أخذ حجمها الطبيعي داخل عالم البرجوازيات الأوربية المسيطرة فلم تعد بارزة بروزاً خاصاً في عالم المال كما كانت في السابق وبتوصيف ماركس" فإن الظروف الخاصة التي تتبلور مع تطور الرأسمال الصناعي لم تعد مسيطرة هنا ، بل العكس هو الصحيح اذ حيث مازال الرأسمال البضائعي مسيطراً نجد أوضاعاً متأخرة "

ب- وعلى الصعيد الاجتماعي ازداد عدد اليهود من أبناء البرجوازية الذين تخلوا عن دينهم واعتنقوا المسيحية وبخاصة بين صفوف الأنتلجنسيا والعاملين في المهن الحرة التي دخلها اليهود بكثافة كبيرة "

ج-على الصعيد الثقافي والحضاري انتجت البرجوازية اليهودية الجديدة ثقافة جديدة تتفق مع عصر التنوير والعقلانية الأوربية اذ حاولت أن تحقق منجزات حديثة وليبرالية وثورية في المجالات الثقافية والحضارية شبيهة بالخطوات التي حققتها برجوازية اوربا الغربية.

د- على الصعيد السياسي اعطت البرجوازية اليهودية في بادئ الأمر ولاءها الكلي للحركات القومية في البلدان الموجودة فيها واعتبرت ذلك جزءاً من عملية اتمام تحررها الاجتماعي العام (1).

لقد تراكمت ثروة فكرية وخبرة سياسية عميقة في تحليل المسألة اليهودية والدور الخطير للصهيونية بدءً من كارل ماركس وروزا لوكسمبورغ وابراهام ليون واسحق دووينشر وآرنست فتشر واريك هوبزباوم ونعوم تشومسكي، وهم مفخرة الفكر الإنساني التقدمي وبوصلته في الطريق الذي تزرعه إسرائيل وحلفائها بالأباطيل والأوهام .

يقول أ. هوبزباوم :(ليس لديّ التزام عاطفي وجداني بممارسة دين سلفي ، ناهيك عن الالتزام بتأييد دولة ، امة صغيرة متشربة بالروح الحربية العسكرية مخيبة للآمال ثقافياً وعدوانية سياسياً تطالبني أن أتضامن معها على اسس عرقية عنصرية كما أنني لست حتى مضطراً للتكيف مع الذهنية السائدة الدارجة في بداية القرن الجديد والمتمثلة في التعاطف مع اليهودي – الضحية الذي يؤكد اعتماداً على قوة الهولوكوست مزاعم ودعاوى وحقوقاً على ضمير العالم).

وجاء في برنامج حزب التحرر الوطني 1946 وهي تسمية أخرى للحزب الشيوعي العراقي (يرى حزبنا في النشاط الصهيوني الاستعماري خطراً لا يهدد فلسطين حسب بل البلاد العربية بأسرها لأنها عدا عن كونها حركة استعمارية عنصرية فاشية فهي في الوقت ذاته اداة رجعية بأيدي الدول الاستعمارية الكبرى وسلاح تشهره ضد الحركة التحررية العربية). وعلى عكس هذا الوقف كانت الفئات القومية تتبنى خطاباً ساذجاً لا يميز بين فقراء اليهود وأغنيائهم ولا ينفذ الى حقيقة المشروع الصهيوني ودوافعه الاستعمارية التوسعية. وقد ارتهنت الى مقولات ووقائع في التاريخ العربي الإسلامي عن غدر اليهود وخيانتهم للمواثيق والعهود دون تحليل كاف لأسس ومفاهيم الصهيونية ووسائلها المختلفة وأساليبها المبتكرة وعدم التمييز بين اليهودية والصهيونية. وكان أداؤها في أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات يثير الهلع في اوساط اليهود العراقيين ويوفر الذريعة للمخطط الصهيوني الذي عمل على انشاء مراكز استقطاب واستيطان لليهود وتشجيعهم للهجرة الى فلسطين. وبينما تمسكت نسبة كبيرة من اليهود العراقيين بخيار البقاء داخل العراق فقد دفعت ممارسات نادي المثنى وحزب الأستقلال فضلاً عن الممارسات الخاطئة ضد اليهود بعد أحداث حركة مايس 1941 (حوادث الفرهود) وتورط الحكومة العراقية آنذاك في تهجير اليهود وتنظيم رحلات نقل جوي لأعداد كبيرة منهم من بغداد الى اسرائيل وتغاضيها عن عمليات تهريب اليهود العراقيين الى ايران الى حد مطالبة الأعضاء القوميين في مجلس النواب بترحيل كافة اليهود من العراق ومصادرة أملاكهم والمناخ الهستيري الذي كان يتوعد اليهود بالويل والثبور ، كل ذلك يتفق مع أهداف الحركة الصهيونية في تعزيز نسبة اليهود في فلسطين وخلق واقع ديموغرافي جديد على حساب الفلسطينيين. وانه لمن المؤسف ان يتبنى التيار القومي الفلسطيني استناداً الى ايديولوجية محافظة منذ العشرينات مواقف تتسم بالتشنج والارتجال وضعف

الحس التاريخي بجسامة المخطط الامبريالي والصهيوني وانسياقه وراء أوهام المساواة بين الشيوعية والصهيونية ومقاطعته للجان التحقيق الدولية للتعرف على حقائق الوضع السكاني في فلسطين فكانت تلك فرصة سانحة لقادة المنظمات الصهيونية أن يقدموا تصورهم المشبوه عن مشروعية المطالبة بوطن لليهود وتسويغ شعارهم المخادع (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) . كان لجوء الحاج أمين الحسيني الى بغداد والتنسيق مع قادة الجيش ورشيد عالي الكيلاني للقيام بحركة انقلابية لزحزحة النفوذ البريطاني في سياق التواطؤ مع المانيا النازية التي كانت تخوض حربا كونية ضد الحلفاء يكشف عن غياب رؤية صحيحة للعلاقات الدولية ومكانة الصهيونية في منظومة المصالح الكبرى وقد الحقت تلك المواقف ضررا فادحا بالقضية الفلسطينية خاصة وان النازية تمثل هي الأخرى ايديولوجية عنصرية تقوم على عقدة تفوق الجنس الآري فيما تقوم الصهيونية على تفوق اليهود بوصفهم (شعب الله المختار) .

في أيلول 1945 تقدم رفاق يهود في الحزب الشيوعي العراقي هم (يعقوب مصري ومسرور صالح قطان وابراهيم ناجي) بطلب تأسيس عصبة لمكافحة الصهيونية. وقد ورد في منهاجها (مكافحة الصهيونية وفضح أعمالها ونواياها بين جماهير الشعب العراقي ولا سيما بين اليهود وبهدف القضاء على نفوذ الصهيونية ودعايتها وفضح عملاء الصهيونية). وجاء في عريضة طلب تأسيس العصبة (إن الصهيونية خطر على اليهود مثلما هي خطر على العرب، واذا كانت قضية فلسطين هي قضية البلاد العربية بأسرها فلا يمكن إلا أن نقف الى جانب عرب فلسطين). أجيزت عصبة مكافحة الصهيونية في آذار 1946 قبيل قيام لجنة التحقيق الدولية حول فلسطين بزيارة العراق .

كتب الرفيق (فهد) مؤسس الحزب سلسلة مقالات في جريدة الأساس تناول فيها جذور الصهيونية وطابعها العنصري والعلاقة العضوية بين الصهيونية والأمبريالية (لقد تبناها الاستعمار البريطاني لإيجاد حليف له في قلب البلاد العربية فلسطين ولغرض شطرها عن البلاد العربية الأخرى واتخاذها قاعدة حربية له) ثم محاولة أمريكا استخلاف بريطانيا في فلسطين واتخاذها قاعدة لحماية مصالحها واستخدام نفوذها لدعم الصهيونية. كما فضح صراع أقطاب النظام الملكي من أجل كراسي الحكم وتباكيهم على المصلحة القومية وعلى القضية الفلسطينية استنادا الى الشعار المشبوه (عدو عدوي صديقي) الذي علت نبرته خلال أحداث مايس 1941 ...ورغم ان عمر العصبة لم يدم الاّ ثلاثة أشهر من آذار الى حزيران 1946 فقد عبرت عن فهم عميق للمسألة فجاء في بيان العصبة (ان حلّ المشكلة اليهودية يتم بحل مشكلات البلدان التي يعيش فيها اليهود ، أما حل فلسطين فهو فضلا عن انه لا يحل المشكلة اليهودية فهو اعتداء صريح غاشم على حقوق الشعب العربي لا يمكن أن يرضاه أي إنسان حرّ ، ونحن بصفتنا يهوداً نعلن استنكارنا لوعد بلفور واحتجاجنا عليه ، وندعو كل مواطن الى النضال من اجل استقلال فلسطين استقلالاً تاماً وتأليف حكومة ديمقراطية عربية فيها) *. وعبّرت جريدة (الأساس) عن ميل سياسي وفكري

تقدمي بين اليهود العراقيين وهو احدى اللمحات المشرقة في نضال الحزب الشيوعي العراقي، الذي ضم بين صفوفه مناضلين من مختلف الأديان والمذاهب بما يؤسس لهوية وطنية جامعة تقوم على التعايش والإحترام المتبادل والكفاح من أجل التحرر الوطني والعدالة الاجتماعية والحريات. كما تمت مقاطعة لجنة التحقيق الأنكلو- امريكية والتأكيد على الغاء الانتداب وتأليف حكومة وطنية ديمقراطية. وكانت عصبة مكافحة الصهيونية قد لفتت بنشاطها أنظار الوطنيين في فلسطين فأرسل السيد جمال الحسيني عميد اللجنة العليا في فلسطين برقية يدعوها الى المشاركة في الإضراب العام المقرر تنفيذه في البلدان العربية احتجاجا على قرارات اللجنة الدولية المنحازة للصهيونية. ونظمت تظاهرة في 28 حزيران 1946 ضد الأعمال الوحشية التي ترتكبها المنظمات الصهيونية في فلسطين بمؤازرة سلطة الانتداب البريطاني ضد الفلسطينيين. وقد طالبت التظاهرة بعرض قضية فلسطين على مجلس الأمن وبحكومة وطنية ديمقراطية للعرب واليهود في فلسطين.

انطلقت التظاهرة من الرصافة في بغداد وعبرت الى الكرخ، وحين مرّت بالقرب من السفارة البريطانية قوبلت باطلاق النار من قبل الشرطة فسقط الشاب الشيوعي اليهودي شاؤول طويق، وهو أول شهيد وطني بعد الحرب العالمية الثانية ..وفي 29 مايو/ايار توجه أعضاء الحزب اليهود برسالة الى ستالين والحكومة السوفيتية يلتمسون فيها تأييد قضية فلسطين في الأمم المتحدة وحق شعب فلسطين العربي في الإستقلال وقضيتهم لا علاقة لها بمأزق اليهود المقتلعين في أوربا ورفض الشيوعيين التخلي عن أفكارهم ..

كان موقف الإتحاد السوفيتي تجاه القضية الفلسطينية قبل قرار التقسيم يماثل موقف الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، وهو مبني على تحليل ماركس للمسألة اليهودية وعلى أفكار لينين في صراعه ضد(البوند) وهي منظمة للعمال اليهود في روسيا . وقد ظل هذا الموقف راسخا، ولكن يبدو أن مجموعة من الأنتلجنسيا اليهودية في الإتحاد السوفيتي أفلحت في التأثير على مراكز صنع القرار هناك، حيث صورت الصهيونية كحركة تحرر وطني تقودها المنظمات الصهيونية ضد النفوذ البريطاني بينما الدول العربية خاضعة للاستعمار البريطاني واستدرار التعاطف مع اليهود لما عانوه من قسوة ومعاملة وحشية جرّاء الممارسات العنصرية الوحشية للنازيين في ألمانيا والبلدان الخاضعة للاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية، وربما تشكل تصور لدى السوفيت أنه بإمكان الحزب الشيوعي في الدولة اليهودية الجديدة الوصول الى السلطة واقامة دولة اشتراكية !!...

في 14 مايو 1947 أعلن وزير الخارجية السوفيتي أندريه غروميكو أنه (لا يمكن ضمان المصالح المشروعة للسكان العرب واليهود في فلسطين وعلى حدٍ سواء إلا بإقامة دولة عربية – يهودية مستقلة وثنائية وديمقراطية ومتجانسة)، وأضاف أنه (اذا ما أثبتت هذه الخطة أنها مستحيلة التنفيذ فسيكون ضروريا أخذ الخطة الأخرى في الإعتبار وهي الخطة التي تنصّ على قيام دولتين مستقلتين واحدة يهودية والأخرى عربية) .. لقد تسبب موقف الإتحاد السوفيتي بالصدمة والحرج للشيوعيين في العراق

والبلدان العربية، وفي 29 تشرين الثاني 1947 صوّت الإتحاد السوفيتي الى جانب الولايات المتحدة الأمريكية ودول أخرى على قرار التقسيم، وهو قسمة غير عادلة بحق عرب فلسطين في اقتطاع % 56,5 من مساحة بلدهم ومنحه لمجتمع يشكل أقل من ثلث السكان.

وهكذا صدر قرار التقسيم الشهير الذي مهّد لتمزيق الكيان الفلسطيني وتوطيد أسس الدولة الصهيونية ولم تكتف اسرائيل بحصتها من التقسيم بل ابتلعت الأراضي الفلسطينية تدريجياً ثم أراضي الدول العربية المجاورة (مصر وسوريا) خلال حرب حزيران 1967 التي وضعت العرب أمام مأزق تاريخي وخسارة فادحة لم يستطيعوا التخلص من آثارها حتى اليوم . إن التاريخ لا تصنعه الخطابات المنمقة والأراجيز والنوايا الطيبة بل هو صراع إرادات ورؤى إستراتيجية ووسائل فعالة لصياغة المطامح الكبرى والحفاظ على المصالح الحيوية لشعوب المنطقة إزاء تحديات الهيمنة والاستحواذ التي تتبدى في أشكال وخطابات شتى يتبدل اللاعبون بينما يتواصل الحفاظ على قواعد اللعبة.

بنى الحزب الشيوعي العراقي رؤيته في تحليل مشروع التقسيم في توجيه داخلي صادر في كانون الأول 1947 بحسب المؤرخ (حنا بطاطو):

أ- ان الحركة الصهيونية حركة عنصرية دينية رجعية ومزيفة بالنسبة للجماهير اليهودية.

ب- ان الهجرة اليهودية لا تحل مشكلة اليهود المقتلعين من اوربا بل هي غزو منظم تديره الوكالة اليهودية واستمرارها بشكلها الحالي يهدد السكان الأصليين في حياتهم وحرياتهم.

ج- ان تقسيم فلسطين عبارة عن مشروع امبريالي قديم يستند الى استحالة مفترضة للتعايش بين العرب واليهود.

د- ان شكل حكومة فلسطين لا يمكن أن يتحدد إلاّ من قبل الشعب الفلسطيني الذي يعيش في فلسطين فعلاً وليس من قبل الأمم المتحدة أو أية منظمة أو دولة أو مجموعة دول أخرى.

هـ- إن التقسيم سيؤدي الى اخضاع الأكثرية العربية للأقلية الصهيونية في الدولة المقترحة.

و- ان التقسيم وخلق دولة يهودية سيزيد من الخصومات العرقية والدينية وسيؤثر جدياً على آمال السلام في الشرق الأوسط.

ولكل هذه الأسباب يرفض الحزب الشيوعي العراقي وبشكل قاطع خطة التقسيم).

على ان أجواء التوتر والمماحكات بين أطراف الحركة الوطنية العراقية وحملة الرجعية الحاكمة ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية بتحميله مسؤولية اتخاذ قرار التقسيم ومع قرب تنفيذ المشروع والتهيئة الصاخبة لمشاركة الجيش العراقي في الحرب العربية الأولى في فلسطين في الوقت الذي كانت فيه قيادة الحزب الشيوعي رهينة السجن وبعيدة عن تطورات الأحداث، غير ان المصادر تشير الى توجيه الرفيق فهد الى قيادة الميدان بضرورة التشاور مع قيادات الأحزاب الشقيقة في سوريا وفلسطين لتبني قرار موحد بشأن التقسيم إلاّ ان ذلك لم يحدث كما يبدو. وما لبث هذا الموقف من التقسيم أن انعطف لتأييد السياسة السوفيتية، ففي 6 تموز 1948 تبنت القيادة الشيوعية خارج السجن فكرة اقامة دولة عربية ديمقراطية في الجزء العربي من فلسطين، وقبلها اتخذت

جريدة الأساس الناطقة بلسان العصبة موقفا جديدا في انتقاد التصلب السياسي للموقف العربي.

في 11 حزيران 1948 أصدرت (اللجنة العربية الديمقراطية) في باريس بيانا ووزع في بغداد في آب 1948 تحت عنوان (ضوء على القضية الفلسطينية) تضمن خطابا تبريريا للموقف السوفيتي الجديد. وانسياقا مع موجة التعاطف الذي أحرزته الحركة الصهيونية في اوربا، أشار البيان الى (أن الأمر الذي يؤسف له هو أن العرب التقدميين لم يفهموا الموقف الذي اتخذه الإتحاد السوفيتي في ما يخصّ خطة التقسيم، وضيّع الوقت وما زال يضيعه) ومضى البيان (أن المسألة الفلسطينية ليست مسالة عربية بحتة وليست مسألة يهودية بحتة، بل مسألة دولية تخضع لمتطلبات الصراع العالمي ضد النظام الرأسمالي الامبريالي العالمي). ويشير البيان الى أن (المسألة التي هي أمامنا ليست هي تصريح بلفور 1917 الظالم من غير أدنى شك، بل تحديد موقفنا إزاء مئات آلاف اليهود الذين هاجروا منذئذ الى فلسطين، وان لهذا الشعب الإسرائيلي الجديد الحق في تقرير مصيره) ودعا البيان الى عدم القتال في الحرب العربية الأولى والى تأييد خطة التقسيم ودعم القوى اليهودية التقدمية والوطنية لتمكينها من الوصول الى السلطة، ولوضع نهاية للصهيونية والرجعية اليهودية. ولم يكتف بذلك بل وصف المنظمات الصهيونية الإرهابية (ارغون، شتيرن) بأنهما منظمتان (تقدميتان). لقد تسبب موقف الحزب والبيان بردود أفعال وانزعاج لدى كثير من أعضاء الحزب وأنصاره. وحين تسرب البيان الى السجناء الشيوعيين في سجن الكوت وقرىء عليهم بصوت مرتفع أمره فهد بالكفّ بعد سماعه فقرات منه ...وكان عزيز شريف أحد قادة حزب الشعب اليساري قد عبّر علنا عما كان يشعر به الكثير من أعضاء الحزب ومؤازريه بقوله (ليس مسموحا ان نستمد موقفنا في القضايا الوطنية من الإتحاد السوفيني او أن ننظر الى سياسة دولة كالإتحاد السوفيتي على أنها مستوحاة في كل الحالات من المبادىء، ألم يمرّ الاتحاد السوفيتي بصمت على سحق حكومة ايران لأذربيجان ؟ ألم يقم الاتحاد السوفيتي علاقات اقتصادية وسياسية مع حكومة شيانغ-كاي-شيك وحدها بينما كانت عواطفه مع الحركة المعادية لتلك الحكومة ؟).

لقد وقع السوفيت في سوء التقدير وتم التخلي عن موقفهم خلال أقل من سنتين، اذ كان مبنيا- برأي د.حنا بطاطو - على تقييم غير مناسب للروابط بين الصهيونية ورأس المال اليهودي، وبين رأس المال اليهودي والغرب، وعلى التقدير المبالغ فيه لقوة اليسار اليهودي وامكانياته، وعلى غياب الإحساس بأمزجة شرائح واسعة من العرب وادراك غير كاف للهوّة التي تفصل هؤلاء عن الحكام التقليديين المرتبطين بالغرب.

وفي أعقاب اقدام السلطة الملكية على إعدام قادة الحزب 14 شباط 1949 وما رافقها من موجة التحريض والتشهير ضد الحزب الذي شاركت فيه القوى القومية الى جانب الرجعية الحاكمة ، ظهرت اتجاهات تتعاطى مع المؤثرات الجديدة في العلاقات الدولية وتشوش الرؤية لدى قطاعات من الرأي العام التقدمي في اوربا ونظرتها الى إسرائيل وتبرير وجودها في المنطقة وعجز القيادة

الجديدة للحزب عن التنبؤ بمسار الأحداث ونظرتها التجريدية لقضايا النضال الوطني والارتهان الى نسق دوغمائي يقصر كفاح البروليتاريا الطبقي في مسار محدد لا يتخطاه الى المهام القومية الأخرى. وقد كان صدور كراس (ضوء على القضية الفلسطينية) في آب 1948 رغم بعض مضامينه الواقعية في سياق التأثر بالخطاب الجديد الذي تبنته مجموعة من المثقفين اليساريين العرب (اللجنة الوطنية الديمقراطية) الذي حاول ان يقدم تصورا عن الصهيونية يخاطب من خلاله المواطن الأوربي ويتجاهل جرائم الصهاينة ضدّ الشعب الفلسطيني وما آلت إليه الأوضاع عقب الحرب العربية الأولى.
ان ما فعلته الصهيونية بالفلسطينيين بقدر ما يستوحي صفحات معتمة من تاريخ علاقة اليهود بالكنعانيين فإنه يعيد إنتاج ممارسات الفاتحين في أمريكا واستراليا وجنوب افريقيا ويؤرخ لأبشع عملية ترانسفير جماعي في العصر الحديث . لقد أدان الحزب في الكونفرنس الثاني 1956 ما جاء في الكراس المذكور على (انه زيف حقائق الوضع في فلسطين وتستر على بشاعة الصهيونية وعدوانيتها وأساء الى فكر الماركسية اللينينية) وأشار الى (أن بعض العناصر المشكوك بها نجحت في أن تدسّ في صفوف حزبنا مفاهيم خاطئة بالنسبة الى الصهيونية ومن بينها الأفكار التي وجدت تعبيرها في البيان المذكور).
انّ التعرض لموقف اليسار العربي والأحزاب الشيوعية بالطعن والتشويه واتهامه بالخيانة والشعوبية والتواطؤ وتغييب حضوره لعقود طويلة هو من باب التبرؤ مما صنعته الحكومات العربية المتعاقبة عبر مراحل الصراع العربي الإسرائيلي ايّ لأكثر من ستة عقود، والأفلاس النظري والسياسي للإتجاهات اليمينية في الحركة القومية العربية التي أهدرت طاقات وموارد هائلة في حروب عبثية ومعارك دونكيشوتية تسببت في تمزيق الصف العربي وتعطيل سبل المواجهة الحقيقية عسكريا وسياسيا وثقافيا، فلم يكن اليسار العربي المغيب والمقصي والمقموع هو من تسبب في ضياع فلسطين وتشريد أهلها وفي الهزائم المتكررة والفجائع وانهار الدم . ومنذ أواخر ستينات القرن الماضي حيث تشكلت أطر الكفاح الفلسطيني المسلح التحق شيوعيون ويساريون بمعسكرات المقاومة الفلسطينية في الأردن قبل أيلول 1970 ثم في لبنان حيث أسهم الشيوعيون العراقيون في العمليات العسكرية وفي وسائل إعلام الثورة الفلسطينية في السبعينات والثمانينات وبرز منهم قادة ميدانيون واعلاميون كانوا موضع تقدير وثقة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية حتى الاجتياح الإسرائيلي لبيروت 1982 وترحيل المقاتلين الفلسطينيين منها.

المصادر

- ماركس، المسألة اليهودية- ترجمة نائلة الصالحي، منشورات الجمل 2017 .
- صادق جلال العظم، الصهيونية والصراع الطبقي، دار العودة – بيروت ط1 1975 .
- عزيز سباهي، عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، منشورات الثقافة الجديدة، دمشق 2002، ص 387 وما بعدها .
- حنا بطاطو : العراق - الكتاب الثاني، ترجمة عفيف الرزاز، دار الحياة 2011، ص257 ولاحقا.

موقف الحزب الشيوعي العراقي من قضية الوحدة العربية

اعداد: سكرتارية تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

بداية، ينبغي التاكيد على ان مؤسس الحزب الشيوعي العراقي، الرفيق الخالد يوسف سلمان يوسف (فهد)، كان اول من رفع شعار **"يحيى اتحاد الجمهوريات العمالية الفلاحية للبلاد العربية"** الى جانب **"يا عمال العالم اتحدوا"** في العديد من بياناته السرية التي اصدرها عام 1932.

واشار (فهد) الى ان الشيوعيين في البلدان العربية منذ تأسيس احزابهم لم يكونوا اقل جماسة ورغبة صادقة للوحدة العربية من الاخرين لذلك اجتمع مندوبون من مختلف الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية في خريف 1935 ودرسوا هذه القضية من جميع جوانبها فتبين للمجتمعين ان شعار الوحدة العربية غير عملي في ذلك الحين لما بين الاقطار العربية من فروق في التطور وشكل الحكم. لذا ارتأى هؤلاء المندوبون الأخذ بشعار الاتحاد العربي "اي ان يتألف اتحاد عربي اختياري بين الاقطار العربية المستقلة، على ان لا يمس ذلك الاتحاد شكل الحكم السياسي الذي اختاره ويختاره كل من الاقطار العربية وعلى ان يساعد الاتحاد العربي الاقطار العربية غير المستقلة على نيل استقلالها".

وعندما دعا الشيوعيون العراقيون، بعد ثورة 14 تموز 1958، الى تحقيق اتحاد فيدرالي مع مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة)، بدا للبعض وكأنهم استعاروا من القاموس كلمة غريبة مفزعة، مع ان الجميع يعرفون ان لا جديد في الامر. فمنذ عام 1935، كانت الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية قد دعت الى اقامة (اتحاد عربي) لا بمعنى التجمع الاعتباطي للانظمة العربية الرجعية الخاضعة للإستعمار ، بل على اساس تحرر الاقطار المشمولة بالاتحاد المنشود وانتزاع استقلالها الوطني كشرط لاتحادها الحر بمعزل عن نفوذ الاستعمار والانظمة الملكية الاستعمارية والانظمة الملكية والاقطاعية السائدة وقتذاك، في كل البلدان العربية.

ومثله مثل بقية الاحزاب الشقيقة، عالج الحزب الشيوعي العراقي مسألة الوحدة على اساس المنهج اللينيني الذي يدعو الى تناول كل قضية (وبضمنها القضية القومية التي اولاها لينين اكبر اهتمام) من خلال تناولها:

- في نطاقها التاريخي المعين؛
- في الحقبة التاريخية المعينة؛
- وعلى ضوء الخصائص الملموسة للوضع المعين.

انه اذن يربط عملية التقدم نحو الوحدة، شرط الانعتاق من السيطرة الاستعمارية وحكم

اعوانها، ومن ثم الاقتراب منها عبر اشكال ناضجة من الروابط الاتحادية الممكنة التحقيق بين بلدان مستقلة. وبهذ المعنى كان الحزب يتناول هذه المسألة ليس بروح علمية فحسب، بل وبروح عملية ايضا، وتجاه قضية الوحدة القومية. فلم يكن من المطلوب قط تحقيق اتحاد يخدم مصالح الاستعمار والطبقات الرجعية ، او اتحاد الملوك والأمراء بل وحدة شعوب حرة مستقلة، وحدة تخدم نضالها القومي التحرري وتقربها نحو امانيها في الوحدة القومية.

ويمكن القول ان الميثاق الوطني للحزب المقر عام 1944 قد ثبّت النضال في سبيل مبدأ الوحدة العربية كأحد اهداف الحزب الشيوعي الاساسية، لكنه اختار لها شعار التقارب والتعاون بين البلدان العربية، باعتباره التعبير الواقعي لمحتواها يومذاك.

وبالمقابل، وفي كتابه "دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي" الصادر عام 1984 يذكر الراحل زكي خيري (1911 – 1995)، احد القادة التاريخيين للحزب ان ما ورد في "الميثاق الوطني" يشكل تعبيرا عن التمسك بشعار الاتحاد الفدرالي الذي اقره الحزب عام 1935.

ان هذا الشعار كان يعني عن مؤسس الحزب وبانيه الرفيق (فهد) مبدأ الوحدة العربية . فاستخدامه لا يعني التراجع عن المبدأ بمقدار ما يعني تدقيقه وتحقيق الانسجام بين الاسم والمسمى، بين الشكل والمضمون.

وعلى هذا الاساس، عرض الحزب الشيوعي العراقي، بعد ثورة 14 تموز 1958، برنامجه في قضية الوحدة، داعيا الى المباشرة بإقامة (اتحاد فدرالي) بين العراق المتحرر حديثا، وبين الجمهورية العربية المتحدة، على اسس ديمقراطية طوعية حقيقية، تتجاوز النواقص والثغرات في بناء الوحدة السورية – المصرية، والتوجهات الخاطئة لسياسة الجمهورية العربية المتحدة حينذاك، ولا سيما فيما يتعلق بالحريات الديمقراطية والحياة الحزبية ونزعة العداء للشيوعية.

ولهذا يمكن القول ان الشيوعيين العراقيين، بعد ثورة تموز، مثلما كانوا قبلها لم يبتكروا منهجا في قضية الوحدة يتسم بالجدة او الغرابة، كما لم يستخدموا شعار الاتحاد سلاحا في المناظرة مع قوى اخرى انخرطت بتطرف مقصود في طريق المجابهة مع الحزب الشيوعي العراقي وجماهير الشعب العراقي، ومن خلال الطرح المتسرع لشعار الوحدة الاندماجية الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة – وهو شعار لم تكن شروط تحقيقه ناضجة بأي قدر كان، كما كان في تعارض تام مع وعي وإرادة الجماهير الشعبية في العراق والغالبية الساحقة من احزابه السياسية.

ان الشيوعيين العراقيين، لدى دعوتهم لإقامة اتحاد فدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة بعد ثورة تموز 1958، انما كانوا يأخذون بالحسبان طائفة من الحقائق الموضوعية والظروف التاريخية التي استندوا إليها في صياغة هذا الموقف. وليس صحيحا ان الشيوعيين العراقيين قد اتخذوا "موقفا اقليميا" لمعارضة الوحدة أو بالارتباط مع موقف عبد الكريم قاسم. وللتاريخ نقول ان الحزب الشيوعي العراقي بادر، بعد ثلاثة اسابيع من تاريخ قيام ثورة تموز 1958 الى طرح شعار الاتحاد في الشارع في اكبر تظاهرة جماهيرية شهدتها بغداد من قبل، ولم تكن لهذه المبادرة اية علاقة بموقف عبد

الكريم قاسم الذي لم يكن له اي موقف محدد بهذا الشأن.
بالمقابل، كان موقف الحزب الشيوعي العراقي معروفا ومعلنا إزاء مسألة الوحدة الاندماجية الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة التي لم تكن عناصر تكوينها ناضجة، ولم تكن تخدم، بالصورة التي تكونت فيها، مصالح النضال القومي التحرري، والتطور الديمقراطي، ولا قضية اقامة الوحدة على اسس مضمونة راسخة. ولكن، لما كانت الوحدة بين البلدين قد اصبحت واقعا فقد ساند الحزب الشيوعي العراقي والقوى التقدمية العربية النقاط (الثلاث عشرة) التي دعا الحزب الشيوعي السوري الى الاخذ بها، كمسعى أخير لتقويم الوحدة، وارسائها على اسس صحيحة وتمكينها من الرسوخ والثبات امام امتحانات الواقع.
لكن صوت الاتهام والافتراء المغرض، كان في ذلك الوقت اعلى من صوت العقل والمسؤولية – رغم ان عناصر انحلال الوحدة السورية - المصرية كانت تتفاقم بسرعة امام انظار الجميع منذرة بانهيار التجربة، حيث كانوا يتابعون بقلق بروز واستفحال عناصر الافتراق والخلاف في داخلها، بدلا من تنامي عناصر الاندماج والتلاحم.
وكانت النتيجة هي انهيار هذه الوحدة بأسرع مما كان متوقعا. وقد اتخذ هذا الانهيار طابعا تامريا سافرا ساهمت فيه بنشاط فعال جميع القوى الرجعية والانفصالية.
وقد بدى وقتذاك، ان الكثير من القوى القومية التقدمية في مصر وسوريا قد استخلصت درسا من هذه التجربة. فقد ورد في مقدمة (الميثاق الوطني المصري) الصادر في عام 1964 مايلي:
" ان الوحدة لا يمكن ولا ينبغي ان تكون فرضا، فإن الاهداف العظيمة للأمم تتكافأ اساليبها شرفا مع غاياتها. ومن ثم فان القسر بأية وسيلة من الوسائل هو عمل مضاد للوحدة. انه ليس عملا غير اخلاقي فحسب وإنما هو خطر على الوحدة الوطنية داخل كل شعب من الشعوب العربية، ومن ثم فإنه خطر على وحدة الأمة العربية في تطورها الشامل. والوحدة العربية ليست صورة دستورية لا مناص من تطبيقها، ولكنها طريق طويل قد تتعدد عليه الاشكال والمراحل وصولا الى الهدف الاخير".
خلاصة القول، وبحسب الراحل عامر عبدالله، ان الشيوعيين يصوغون شعاراتهم، وهم خارج السلطة، او حتى من موقع المعارضة، كما لو كانوا في السلطة وبروح المسؤولية الكاملة تجاه الشعب. فهم لا يطرحون شعارا لا تتوفر فيه شروط وظروف تحقيقه وتطبيقه في الواقع. وهم يربطون قضية الوحدة، بشروط التحرر، والديمقراطية، والتقدم الاجتماعي – مع مراعاة التمايزات والظروف الموضوعية المتطونة تاريخيا بين البلدان العربية المختلفة. والشيوعيون هم اخر من يتاجر بالشعارات الفضفاضة، او يلجأ الى المزاودة العقيمة، او يقترح الحلول المبسطة لعملية بالغة التعقيد ومشروطة بظروف تطورها الموضوعي ونضوج عناصر تحقيقها- كقضية الوحدة العربية. وحقا ما يقال ويتكرر من ان الشيوعيين يربطون قضية الوحدة بشروط التحرر، والديمقراطية، والتقدم الاجتماعي – مع مراعاة التمايزات والظروف الموضوعية المتكونة تاريخيا بين البلدان العربية المختلفة.

فلاحون من ذاك الزمان ...

حملوا شعلة الحزب وكتبوا بدمائهم مجد الشيوعيين العراقيين

على شرف الذكرى اليوبيلية الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي، كتب عدد من الرفاق بـ (الثقافة الجديدة) ذكرياتهم عن رفاقٍ فلاحين وكوادر فلاحية، سبق لهم وان عملوا معهم فترات متفاوتة، وكانوا شهوداً على كفاحهم المجيد واستشهادهم وهم يقاتلون ببسالة أعداء شعبنا خلال سنوات مديدة من كفاح الحزب. وها أنا أعيد صياغة هذه المادة بعرض مقاطع ضافية منها (مع بعض الإضافات)، وهي التي احتواها العدد 152 من المجلة الصادر في آذار 1984.

د.صالح ياسر

منذ بداية تأسيسه، توجه الحزب الشيوعي العراقي، الى الفلاحين وكان دوره الكفاحي في انتفاضاتهم ضد جور الإقطاع والسلطات الرجعية عميلة الاستعمار معروفا لأبناء وبنات شعبنا منذ منتصف الثلاثينات من القرن العشرين. ففي انتفاضة الفلاحين في سوق الشيوخ في بداية الثلاثينات من القرن العشرين كان حزب الشيوعيين العراقيين هناك، يشارك الفلاحين كفاحهم ويربط بينهم وبين كفاح شعبنا الوطني والديمقراطي العام، فمن أولى البيانات التي أصدرها الحزب كان بياناً موجها للفلاحين وهم يقاومون ببسالة الرجعية والإقطاع. ولاحقا توالت نضالات الفلاحين وتنامي دور الحزب، الذي كان يقود وينظم في أرجاء الريف العراقي، من كردستان الى البصرة، انتفاضات الفلاحين، وينظم صنوف الكادحين منهم ويزجهم في ساحات الكفاح. فكان الحزب يقود انتفاضات الفلاحين في العمارة، والناصرية، والبصرة، والفرات، وده زئي، وكل مناطق كردستان، كما قاد الانتفاضة الفلاحية في الفرات عشية ثورة 14 تموز 1958 والإعداد لها. وكان لسنوات الكفاح العديدة ثمارها، فخلال أشهر بعد انتصار ثورة 14 تموز انضم (300) ألف فلاح الى اتحاد الجمعيات الفلاحية التي تأسست حينذاك.

وفي العيد اليوبيلي التسعيني نحمل مشاعل الشهداء، نسير على دروبهم المضيئة ونتذكر كل أولئك الذين وهبوا حياتهم دفاعا عن الحزب، حزب العمال والفلاحين وشغيلة اليد والفكر ومن يهمهم بناء عراق ديمقراطي فيدرالي موحد. إن الدماء التي أرخصوها هي خلاصة المحبة، والوعي، والإرادة الصادقة، والشجاعة وروح الاقتحام. لقد أراد أعداء الحزب أن يجتثّوا نبتة عصيّة ليس من عادتها التنكر للتربة العزيزة ولا للهواء المضمخ بالعراق ولا للشمس الخالدة.

ولكن هؤلاء اندحروا، فظل الحزب نخلة باسقة في سماء العراق، الجميل بأبنائه وبناته، وبشهدائه الذين أودعوا رفاقهم ورفيقاتهم كلمة السر، وتعاهدوا على أن " الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشانق" ، ومشوا إلى خلودهم عزّلاً إلاّ من إرادة النضال، من أجل " وطن حر وشعب سعيد" . وفي معارك الخبز والحرية والكرامة والاستقلال سار المئات من الفلاحين الأبطال على ذات الطريق وحملوا ذات الراية، واستشهدوا من أجل أن تظل مرفوعة. في العيد التسعيني نحمل مشاعل الشهداء، نطوف أرض النخيل، وحقول الذرة والحنطة، والاهوار، نخوض في لجّة الماضي والآتي، في قرانا التي تتطلع الى الفجر، ولم تعرف الكهرباء، استوطنتها الأمراض، وفتك فيها شيوخ الإقطاع، وسماسرة المدن، هناك في قرى منعزلة، لم يصلها سوى رصاص الشرطة، وحملات الحكومات التأديبية، حمل حزب الشيوعيين العراقيين رايته وطاف في قلوب الفلاحين الفقراء، علمهم أبجدية القراءة والنضال، ليقرءوا اضطهادهم العلني بنشرات سريّة تارة وعلنية تارة أخرى، بحسب طبيعة السلط المتعاقبة، وقادهم وسط رياح الظلام، يحملون مشاعل الحزب وكلماته، ويناضلون من اجل فجرهم، فجر إخوانهم العمال وكل البسطاء والكادحين والفقراء. في الطريق الطويل تركنا خلفنا منارات استشهدت وظلّت تضيء الدرب للآتين، للأطفال وهم ينمون ويصبحون شيوعيين خلسة، في غفلة من أعين الجلادين والعسس، وللشيوخ يشمخون بحزبهم وبشهدائهم، ولشباب يتقدمون الصفوف وينشدون " هذوله احنة، بعدنه احنة .... زلم خشنين ". في العيد نحمل راية الشهداء وبمشاعلهم نضيء قلوبنا، ودربنا. وفي العيد، أيضا، نوقد شعلة جنود الحزب، من الفلاحين، أولئك، الذين حملوا فقرهم وإيمانهم بعدالة قضيتهم، وبذروا في الأرياف، على تخوم الصحراء، بين بساتين النخيل، وفي الوديان، من زاخو حتى البصرة ومن خانقين حتى الأنبار، ألق حزبهم وكلماته وتعاليمه. واذ نستذكر في هذا المقال أسماء بعض من الفلاحين الشيوعيين الذي استشهدوا دفاعا عن حزبهم وشعبهم، كما نستذكر كوادر شيوعية باسلة عملت فترات طويلة بين الفلاحين، فإنما نوقد مشاعل كل الشهداء من الفلاحين البواسل الذين قدموا حياتهم في ميدان الكفاح المتصل طيلة تسعين عاما، من اجل تحقيق شعار الحزب: " وطن حر وشعب سعيد ".

كتبوا بدمائهم مجد الشيوعيين العراقيين

قسمة شيخ حسين العادلة !

الشيخ حسين الشيخ مهدي الساعدي، رجل دين قادم من أعماق الجماهير الفلاحية، من عشيرة السواعد، انغمر في الكفاح مع حزب الشيوعيين العراقيين. ولأنه كان رجل دين، فقد احتفظ بلقب " الشيخ "، وحافظ في الوقت نفسه على ابرز صفات الشيوعي، الإيمان العميق بمبادئه، الهدوء والرزانة، والابتسامة الطافحة، والقرب من الكادحين الذين

كان هو أحدهم، فعرف نصيب الكادحين حين اعتقل عام 1946. كان مثلا للثوري الذي يقرن العمل بالقول. اشتكى له الحمالون يوما، استغلال رئيسهم لهم إذ يأخذ حصة الأسد من أتعابهم اليومية. قال لهم: يأخذها منكم على أساس قسمة الحكومة ! إذا أردتم حقوقكم هناك قسمة أخرى. ما هي القسمة الأخرى؟ استفسر الحمالون. إنها قسمة شيخ حسين العادلة ! في ذلك اليوم تمرد الحمالون على رئيسهم واجبروه على الخضوع لقسمة " الشيخ " الشيوعي !. اعتقل الشيخ حسين عدّة مرات، آخرها اثر انتفاضة تشرين المجيدة، وكان آنذاك عضو محلية العمارة، حُكم عليه بالسجن 3 سنوات، وكان واحدا من السجناء الشيوعيين الذين شاهدوا مجزرة سجن بغداد عام 1953، وحين نُقل رفاقه الى سجن بعقوبة، شارك في الإضراب الشهير عن الطعام الذي أعلنه الشيوعيون آنذاك. إتُخذ قرار من اللجنة المركزية المسؤولة من السجن بعدم مشاركة " الشيخ " بالإضراب بسبب وضعه الصحي السيئ. قال الشهيد لرفاقه: أعيدوا النظر بالقرار، أنا مع رفاقي حتى الموت. وفعلا استشهد الرفيق مضربا عن الطعام في أوائل آب 1953 عن عمر بلغ 41 عاما.

صويحب من يموت المنجل يداعي !

صاحب ملاّ خصاف، قادم من أعماق الجنوب، من العمارة، في ريف الكحلاء منطقة البو محمد، دخل السجن شيوعيا قبل ثورة 14 تموز 1958. انصرف بعد الثورة بكل حيوية الشيوعيين للعمل بين إخوانه الفلاحين في تكوين جمعياتهم. وكان شوكة في عيون الإقطاعيين والقوى المناهضة للثورة التي كانت تتحرك في الداخل، ومن الخارج وخصوصا في إيران الشاه وتركيا وغيرهما، تحشد قواتها لسحق الثورة الوليدة. كان الشهيد صاحب يطوف ريف العمارة يجمع آلاف التواقيع ضد تحركات هذه القوى، وأثناء هذه الحملة ترصد له قاتل مجرم وفتح عليه النار فاختلطت دماؤه وحبر تواقيع الفلاحين وفرّ المجرم الى أسياده في إيران الشاه آنذاك.

حملت جماهير العمارة الشهيد على الأكتاف، وكتب الشاعر الكبير مظفر النواب قصيدة الشهيرة :

ميّلن لا تنكَطن كحل فوكَ الدم
ميّلن وردة الخزامة تنكَط سم
جرح صويحب بعطابة ما يلتم
لا ... لا تفرح بدمنه لا يلكَطاعي ....
صويحب من يموت المنجل يداعي

تركي الحاج صلال .. ثوري انسلخ عن طبقته واختار الشيوعية وما ندم !

الشهيد تركي الحاج صلاّل ينحدر من ريف قضاء النعمانية/محافظة واسط ، ومنذ فترة مبكرة قبل ثورة 14 تموز كان الشهيد على صلة بحزبنا بعد أن " انسلخ " عن طبقته واختار الشيوعية. في انتفاضة الحي الباسلة في عام 1956 كان له دور مرموق في مساعدة الفلاحين المعتقلين. وبعد ثورة تموز وقبل صدور قانون تأسيس الجمعيات الفلاحية كان الشهيد تركي قد أسس أول جمعية فلاحية في ريف النعمانية رغم انه من

عائلة إقطاعية معروفة (وكان أبوه من المساهمين في ثورة العشرين). وقام الشهيد بدوره في تحريض الفلاحين ضد الإقطاع بعد صدور قانون الإصلاح الزراعي وطريقة تطبيقه. وقد أثار نشاط الشهيد تركي حقد القوى المتضررة من الثورة وأخذت تدبر المحاولات لاغتياله، حتى نجحت في رشوة أحد العملاء بمبالغ من المال قام باغتياله وهو نائم في إحدى القرى، حيث كان يقوم بمهمة كُلف بها من قبل الحزب. كان الرفيق محبوبا من الفلاحين، عرف بشجاعته وبسالته في الكفاح ضد أعداء الفلاحين وأعداء شعبنا. وحين علم سكان المدينة باغتياله، خرج الآلاف من الفلاحين وشيعوا الشهيد رمزيا وهم يهتفون ضد القتلة.

جواد عطية: الشيوعي لا يصعب عليه شيء !

الشهيد جواد عطية من الكوادر الشيوعية التي عملت في الريف. في حزيران 1969 وصل الى مدينة
(الحي) محافظة واسط ليتسلم مهمته الحزبية الجديدة. كانت أولى الأسئلة التي وجهت إليه من رفاقه: هل سبق لك أن عملت بين الفلاحين؟ أجاب: عملت لفترة قليلة في تنظيمات ريف الديوانية. وهل تستطيع ركوب الفرس؟ أجاب: سوف أتعلم. وهل تجيد استخدام السلاح؟ قال: الشيوعي لا يصعب عليه شيء !.
كان الشهيد شابا يتقد حماسا ولهفة للعمل الحزبي. حين استلم مسؤولية منظمة حزبية في إحدى القرى، سأل الفلاحون ما الذي جاء هذا الرجل من اجله؟ حين ابلغوا بأنه مسؤول منظمة الحزب الجديد، قارنوا بين رفاق سابقين وبين الرفيق الجديد ولاحظوا أن الرفيق الجديد ضعيف جداً، بحيث يصعب تصديق انه سيكون مسؤولا عن فلاحين ضخام الأجسام ! لكنه حين تحدث لهم في أول اجتماع عن سياسة الحزب بأسلوب شيق تهامس الفلاحون فيما بينهم استحساناً وقال أحدهم: صغارهم وكبارهم سواسية، أليسوا شيوعيين ؟!.
نال الشهيد جواد إعجاب الفلاحين بحماسته وسرعة إدراكه لأوضاعهم واستجابته الدقيقة لما يحيط به. ونتيجة لنشاطه وتفانيه أصبح عضواً في لجنة قضاء الحي ثم مسؤول منظمة الكوت ورشح لمحلية واسط، وخلال فترة قصيرة تعلم أساليب العمل بين الفلاحين، كما تعلم ركوب الخيل، واستخدام السلاح بدقة!.
كان الرفيق متزوجا وزوجته تعيش في المدينة فكان يزور عائلته مرّة كل شهر. وفي 24 آيار 1971 ذهب لزيارة عائلته، التي لم يصل إليها أبدا إذ وشى به أحد عملاء السلطة فتم اختطافه من طرف أجهزة الأمن حيث اعتقل في مدينة الكوت، وتعرض الى تعذيب بربري استشهد على أثره. وقد اعترف البعث العفلقي باستشهاده تحت التعذيب وحاول رشوة عائلته بمبلغ من المال لكن عائلة الشهيد رفضت ذلك بإباء. وما زال رفاق الشهيد جواد عطية يتذكرون شيوعيا باسلا استشهد وهو يدافع عن حزبه وشعبه ومُثُله الثورية.

كاظم الجاسم.. قائد فلاحي كبير ما زالت ذكراه تجوب قرى الفرات الأوسط !

وُلد الشهيد كاظم الجاسم في قرية ”

البوشناوة "، وكان فلاحا فقيرا تلقى أولى دروس الشيوعية وتعاليمها في قريته التي زارها الكثير من قادة حزبنا. في أواسط الأربعينات تعرف الشهيد الى المبادئ الشيوعية وبرز اسمه في بداية الخمسينات في وقت كان الصراع حادا بين الفقراء الفلاحين والإقطاع وأعوانهم. بدأ الشهيد يجوب قرى الفرات الأوسط لتهيئة انتفاضة فلاحية ضد جور الإقطاع وظلمه وفي تشكيل جمعيات فلاحية. واستطاع بنشاطه أن يكسب احترام وهيبة أسطوريتين في صفوف الفلاحين. وفي القرى التي يشقها الفرات المعطاء، كان الفلاحون يرددون في الأمسيات قصص أسطورية عن بطولة الشهيد وبسالته في الكفاح ضد أعداء الفلاحين وشعبنا.

بعد انتكاس ثورة الرابع عشر من تموز 1958 اختفى الشهيد في الريف، وبرز من جديد كمحرض وقائد للكفاح الفلاحي، وبعد انقلاب 8 شباط الفاشي عام 1963 كان الشهيد ورفاقه يعملون بدأب على توفير البيوت الحزبية، واعادة التنظيمات الحزبية، وتدفق السلاح على الشيوعيين وأصدقائهم من الفلاحين، وكانت هجمات الفاشست على القرى تجابه بالنار. غادر الوطن خلال الفترة 1968 – 1969 الى موسكو للدراسة الحزبية، وحين عاد اعتُقل من قبل أجهزة الأمن البعثية وأرسل الى قصر النهاية الأسود أيام المجرم (ناظم كزار) واستشهد تحت التعذيب الوحشي بعد صمود بطولي بوجه جلاديه. لقد أراد جلادو شعبنا بقتلهم الرفيق كاظم الجاسم زرع الخوف والألم والضعف في نفوس الفلاحين الذين عرفوه وقادهم. لكن اسم الشهيد تحول الى أسطورة – حتى بعد استشهاده – تجوب طرقات قرى الفرات الأوسط وتشعل الغضب الثوري في قلوب الفلاحين.

مزهر هول رحل شهيدا ودفنت معه أعز الأسرار

يتذكر رفاق الشهيد مزهر هول (أبو كريم) التاريخ المجيد لهذا الرفيق في صفوف الفلاحين. في عام 1964 انتدبه الحزب للعمل في أرياف الحي. وقد عمل بدأب ونشاط في صفوف المنظمة الحزبية التي استلم مسؤوليتها، وكان محط احترام ومحبة الفلاحين لشجاعته وتفانيه وتفهمه لمشاكلهم. وتحت قيادته وبنشاط الشيوعيين، لم يجر تضميد جراح الحزب الناتجة عن جرائم انقلابيي شباط الأسود في عام 1963 وحسب، بل انتشرت خلايا الحزب في كل القرى والقصبات. وبسبب نشاطه المثابر وإنجازاته الحزبية في الريف اصبح الرفيق (أبو كريم) عضوا في لجنة التوجيه الفلاحي التابعة للمنطقة الجنوبية، وقاد منظمة سوق الشيوخ الحزبية، ثم اصبح عضوا في مكتب محلية محافظة ذي قار، وفيما بعد اصبح سكرتيرا للمحلية ذاتها. في عام 1976 اختطفه رجال الأمن العفالقة من أحد شوارع الناصرية، لكنه نجح في إفشال محاولتهم إخفاء عملية الاختطاف، إذ نادى بأعلى صوته، أنا مزهر هول (أبو كريم) اختطفني الأمن، اخبروا الحزب الشيوعي العراقي بذلك.

وقد تعرض الشهيد الى تعذيب شديد في مديرية أمن الناصرية، ومديرية

أمن بغداد، وخرج من المعتقل مرفوع الرأس، يشمخ متحديا الجلادين. وبعد أن تحولت عمليات الاختطاف، والاعتقال، الى ممارسات يومية شاملة عام 1978، اختفى الرفيق مزهر، ليساهم بشجاعته وتفانيه وروحه الوثابة في تضميد الكثير من جراح الحزب.

في عام 1979 نجحت عصابات البعث العفلقي اعتقاله مجددا، وجرى نقله الى مديرية أمن بغداد، حيث تعرض لتعذيب بشع لا مثيل له واستشهد تحت التعذيب في أوائل آب 1979. لقد رحل الشهيد ودفنت معه أعز الأسرار التي كان يحملها في قلبه، استشهد تحت التعذيب ولم يفه بحرف واحد أمام الجلادين، الذين ذهبوا لاحقا هم ونظامهم ورئيسهم الى مزبلة التاريخ فيما عاد الحزب مرفوع الهامة.

عبد الرحمن صالح يغيض الأعداء فيقتلونه حرقا !

الشهيد عبد الرحمن صالح فلاح حقيقي عرفت كفاه الأرض المعطاء وفكرة المنشور الحزبي. من مؤسسي الحركة الفلاحية في محافظة السليمانية، واحد قادة الحركة الفلاحية في كردستان، سُجنَ اكثر من مرة في العهد الملكي وعذب بوحشية. عرف الشهيد بتواضعه وحبه للتعليم وطيبته المتناهية كما يذكره رفاقه الذين عمل وسجن معهم، كما انه مناضل شهم وجريء حظي باحترام وحب الناس في محافظته وأماكن نشاطه الحزبي مما عرضه لحقد الاقطاع واسياده فاعتُقل وعُذب وشرد عدّة مرات.

لعب الشهيد عبد الرحمن صالح دورا كبيرا في تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي بعد قيام ثورة 14 تموز 1958، وساهم في نشر الوعي الثوري بين الفلاحين مما ألّب عليه زمر الإقطاعيين والحاقدين على الثورة الوليدة حتى ارتكبوا جريمتهم النكراء بحق هذا المناضل الشجاع بعد أن صبّوا عليه صفيحتي نفط وأشعلوا فيه النار، وهو العريس الذي لم يمضي على زواجه سوى يومين فقط.

(أبو محيسن)... قائد سقط شهيداً وهو يقاتل وسلاحه بيده

يتذكر رفاق الشهيد صالح الحاج أحمد العبيدي (أبو محيسن) في عام 1961، حيث دخل الى زنزانة في سجن الموصل، في أحد أيام تموز – شاب طويل القامة – يرتدي ثوباً أبيض لطخته الدماء ببقع كبيرة، استقبله الرفاق بحرارة. ودون أن يلتقط أنفاسه قال لهم: أنا اعمل في معمل السكر في الموصل وقد اعتقلني الأمن لاتهامي بالشيوعية وقد تعرضت الى التعذيب الشديد على يد معاون الأمن (عز الدين لافي). حكم على الرفيق بالسجن ثلاثة أعوام ونقل الى سجن الكوت، وكان مسؤول المنظمة الحزبية في السجن آنذاك الرفيق الشهيد محمد الخضري. وفي يوم 8 شباط الأسود قام السجناء الشيوعيون بقيادة الشهيدين الخضري والعبيدي بكسر أبواب السجن وحرروا السجناء كافة، وكانت منظمة الكوت قد هيئت مستلزمات إخفاء الرفاق، وأرسلت عددا منهم الى كردستان وجرى توزيع البعض على الأرياف، ولم يكن الشهيد

صالح بين الرفاق الذي جرى توزيعهم. بعد انقلاب 18 تشرين/1963 الذي أنهى سلطة الفاشست، جاء أحد الفلاحين وأخبر المنظمة الحزبية بوجود رفيق يعيش مع البدو الرحّل. أرسلت المنظمة الفلاح ومعه بيان للحزب، قيل للفلاح أن الشخص إذا كان شيوعيا فسوف يرافقك. عاد الفلاح ومعه رسالة من الرفيق أثارت دهشة المنظمة، إذ اكتشفوا بعد مدة طويلة مكان اختفاء الشهيد. وكان خلال هذه الفترة قد عقد صلات متينة مع البدو الرحّل، وأصبح وكأنه واحد منهم، وهناك استطاع أيضا أن يبني ركائز للحزب ! وحين قرر الحزب ضرورة عودة الرفيق (أبو محيسن) من بين البدو، كان هؤلاء قد تعلقوا به بحيث وجدوا أن الاحتجاج من اجل بقائه معهم هو أنجع سبيل ! وبجهود ليست هينة جرى إقناعهم بأن الرفيق سوف يزورهم كل شهر مرّة واحدة على الأقل، وافقوا على رحيله، وقال الرجل الذي كان الرفيق يسكن في بيته (إن هذا أخي، خذوه، ولكن إذا صار عليه أي شيء أنتم المسؤولون).

عمل الرفيق في عدّة منظمات في ريف الحي وقلعة سكر وفي ريف العمارة وكان مثالا للمنظم الجيد ومحبوبا من رفاقه والجماهير ويمتاز بنكران الذات، ولكل صفاته الشيوعية، أصبح عضواً في محلية واسط ثم سكرتيرها فيما بعد. في أيلول 1971 كان الرفيق صالح مع عدد من الرفاق في إحدى القرى التابعة لناحية قلعة سكر التابعة لمحافظة ذي قار. طوقتهم أعداد كبيرة من الشرطة جاءت من الكوت والناصرية، قاوم الرفاق الشرطة بالرصاص فسقط الشهيد صالح والى جانبه ارتفعت مشاعل الشهداء (صاحب علي) سكرتير محلية الناصرية والرفاق الفلاحين ماهر ومناور ومشاور وهم ثلاثة اخوة كانوا رفاقنا في نفس القرية كما استشهد الرفيقان خيري جاهل ونجم حسني نويصر وهما فلاحان شابان أيضا، وتمكن الرفاق من قتل عدد من أفراد الشرطة. هذا وقام الفاشست بسحل جثة الرفيق صالح الى حدود قلعة سكر، وقد أثار هذا العمل الوحشي والجبان غضبا عارما في صدور الجماهير الشعبية.

مقالات

إطلالة على النصوص الجدلية في التراث المسيحي العربي*

د. ريتا فرج
باحثة ومحاضرة لبنانية في علم الاجتماع ودراسات المرأة

ميشال الحايك ودراسات الإسلام

1.عمار البصري الرد اللاهوتي في التراث المسيحي العربي

حقّق ميشال الحايك "كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة" لعمّار البصري، صاحب العقيدة النسطورية المسيحية. يمكن تصنيف الكتاب في خانة السجالات المسيحية – الإسلامية، وهو يُعد من المصادر التراثية المهمة في سياق الرد اللاهوتي المسيحي العربي على الإسلام في العقائد المسيحية؛ فـ"كتاب البرهان" جواب على نقائض الإسلام للمسيحية، أما "كتاب المسائل والأجوبة" فمعجمُ للاعتراضات التي يثيرها العقل بوجه الإيمان. النصان من أهم النصوص الجدلية في التراث المسيحي العربي، المزدهرة في ظل المناخ الفكري المنفتح للمعتزلة؛ الفرقة الكلامية الناشئة في بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن ميلادي، والتي ظهرت في البصرة نفسها التي ينتسب إليها عمّار البصري، وكان لها معارك كلامية مع المذاهب الأخرى التي تتراوح بين "التشبيه والتعطيل".

تضمن "كتاب البرهان" قضايا لاهوتية مهمة: "في إثبات وجود الله"، "الدلائل على الدين الحق"، "أسباب قبول النصرانية"، "دفع شبهة التحريف"، "الكلام في التثليث"، "القول في الاتحاد"، "إثبات التجسد" "القول في الصلب"، "القول في المعمودية"، "القول في القربان"، "الكلام على الصلب"، و"الكلام في الأكل والشرف والآخرة". أما "كتاب المسائل والأجوبة" ففيه: "المقالة الأولى: في تثبيت قدم الخالق ووحدانيته وإثبات حدوث العالم، وفيه ثمانٍ وعشرون مسألة"، "الفن [أي الفصل] الثاني: في تثبيت الإنجيل المقدس، وهو أربع عشرة مسألة"، "الفن الثالث: في تثبيت وحدانية الخالق بثلثة [أي ثلاثة] أقانيم، وهو تسع مسائل" و"المقالة الرابعة: في سبب تجسد الكلمة وما

يتبعه، "في الاتحاد والموت والبعث، وهو إحدى وخمسون مسألة" [1].

يشير الحايك إلى أن "عمّار البصري [2] اسم مجهول المسمى [3]، ولا يُعرف عنه "إلاّ ما سلم له من هذين الأثرين: "كتاب البرهان" و"كتاب المسائل والأجوبة"، في مخطوطة يتيمة محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم (801) من المخطوطات العربية" [4].

يوضح الحايك أن الكتابين "هما من جملة الآثار المسيحية التي سلمت من التلف على يد الأقباط. فالناسخ قبطي خطّهما عام 1298 في الجودرية، وهي حي من أحياء القاهرة. وأبو البركات القبطي حفظ لنا، في سلسلته للكتبة النصارى بالعربية، عنوان الكتابين، فعرفنا أن المؤلّف الأول لا يُدعى "كتاب الأمانة" على ما ورد في المخطوطة البريطانية اعتباطاً، بل "كتاب البرهان على سياقة التدبير الإلهي"، وأن "كتاب المسائل والأجوبة" يُقسم إلى أربعة مقالات من مئة ومسألتين، تتضمن الأولى (28) مسألة، والثانية (14)، والثالثة (9)، والرابعة (51). وأبناء العسال الأقباط أدركوا قيمة "عمّار البصري، فأبو إسحق بن العسال ذكره في "مجموع أصول الدين" مغدقاً عليه نعوت التعظيم؛ والأسعد أبو الفرج ابن العسال ذكره في مقالته عن النفس التي كتبها سنة 1231 (...) ما من أحد أفادنا جديداً عن شخصية عمّار البصري، ولا عن ظروف مكانه وزمانه وحياته وآثاره الأخرى" [5].

يتساءل الحايك عن اسم صاحب المخطوطة "أتراه حقيقياً أم مستعاراً للتضليل لئلا يُعرَف صاحبه؟ ولكن ما الغاية من التخفي؟ يرى أنه لو سلمنا افتراضاً أن عمّاراً اسمه الحقيقي فـ"البصري نسبة إلى البصرة وهي مدينة شهيرة بموقعها على الفرات الساحلي [في العراق] (...) أسسها عتبة بن غزوان على أنقاض (الخريبة) الفارسية، على مقربة من وهنام أردشير التي كان النساطرة يسمونها فرات ميشان، وهي مركز أسقفي مشهور عندهم منذ أوائل القرن الثالث" [6].

يشير الحايك إلى أن اسم "البصرة" يرِد عند النساطرة ـ الذين ينتمي إليهم عمّار ـ "في القوانين التي سنّها البطريرك تيموثاوس الشهير عام 790 حيث يفرض أن يكون أسقف البصرة من يجب أن يُنقَل إليه النعي، إثر وفاة كل بطريرك (...) والبطريرك تيموثاوس (780-723)، من كانت له مع الخلفية [أبو عبد الله محمد] المهدي (785-775) مجالس دينية شهيرة؛ هو الذي أرسل إلى الجماعة المسيحية في البصرة رسائل ضافية ترشدهم في القضايا اللاهوتية، التي يمكن أن تعرض لهم في مناظراتهم الدينية مع المسلمين؛ وفي هذه المسائل بعض ما نجده في مؤلفات عمّار البصري" [7].

على الرغم من الظروف التاريخية الغامضة المحيطة بالبصري، أثبت الحايك "أن الرجل متمرس بعلم اللاهوت، محنك بالمنطق الإغريقي، عارف بأدق دقائق قضايا الدين. وقد يكون في كلامه عن أن الله لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، "وأن الواحد منا ليرفّع نفسه عن ذلك"؛ إشارة إلى أنه من "جماعة المتبتلين" (...) أما مكانه: البصرة. أما الزمان؟ نفترض أن عمّاراً عاش في زمن [الخليفة] المأمون (833-813) الذي اعتنق مذهب الاعتزال "قائلاً بخلق القرآن"؛ أي في القرن التاسع الميلادي، وليس في "الجيل الحادي عشر والثالث عشر كما أدرجه المستشرق الألماني جورج غراف Georg Graf في موسوعته "تاريخ الأدب العربي المسيحي" [8].

"لقد تثبّت -للحايك- إذاً أن عمّاراً البصري عاش في زمن المأمون والمعتصم، وأنه معاصر لأسقفين شهيرين: أبي قرة الملكي (ت بعد 825) وأسقف حرّان، وأبي رائحة اليعقوبي أسقف تكريت، وكلا الأسقفين ناظرا المسلمين في الشؤون الدينية وتركا لنا أولى الآثار المسيحية العربية في هذا المجال. هؤلاء المفكرون الثلاثة الذين يمثلون الفرق المسيحية الكبرى ويعرفون التراث المسيحي بلغة السريان واليونان، أطلقوا -دون شك- بالعربية قضايا الفلسفة واللاهوت الكبرى التي سيعالجها من بعد أهل الحكمة وأهل الكلام في الإسلام، على أساس عقلاني بعد أن طاعت لهم المصطلحات المنطقية المنقولة عن السريانية واليونانية" [9].

يخلص الحايك إلى أن كل "كتب الردّ على النصارى"[10] التي وضعها العلماء والفقهاء المسلمون، أتت بعد عمّار البصري أو عاصرته وكتبوا ردوداً على النصرانية تتراوح مقالاتها بين السخرية اللاذعة والتعمق التدريجي في الجدل المنطقي. "والرد يفترض الاطلاع والاضطلاع. وهكذا فإن تلك المحاورات والنقائض والمجادلات، مع ما فيها من حجج وأدلة، طوعت اللغة العربية للمصطلحات الفلسفية واللاهوتية وفتحت للتراث الديني المحصور بعد على القرآن والحديث، نوافذ جديدة ومعضلات ومسائل ومشاكل، سوف تتضارب حولها الفِرق، ويبني فوقها الفكر الإسلامي كلامه وحكمته وتصوفه" [11].

يعتبر البصري "أول من كتب بالعربية مجموعة جدلية بهذه الضخامة، وهو إذاً صاحب أثر بعيد في تنمية الفكر الفلسفي – كما يفترض الحايك - وتوعية الوحي الديني على متطلبات العقل" [12]. لقد جادل المسلمين في اعتراضاتهم حول العقائد المسيحية لا سيما في مسائل التثليث، وأدخل إلى اللغة العربية مصطلحات وألفاظاً جديدة، متأثراً بالعقل اليوناني ومقولاته في الجدل وقضايا الفلسفة ومعطيات اللاهوت، التي عولجت من قبل باليونانية والسريانية.

يكشف دور عمّار البصري في تاريخ الردّ اللاهوتي المسيحي العربي على الإسلام، عن مسألتين: الأولى: الأهمية التاريخية والعقائدية التي اكتسبتها مثل تلك المجادلات والأدبيات، وما تطور عنها لاحقاً من مصادر مسيحية – إسلامية في هذا الجنس الأدبي؛ والثانية: تمسك العلماء والفقهاء المسلمين بالرؤية القرآنية والإسلامية للمسيح في مجادلاتهم مع "النصارى"، حول التثليث وعقيدة التجسد والصلب والفداء، وهم كانوا يعرفون منذ انطلاق المجادلات في القرن التاسع الميلادي أهم المذاهب المسيحية: النسطورية واليعقوبية والملكانية (الأرثوذكسية).

2.المسيح في القرآن والمصادر التراثية الإسلامية

من أجل فهم أعمق للإطار العقائدي الموجه من الإسلام إلى المسيحية في القرآن والمصادر التراثية، من المهم الإضاءة على المحيط التاريخي الديني السابق للدعوة المحمدية التي ظهرت في بداية القرن السابع الميلادي في شبه الجزيرة العربية. عرفت المنطقة وجوداً لليهودية والمسيحية (النصرانية) إلى جانب الوثنية الطاغية، قبل فجر الإسلام، واستمرت بعد "نزول الوحي" سنة 610 إلى أن تقلصت في حدود القرن العاشر الميلادي، إثر الهجرات المتتالية لليهود والمسيحيين

من المنطقة. تؤكد مصادر المؤرخين "على أقدمية الحضور المسيحي باليمن (...) بدأت أولى عمليات التبشير في القرن الرابع، حيث دخلت المسيحية الآريوسية إلى بلاد اليمن (...) ويعتمد هذا الرأي على الرواية اليونانية المتعلقة بالأسقف الآريوسي تاوفيل -Thèo phile.

وتقول هذه الرواية: إن الإمبراطور قسطنسيون Constance (337-361 م)المتشيع للآريوسية أرسل قبل سنة 356م وفداً من الرومان إلى بني حمير، وكان يترأس هذا الوفد تاوفيل، وخلال وجوده بالمنطقة بشر بالدين المسيحي على الرغم من معارضة الطوائف اليهودية" [13]. "أما في وسط الجزيرة العربية (نجد واليمامة) فكان للمسيحية حضور فيها قبل الإسلام، وذلك استناداً إلى شهادة أحد أشهر المختصين في التاريخ الكنسي وهو لويس دوشاسن Louis Duchesne. وقد أكد هذا البحث دخول المسيحية إلى نجد في زمن لا يمكن أن يكون قبل القرن السادس (...) ومما يؤكد رأي دوشاسن الأبنية التي بناها النصارى في الفضاء العربي، كدير سعد، بين بلاد غطفان والشام، ودير عمرو، في جبال طيء. لقد تأثرت العديد من القبائل بالمسيحية (...) وكان عديّ سيد طيء من جملة الداخلين فيها ويُذكر أنه كان ركوسياً. وقد ذكر أهل الأخبار أن الركوسية هي بين النصرانية والصابئة"[14].

ومن بين القبائل التي دخلت المسيحية قبيلة كندة التي اعتنقت النسطورية وربما بشرت بها.

تشير الأكاديمية والباحثة التونسية سلوى بلحاج صالح إلى ملاحظتين: الأولى: "أن المسيحيين العرب في شبه الجزيرة العربية انقسموا إلى طوائف متعددة في عداء مستمر لبعضها البعض، وهذه الطوائف هي: الآريوسية والنسطورية واليعقوبية واليولیانية والملكانية، وعقائد أخرى تجمع بين الصابئة والنصرانية مثل الركوسيّة. والثانية: أن المسيحية العربية تضعف في درجة تنظيمها، كلما اتجهنا من الأطراف الجنوبية والشرقية، نحو وسط بلاد العرب. ولئن سجلنا حضور إكليروس خاص بالعرب في كل من اليمن وعُمان والبحرين، فإننا نلاحظ غيابه بين مسيحيي نجد واليمامة" [15] (البيئة الجغرافية الأقرب لظهور الإسلام).

يبدو أن الإسلام تأثر تأثراً شديداً بالآريوسية من الناحية العقائدية، وقد أدركها العرب وكانت أقرب إلى تفكيرهم الفطري. ولد آريوس عام 256 م وكان يقول: "إن الله واحد غير مولود وإن لا أحد يشاركه في ذاته" (...) وقد أنكر الجوهر الإلهي في المسيح ونادى بضرورة النظر إليه كإنسان[16]. إن الإسلام في موقفه العقائدي والديني من المسيحية يميل "بقوته التوحيدية الهائلة" إلى الخصام مع كل العقائد الدينية التي يرى أنها تصادم "التوحيد الصارم"؛ لذا لم يتقبل الصورة التي قدمتها المسيحية الرسمية المنبثقة عن مجمع نيقية عام 325.

في "المسيح في الإسلام"، يدرس الحايك الرؤية القرآنية والمصدرية التراثية الإسلامية لحياة السيد المسيح والعقيدة المسيحية، بدءاً من "بشارة زكريا بيحيى المعمدان" حتى "نزول المسيح في آخر الزمان". استهل فصول الكتاب بـ"المسيح في القرآن" الذي ورد اسمه في خمس عشرة سورة، في ثلاث وتسعين آية [17]. استند على أهم المصادر التي تحدثت عن "عيسى ابن مريم" وتفادى في

مقدمة الكتاب أي صدام عقائدي، فتعامل مع أطروحته بوصفه عالِم إسلاميات، وعقب في هوامش الفصول على مسائل دينية عدة تثيرها الاختلافات العقائدية بين المسيحية والإسلام، لا سيما حول طبيعة المسيح والتثليث.

لا يخفى في الكتاب تأثر الحايك بمدرسة ماسينيون ونزعتها الهادئة والمقبلة على الدين الإسلامي الإبراهيمي؛ فالجوهر هو الأعمق وهو القائم على الأصول العقائدية المشتركة بين الديانتين [18]، علماً أنه في تعقيبات عدة لا ينجح في التجرد من مسيحيته. لا يتوانى الحايك عن نقد النزعة المسيحية التقليدية تجاه الإسلام وبالعكس، يقول في هذا السياق: "منذ يوحنا الدمشقي المتوفى في منتصف الجيل الثامن إلى يومنا الحاضر، تتوالى كتابات المسيحيين عن المسيحية والإسلام. فكان في الشرق والغرب خاصة، أمس واليوم، رجال اهتموا بالأمر فاختلفت آثارهم على اختلاف أطوارهم (...) فانقسموا قسمين: واحد يدافع عن الإسلام دفاعاً مغرضاً (...) أما القسم الأكبر فقد سقطوا في النقيض الثاني حين وصفوا الإسلام بأنه بدعة احتوت على الشرور بأسرها، قام بها راهب زنديق؛ ورسموا للنبي صورة مجحفة فأصبح أسطورة تناقلتها في الأجيال الوسطى، ألسنة العامة وكتابات الخاصة. ولم يختلف المسلمون عن المسيحيين في هذا المضمار، فصوروا عن النصارى أشنع صورة، ولم يحجم رجل عرف بتدينه وهدوء أعصابه مثل الغزالي، عن إعلانها [أي المسيحية] شريعة هذيان وسخافة. وما أدراك ما قاله الجاحظ وابن حزم وابن تيمية وغيرهم من سنة وشيعة وحنابلة ومعتزلة وظاهريين" [19].

منهجياً، اعتمد الحايك في مصادره على القرآن وكتب الحديث وما وضعه المؤرخون والمفسرون والصوفيون من كتابات. شدد على ضرورة التحرر من الرؤية الشعبية التاريخية الهرطوقية التي نظر فيها بعض المسيحيين إلى الإسلام. إن "هذه النصوص شاء جامعها أن يضعها في متناول المسيحيين ليعلموا أن الإسلام غير ما تنشره الجرائد في مواسم معينة تعليلاً لقارئيها بين الديانتين اتفاقاً ووحدة تامة. ولست أدري هل خطر ببال أحدهم أن عند علماء المسلمين مثل هذه الآثار المدهشة في بعض الأحيان. لقد آن الأوان أن يعرفوا -على الأقل- أن الإسلام لم يخطر له يوماً ببال، حتى في أقسى ساعاته على المسيحية، أن يجدف على قدسية المسيح، روح الله وكلمته، وأن يقذف مريم بمثل ما قذفها به بعض اليهود في تاريخهم (...) ولا بد من الإشارة إلى حقيقة تيقنتُ إليها في تجوالي بين الصفحات الضخام التي كتبها المؤلفون المسلمون، في الكلام أو التفسير أو التاريخ أو التصوف؛ ألا وهي أن الإسلام لم يطرح يوماً واحداً على نفسه، مشكلة العقيدة المسيحية الصرف. لقد جازها قبل أن تَعرّض لها، وحلّها قبل أن تُشكِّل عليه. فبقيت آية القرآن على شرطها فلم يعط عنها جواباً علمياً {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [سورة الزخرف، الآية 81] إذ إن هناك توالداً عقليًا هو غير التناسل، فالكلمة هي وليدة الفكر الأزلي؛ كذا المسيح ابن الله" [20].

إنّ تأثر الحايك بأفكار ماسينيون يبدو أكثر وضوحاً في الرؤية الصوفية الإسلامية للسيد المسيح؛ فحين يعرض لموقف محيي الدين بن عربي (1165 - 1240)، يصفه بأنه "صاحب النزعة الغنوصية": "إن سر معجزات عيسى يعود إلى معرفته بعلم الحروف، وعلى

الأخص بعلم كلمة (كُنْ) الإلهية الخلاّقة التي أوجدت كل شيء وأوجدت عيسى نفسه، وعيسى هو كلمة الله دون سواه"[21].

لقد افتتح ماسينيون في مقالاته: "سلمان باك والبدايات الروحانية للإسلام الفارسي" (1934)، "أصول ومعاني الغنوصية في الإسلام" (1937) و"الشعائر الغنوصية في الإسلام الشيعي" (1938)، البحث العملي حول "الغنوص الإسلامي"، وذلك بعد أن قيَّم النص الفارسي "أم الكتاب" المتداول في منطقة بامير هندوكوش

Hindu Kush Pamir بعد اكتشافه في الثلاثينيات من القرن المنصرم، وقد أشار إلى القيمة الرمزية للحروف الأبجدية، وتقسيم تاريخ العالم إلى دورات تطابق الحلول الجديدة"[22]؛ ويعد ماسينيون بالإضافة إلى المستشرق الفرنسي

هنري كوربان Henry Corbin (1903-1978) من أوائل المستشرقين القائلين بالنزعة الغنوصية عند بعض أعلام التصوف الإسلامي مثل الحلاج وابن عربي.

3. الأخوة الإسماعيلية.. الإسلام على هامش التاريخ الكتابي

حين طرح ماسينيون سؤاله الأساسي المتصل بعلاقة الإسلام بالوحي التوراتي: "هل إله الإسلام هو إله اليهود والمسيحيين؟" وأجاب عنه، لم يكن بعد ثمة إجابة من لاهوتيي المجمع الفاتيكاني الثاني. ينقسم السؤال بدوره إلى سؤال فرعي، يشكل أصل الخلافات: هل يشير الإسلام إلى إبراهيم أم إسماعيل؟ هل الإسلام "إبراهيمية أصيلة"[23]، كما يحّاج مبارك في أطروحته "إبراهيم في القرآن" Abraham dans le Coran [24] أم هو "إسماعيلية" كما يقول الحايك في كتابيه "سر إسماعيل" و"العرب أو معمودية الدموع"، مستقراً بذلك عند خط الاستشراق الكلاسيكي الذي رسمه سنوك هرخرونيه

Snouck Hurgronje وأرند جان فِنْسِنْك (Arent Jan Wensinck)، وقد جرى تلخيصها في مقال "إبراهيم" ضمن "موسوعة الإسلام" (Encyclopédie de l'Islam)؛ حيث ميَّز بين تصوريْن قرآنيين لإبراهيم في مكة والمدينة. ودون الدخول في جدلٍ، لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أنه بالنسبة للمسلمين، فالنسب التاريخي للعرب مع إبراهيم انطلاقاً من إسماعيل ليس موضع شك[25].

في المقدمة العامة لعمله "سر إسماعيل" ينطلق الحايك من تقديم الحجة اللاهوتية التي يسعى الإسلام من خلالها إلى تبرير دعوته وتفرده. في الواقع، نبي الإسلام "باعتباره من نسل إبراهيم، فهو أيضاً يطالب بنصيبه من الميراث الأبوي. وعلى الرغم من إدراكه لاستبعاده من القسمة (الحصة)، فمع ذلك هو الوريث المباشر، يطالب بحقه الشرعي الذي لا يمكن أن يلغيه التقادم [التاريخي]. وللسيطرة بشكل أفضل على الصراع اليهودي - المسيحي حول موضوع العهد الإبراهيمي، تموضع [محمد] قانونياً ولاهوتياً قبل اليهود والمسيحيين، وهو الذي أتى بعد موسى ويسوع (...) سيبحث عن إبراهيم غير المتمايز؛ ما قبل الكتاب المقدس، والذي لم يكن بعد يهودياً أو مسيحياً، ولكنه لم يكن مشركاً أيضاً، إنما "إبراهيم حنيفا (un Abraham hanîf)"[26].

في تحليله لرؤية الحايك يخلص مشير باسيل عون إلى أنه "إذا كان الإسلام مرتبطاً بإبراهيم، فليس ذلك فقط لأنه سلف الإيمان

الذي يُنظر إليه على أنه تخلٍّ عن الثقة بالله، ولكن أيضاً وقبل كل شيء لأنه والد إسماعيل والعرب. في يقين محمد الذي لا يتزعزع، فإن إبراهيم هو "أبو الإسلام، الذي بنى الكعبة". بهذه الطريقة، يتم التحقق من العلاقة الوثيقة التي أقامها الإسلام بين إبراهيم وإسماعيل ومحمد. هذا الأخير، يعيد فقط الوعد القديم لإسماعيل. نظرًا لأن تقلبات التاريخ البشري ولدت خدراً مذهلاً للوعي الديني اليهودي والمسيحي، فمن الضروري إحياء النقاء الأصلي للحدث التأسيسي، وإنقاذ الأحفاد الذين وعدهم إسماعيل. بعبارات أوضح، ينظر محمد إلى المجتمع الإسلامي الناشئ على أنه الوصي على الوعود الأصلية التي أعطيت لإسماعيل من خلال إبراهيم" [27]:

" الإسلام، ظاهرة دينية واجتماعية من أصل عربي، يحدّث إسماعيل الذي يستمر عرقه ويرثه. يقف متيقظًا، سيفًا في يده، على عتبة الكتاب المقدس، وهو يجمد التاريخ المقدس في هذه اللحظة القديمة، ويرفض موقتاً الدخول وراء "المختارين"، دون ضمانات كافية: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (سورة البقرة الآية 111)" [28].

يشدد الحايك على الطابع المنفصل للإسلام دون أن يدرجه في صلب "الأرومة الإبراهيمية" -كما يتضح في أعمال مبارك- فيقول: "أثار اكتشاف قرابة إسماعيل في سيكولوجية الرسول عملية تحرير وتنظيم عقائدي، سمحت للإسلام باكتشاف مساره النهائي ومكانته، كدين منفصل وأصلي وغير قابل للاختزال" [29]. من بين الأنبياء العظماء للبشرية، يمتلك إسماعيل بالفعل دعوة فريدة. إن من واجبه تعويض النواقص التي يعاني منها الكتاب المقدس. وبما أن طبيعة الإنسان تتجه نحو الله، والخطة الإلهية مفتوحة للبشرية جمعاء، فلا يمكن استبعاد أي إنسان من تحقيق طبيعته. أولئك الذين يدركون عالمية هذه الدعوة البشرية، سيجدون في إسماعيل شخصية الإصلاحي أو حتى المدافع الذي يعيد للمهمشين في التاريخ كرامتهم، ككائنات مدعوة للمشاركة في الوعود الإلهية بالسعادة[30]:

"يصبح إسماعيل ضمير كل أولئك الذين لم يتلقوا رسالة كتابية ولكنهم، من خلال التمسك بإيمانهم، يلتصقون بجزء من الكتاب المقدس ليخلصوا أنفسهم من خلاله" [31].

يلفت باسيل إلى أن الحايك يسعى "سعياً صادقاً في استجلاء موقع الإسلام من التدبير الإلهي، فيرى أن إسماعيل، ومن قبله إبراهيم، يقومان في مقام الصدارة من الفكر الديني الإسلامي، وأن صدارتهما تربط الإسلام باليهودية وبالمسيحية وترقَى به إلى ما هو أبعد من كلّ دين، إلى الحالة الفطريّة الأصليّة التي انعقد عليها كيانُ الإنسان منذ بدء الخليقة. وإذا كان الكثيرون من علماء المسيحيّة المتبحّرين في الإسلام تأمّلوا مليًّا في صورة إبراهيم القرآنيّة، ومنهم - على سبيل المثال - لويس ماسّينيون ويواكيم مبارك، فإن الأب ميشال الحايك انفرد في معاينة صورة إسماعيل وربطها بجوهر الإسلام ودعوته ومصيره بين الأمم والحضارات والأديان. ولقد بثّ تصوره في جلّ مؤلّفاته، ولا سيّما في التحفة اللاهوتية التي صاغها باللغة الفرنسية، "سرّ إسماعيل" [32]. في هذا البحث اللاهوتيّ المبتكر يتجلّى إسماعيل في صورة الابن الجسدي لإبراهيم والعبد الخادم والطفل المُبعَد من الوراثة[33]. ومن إسماعيل تنبثق الذرّية العربية التي منها ينشأ الإسلام دينًا لجميع المظلومين والمقهورين والمُبعَدين. فالعرب

هم أيضا بنو إبراهيم بفضل إسماعيل [34].
وحين يتأمل المؤمن اليهودي والمؤمن المسيحي في البركة التي نالها إسماعيل من بعد أن أقصاه إبراهيم مرغمًا عن أهل البيت، تحنّ أضلاعهما وتترأف مشاعرُهما بجميع الذين خرجوا من ضلع إسماعيل يحملون مواعيد البركة الإلهيّة. فالإسلام، بفضل إسماعيل، يغدو دعوةً شاملةً إلى تجاوز كل أنواع التمييز والاصطفاء والإقصاء. من أُقصي في أصل دعوته عاد لا يُقصي أحدًا في أفضال بركته. ولذلك يضطلع الإسلام بدعوة إنسانيّة رفيعة المقام حين يجذب إليه جميع الذين حُرِموا من المواعيد في منطق البشر، ولكنّهم لَم يُحرَموا البركة والخلاص لِما اختبروه في عمق وجدانهم من صفاء في الإيمان وثقة في الاستسلام وشدّة في المثابرة [35]. ومن ثم، فالإسلام ينقلب إدانةً لإسرائيل التي نشأت على الإقصاء، ويأتي إلى المسيحيّة تذكيرا لها بقيَمها الإنجيليّة السامية"[36].
وضع الحايك تقاطعات عدة بين اليهودية والمسيحية والإسلام في كتابه "العرب أو معمودية الدموع"، فقارن بين إسماعيل والسيد المسيح [37]. "هذا التقارب –كما تقترح مريم أبو ديوان- يمكن إقامته بين هاجر ومريم. هاجر أمة إبراهيم تنذر بمريم "أمة الإنجيل": "أمة الرب" [قَالَتْ مَرْيَمُ: [هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ]. مثل مريم، قدوم إسماعيل أُبلغ لهاجر على طريق شور، حين تألمت وهربت؛ مثل امرأة نهاية العالم، صورة أخرى لمريم؛ مثلها رفعت [هاجر] صوتها وبكت حين شعر ابنها بالعطش، بعدما نفد الماء الموجود في السقاء. من خلال هروبها في الصحراء، تنبئ بانعزال أول المضطهدين في الكنسية، يقول ماسينيون: إن دموعها الأولى التي جمعت في الكتاب المقدس والتي ذرفتها في شمال الجزيرة العربية [وفقاً للتقليد الإسلامي] تنذر بالجلجلة [المسيحية] [38].
يتحرّى الحايك ـ كما يخلص عون - "عن مأساة الترحال الإسماعيلي في صحراء النفي. ومن مجموعة التأملات التي أنشأها في هذا الاختبار المرير، يستنتج أن الإسلام وُلِد من دموع هاجر وبكاء إسماعيل في برية الإقصاء. فليس هو دين الاستعلاء والاستكبار، بل دين التواضع والانسحاق. وحين يعظ [الحايك] بالعربية في وسط بيروت لا يتورع عن البوح في مكنونات تفكره اللاهوتي: "تاريخ العرب أبناء هاجر وإسماعيل هو سيرة هجرة وغربة وبكاء. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن الإسلام يقترب اقتراباً عظيماً من المسيحية، لأن إسماعيل النائح صورةٌ للمسيح المعذب"[39].
إنّ الحايك، في محاولته إيجاد مكان للإسلام في المسيحية، اعتبر إسماعيل أباً للإسلام، ولم يدرج الدين الإسلامي في التاريخ التوراتي لإبراهيم، بل رأى فيه "ديناً عالمياً" (Universal Religion)، أو ديناً بدائياً Primitive Religion، على علاقة بشكل أساسي بالعهود العالمية مع آدم ونوح. وضع مبارك ـ خلافاً للحايك ـ الإسلام في العهد الإبراهيمي، فهو يشكل جزءاً منه، ناظراً إلى المسلمين بوصفهم شعب الله، الذي يؤمن بإله إبراهيم، والمرتبط بشعب الكتاب المقدس[40].
يتبنى الأب فادي ضو -إلى حد ما- أفكار الحايك ومبارك، ويميل لصالح أطروحة الأخير، مع الحفاظ على الطبيعة الوحيانية للقرآن والرسالة النبوية لمحمد. ومع ذلك، وليس خلافاً مع المؤلفين السابقين، يوضح

"أن المسيحي لا يمكن أن يبرر مكانة الإسلام في تاريخ الخلاص إلا في ضوء سر يسوع المسيح، المخلص العالمي، وإتمام الوحي الإلهي للإنسانية" [41].

إن الإسلام بالنسبة للأب الحايك كإسماعيل في صحراء نفي، ما عبرها بعد إلى أرض الميعاد المسيحانية. وعلى الرغم من قوله بالمرجعية الإبراهيمية للدين الإسلامي، فقد رأى أن شرعيته، شرعية مشتقة، أي تابعة وزائدة، وقد ربطه لاهوتياً بإسماعيل أكثر من ارتباطه بإبراهيم "فالإسلام يستقر بهذا المعنى على حافة التاريخ الكتابي ولا يدخل في التاريخ المقدس، فهو يمثل الدين الكوني والأصلي للتوحيد ويرتبط بآدم ونوح وليس إبراهيم" [42].

الخاتمة

تمكَّن ميشال الحايك في دراساته حول الإسلام من تجسير العلاقات المسيحية_الإسلامية في مجالها الإبراهيمي، واضعاً أبناء إسماعيل في صلب "التدبير الخلاصي". وعلى الرغم من أن أطروحاته، بوصفه لاهوتياً وعالِم إسلاميات في آن، أتاحت له قراءة مصادر الديانتين، ظل مخلصاً -إلى حد ما- لـ"مرجعيته الدينية"، وإن انتفض عليها؛ فقد بقيت شرعية الإسلام - عنده- شرعية منفصلة، على خلاف مبارك الذي أسس للأصالة الإبراهيمية الإسلامية، وطابعها التوحيدي.

اتجه الحايك إلى إدراج الإسلام في "اللاهوت الطبيعي" [43] Théologie Naturelle"" من أصل إبراهيمي"، واتضح ذلك في كتابيه الأساسيين "سر إسماعيل" و"العرب أو معمودية الدموع"؛ مستبعداً الطابع الإلهي للوحي القرآني أو المحمدي؛ هذا الاتجاه أتى انعكاساً للخطاب الديني الرسمي الكنسي حيال محمد، فنصوص المجمع الفاتيكاني الثاني، صمتت عن إشكالية المكانة النبوية في تاريخ الوحي؛ ويبدو لنا أن المسيحية الرسمية لم تدرك بعد "القوة التوحيدية الهائلة" للإسلام، فنظرت إليه من زاوية فرعية.

وفي تحليل على صلة بمسارات التفكير حول ثلاثية: إبراهيم، إسماعيل، محمد، يمكن الاستنتاج أن إسماعيل، هو الغائب الأكبر في التاريخ الكتابي وتقاليده، فلا يحضر إلاّ بصورة الأب/ البطريرك إبراهيم، ويبدو موقعه ضبابياً في مجال التوحيد الإبراهيمي، إذ جعله الطرد والإقصاء وآلام الانفصال، قصياً مثل أمه هاجر، الأمة/ الأميرة، الأم الكبرى في الإسلام العربي.

من المفيد البناء على "اتجاه الحد الأعلى" في دراسات الإسلام، المنضوي فيه ماسينيون والحايك ومبارك، لاستكمال "الانقلاب الكوبرنيكي" الناقص في المسيحية الرسمية. طبعاً، ثمة قفزات هائلة قام بها علماء اللاهوت المعاصرون في آرائهم حول "التعددية الخلاصية"، فطور بعضهم مواقف الكنيسة تجاه غير المسيحيين، كما نصّت عليها وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني. نستحضر هنا خلاصة الفيلسوف واللاهوتي البريطاني جون هيك John Hich (1922 - 2012) الذي قال: "إن أديان العالم كلها تتصل بالحق المطلق، لكن بطرق عدة. فقد أنتجت الظروف التاريخية والثقافية المختلفة وسائل خلاص مختلفة ومفاهيم مختلفة عن الحق؛ أي الله" [44]؛ هذا يعني أن الخلاص يشمل جميع الناس.

الهوامش :

(1) البصري، عمّار، كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة، حققه وقدم له: ميشال الحايك، سلسلة جديدة، الشرق المسيحي، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى، 1986. إلى جانب تقديم الكتاب في العربية كتب الحايك تقديماً مطولاً بالفرنسية يشرح فيه الإطار التاريخي لحياة عمّار البصري ومضمون المخطوطة.

(2) للمزيد من التفاصيل حول حياة عمّار البصري ومحيطه التاريخي راجع:

Mikhail, Wageeh, 'Ammār al-Baṣrī's Kitāb al-Burhān: A Topical and Theological Analysis of Arabic Christian Theology in the Ninth Century, a thesis presented to the University of Birmingham in fulfillment of the requirement for the degree of doctor of philosophy, Department of Theology and Religion, 2013, ((445 pages.

(3) البصري، مصدر سابق، ص7.

(4) المصدر نفسه، ص7.

(5) المصدر نفسه، ص8.

(6) المصدر نفسه، ص8.

(7) المصدر نفسه، ص9.

(8) راجع:

Graf, Georg, Geschichte der christlichen arabischen Literatur, Città del Vaticano : Biblioteca apostolica vaticana, 1944-1953.

(9) البصري، مصدر سابق، ص11.

(10) إن وَسْم هذا الجنس الأدبي بـ"الردّ على النصارى" يعود إلى المؤلّفات الأولى في ذلك: الرد على النصارى لعلي بن ربَّن الطبري، والرد على النصارى للقاسم بن إبراهيم الرسّي، والرد على النصارى للجاحظ، والرد على النصارى للكندي الفيلسوف. انظر: السيد، رضوان، "التفكُّر الإسلامي في المسيحية: الجدال والحوار والفهم المختلف في العصور الوسطى"، موقع حكمة، 21 ديسمبر (كانون الأول) 2012، على الرابط الآتي:

https://cutt.us/UYQXm

(11) البصري، ص12.

(12) المصدر نفسه، ص12.

(13) العايب بالحاج صالح، سلوى، المسيحية العربية وتطوراتها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 1998، ص68-67.

(14) المرجع نفسه، ص82-81.

(15) المرجع نفسه، ص88.

(16) الربيعي، فاضل، المسيح العربي، النصرانية في الجزيرة العربية والصراع البيزنطي –الفارسي، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص32 وما بعدها.

(17) الحايك، ميشال، المسيح في الإسلام، دار النهار، بيروت، ط 4، 2009، ص29.

(18) المرجع نفسه، ص9.

(19) المرجع نفسه، ص10.

(20) المرجع نفسه، ص13.

(21) المرجع نفسه، ص94.

(22) هالم، هاينس، الغنوصية في الإسلام، ترجمة، رائد الباش، مراجعة سالمة صالح، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة الثانية، 2010، ص7 وما بعدها.

(23) للمزيد حول أطروحة مبارك حول الأصالة الإبراهيمية للإسلام انظر:

فرج، ريتا، "يواكيم مبارك: الإسلام إبراهيمية أصيلة... رؤية مسيحية"، في: المسيحية والإسلام: العلاقات، المعرفة، الأخوة، (مجموعة باحثين)، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، الكتاب التاسع والأربعون بعد المئة، أيار (مايو) 2019. فرج، ريتا، "الأب يواكيم مبارك: الحوار الإسلامي _المسيحي في المجال الإبراهيمي"، في: المصادر التاريخية لمسيحيي الشرق الأوسط، أوراق مؤتمر المركز الثقافي الفرنسيسكاني للدراسات القبطية، 17-15 تشرين الثاني (نوفمبر) ، 2018، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2020.

24- .Moubarak, Youakim, Abraham dans le Coran, Vrin, Paris, 1958

25- Rocalve, Pierre, Louis Massignon et L'islam, Presses de l'Ifpo, : Études arabes, médiévales et modernes, Damas, 2014, ebook, sur : https://books.openedition.org/ifpo/4675?lang=en

26- .Hayek, Michel, Le Mystère d'Ismaël , , éd. Mame, Paris, p. 24

جاء في القرآن {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (سورة آل عمران، الآية 67).

27- Aoun, Mouchir Bassil, Le Christ arabe. Pour une théologie chrétienne arabe de la convivialité, Paris, Cerf, 2013, p 206.
28- Hayek, Michel, Le Mystère d'Ismaël, , op.cit., p. 35.
29- Ibid., p 202.
30- Aoun, Mouchir Bassil, Le Christ arabe, P 214.
31- Le Mystère d'Ismaël ,op.cit. , P 205.
(32) باسيل، مشير عون، من بواكير الفكر العربي الديني المسيحي المعاصر، الأب ميشال الحايك مثالاً فذاً في الوجودية اللاهوتية الناقدة"، ورقة غير منشورة، ألقيت في مؤتمر جامعة الروح القدس- الكسليك عن الفكر المسيحي، عام 2016.
33- Hayek, Michel, Le Mystère d'Ismaël, op.cit. p. 222.
34- Ibid, p 217.
35- Ibid, p 205.
36- Ibid, p 250.
37- Hayek, Michel, Les Arabes ou le Baptême des Larmes, éd. Gallimard, 1972, p. 209.
38- Abou Diwan, Mariam, « Pourquoi "un seul Homme" ? Réponse par "L'Impensé" de Monseigneur Michel Hayek (1928-2005) », Faculté Pontificale de Théologie de l'Université Saint-Esprit de Kaslik (Liban), 2009, p 73.

نحيل على:

Chartouni, Charles, "Michel Hayek : Les Méandres d'un prophète », in : Christianisme Oriental : Kerygme et Histoire, Geuthner, 2007, pp. 10-27.

انظر:

Hayek, Michel, Les Arabes ou le Baptême des Larmes, p. 21.

(39) باسيل، مشير عون، من بواكير الفكر العربي الديني المسيحي المعاصر، مرجع سابق. انظر نقلاً عن عون: الحايك، ميشال، أرض الميعاد، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1970، ص38-35.

40- Avakian , Sylvie, The turn to the Other: Reflections on contemporary Middle Eastern theological contributions to Christian–Muslim dialogue, Theology Today 2015, Vol. 72(1), p. 78.
41- Ibid., 79.
42- Daou, Fadi, Tabbara, Nayla, L'Hospitalité Divine, L'Autre dans le dialogue des théologies chrétienne et musulmane, Lit Verlag, 2013.

(43) اللاهوت الطبيعي عبارة عن جملة من المعارف اللاهوتيّة التي يمكن أن يهتدي إليها العقل البشري بيسر ودون حاجة إلى الوحي الإلهي وإن كان اكتمالها رهين هذا الوحي. يعرّف جميل صليبا علم اللاهوت الطبيعي بقوله: "يسمّى علم اللاهوت الطبيعي بالإلهيّات، أو علم الربوبيّة أو الفلسفة الإلهيّة. وموضوعه، عند (ليبنيز)، البحث في العناية الإلهيّة، والحرّيّة الإنسانيّة، وأسباب وجود الشرّ. وأهمّ هذه الموضوعات إثبات وجود الله وحكمته بما يشاهد في العالم من النظام والترتيب". انظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفي. دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982. انظر أيضاً: اللاهوت الطبيعي، مفاهيم، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 3 ديسمبر (كانون الأول) 2015، على الرابط الآتي: https://www.mominoun.com/articles/اللاهوت-الطبيعي3639-

(44) مجموعة باحثين، الخلاص المسيحي، اتجاهات أربعة في عالم تعدّدي، ترجمة، ديما معلم، دار المعارف الحكيمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2015، ص 34-33.

*** هناك جزء أول نشر في (الثقافة الجديدة)، العدد 442/كانون الثاني 2024 ... لذا اقتضى التنويه -المحرر**

العالم في عصر التطرف (الحرب في غزة نموذجاً)

د. كاوه محمود

مقدمة

أود في البداية أن أشير الى عنوان هذه المادة والمنهج المستخدم فيها، فالإشارة الى عصر التطرف في العنوان قد يذكّر القارئ بعنوان الكتاب الأخير من رباعية هوبسباوم (عصر التطرف) The age of extremes . وكان هوبسباوم قد كتب قبل ذلك (عصر الثورة) 1789- 1848، و(عصر الرأسمال) 1848-1875، و(عصر الإمبراطورية) 1875- 1914، علما أرى ان التطرف والعنف الملازم له، لم يكن سمة العصر الأخير بل السمة المشتركة للعصور الأربعة.

أما أساس المنهجية فلا يتعدى الفكرة الماركسية التي تؤكد على إمكانية قراءة التاريخ وتحليل فلسفته والنظر اليه بمنظور كلي، وهذا يعني في الظرف الراهن أن ننظر الى العالم بترابطه وكافة تعقيداته، وعدم تصور تواجد مجتمعات منفردة وجزر معزولة في المعمورة.

ان عالم اليوم المليء بالتناقضات والصراعات بحاجة الى بدائل واقعية مبنية على تصورات جديدة تحقق التوجهات لضمان الأمن العالمي والتنمية العالمية عبر تفاعل الحضارات العالمية في مواجهة التخلف والفجوة الحاصلة في التنمية وخطابات التفوق الحضاري وصدام الحضارات.

وفق هذه المنهجية، أشير الى النقاط الاتية:

1- قراءة الحرب في غزة وفق منظور هوية المجتمعات المتنازعة والصراعات المحلية والأسباب الداخلية التي تديم أمد النزاعات.

2- تجنب النظرة التجريدية لطبيعة النزاع، أو السعي لقراءته وأسباب ديمومته من خلال فصل النزاع عما يجري من تناقضات و صراعات في الشرق الأوسط، سواء ما يتعلق بالخلفية التاريخية للصراع وانشاء الدول المعاصرة في المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى والثانية. وما جرى من مستجدات بعد نهاية الحرب الباردة واعلان القطبية الواحدة، وما تلاه من نشوء اقطاب إقليمية منها تركيا وايران وتأثيره على الحرب الأخيرة في غزة، وبالأخص ما يتعلق بدور ايران في المنطقة وتأثيره كقطب إقليمي في كل من لبنان وسوريا واليمن والعراق، إضافة الى صراع ايران مع كل من الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل. وتتكامل هذه اللوحة مع ظهور بدايات الانتقال الى التعددية القطبية

وأثر ذلك على طبيعة الصراعات في الشرق الأوسط.

3- تجنب البحث في ما يحدث من احداث دامية، بعيداً عما يجري من متغيرات في العالم

المعاصر، أو التعامل مع ما ورثه العالم في القرن الحادي والعشرين من مشاكل ونزاعات لم تحسم وفق إرادة الشعوب وبما يخدم السلام والتقدم والتنمية والفوز المشترك للجميع في القرن الماضي.

4- متابعة أسباب الحرب ومآلها في غزة بالتزامن مع متغيرات النظام الدولي المعني بطبيعة التفاعل بين الوحدات على أساس عدد القوى المركزية في النظام الدولي، في ما يتعلق بالقطبية الواحدة أو التعددية القطبية، وأثر ذلك على تطبيق مجموعة الضوابط القانونية والعرفية التي تعمل وحدات النظام الدولي وتتفاعل على أساسها وتمثل دستور العلاقات الدولية.

غزة وخلفيات الصراع في المنطقة

أما ما يتعلق بالحرب الأخيرة في غزة من حيث توقيتها وطبيعتها، فلا يمكن النظر لها بشكل مجرد بعيد عن الوضع السياسي العام في المنطقة والصراعات الدولية والإقليمية الجارية فيها. ففي السنوات الأخيرة، لم تتعلق بؤر التوتر في المنطقة بالقضية الفلسطينية فقط. ففي سوريا تدعم ميليشيات حزب الله الإيراني والعراقي واللبناني نظام الأسد، وتقصف الطائرات الإسرائيلية هذه الميليشيات على مرّ السنين، وتشن تركيا حرب الابادة بشكل مستمر في {غرب كردستان} شمال شرق سوريا، بالإضافة إلى هجمات تركيا وإيران في إقليم كردستان العراق. كما أنشأ حزب الله دولته العميقة في لبنان ويقوم بإطلاق الصواريخ بين الحين والآخر على إسرائيل، كما اتهمت الحكومة الإيرانية إسرائيل بالانفجارات التي حدثت في السنوات الأخيرة داخل إيران. وفي السنوات الاخيرة، تم تنفيذ عملية تطبيع العلاقات بين إسرائيل والعديد من دول الخليج.

عجز المجتمع الدولي عن معالجة الأزمات

ان جملة النقاط الواردة في منهجية تناولنا للموضوع تشير الى عجز المجتمع الدولي عن إدارة الأزمات وتجنب الحروب أو انهائها حال حدوثها. وللتأكيد على هذا الاستنتاج أشير الى ما يأتي:

أولاً/ انتهى القرن العشرون وانتقلت النزاعات والصراعات وبؤر التوتر وأخطرها بقايا الحروب الدائرة فيه والحروب الجديدة الى القرن الحادي والعشرين. وترتبط هذه الحروب بأزمة الرأسمالية المعاصرة وبالأخص سبل النيوليبرالية والاوليكارشيات الحاكمة في المراكز الرأسمالية، والنخب الحاكمة المرتبطة بها أو المناوئة لها في الرأسماليات التابعة لمعالجة أزماتها وإدارة صراعاتها من خلال الحرب.

من جانب آخر ترتبط بعض هذه النزاعات بنضالات الشعوب المناضلة من اجل التحرر والاستقلال الوطني.

شهد العالم من الحرب العالمية الثانية الى عام 2020 أكثر من 285 نزاعاً عسكرياً، منه 122 حربا أهلية، تحولت 83 منها الى حروب بين دول، إضافة الى 35 حربا بين دول، و45 حربا ضد منظمات أجنبية. وضمن هذا السياق تم ادخال الكفاح المسلح للشعوب ضمن الحروب الأهلية، ومنها نضال منظمة التحرير الفلسطينية قبل تأسيس

حماس.
ثانياً/ تتسم الحروب الحالية بمتغيرات سياسية وتكنولوجية حيث تستخدم القنابل الذكية وتزداد المخاطر على حياة المدنيين، وتدمير البنية التحتية والبنايات السكنية والمؤسسات الاقتصادية، بحيث تصل الى مديات تدمير مدن بكاملها. فعلى سبيل المثال لنرى ما حصل في أوكرانيا من تدمير للمدن ونزوح للمدنيين، وما جرى ويجري في غزة من قتل وأسر للمدنيين من قبل حماس وقصف المدنيين ومقتل آلاف الشيوخ والأطفال والنساء وتهجيرهم من شمال غزة من قبل القوات الإسرائيلية. كما يجب أن نذكر ما جرى للأيزيديين والأيزيديات بأيدي دولة الخلافة الإسلامية (داعش).
ثالثاً/ لا تستخدم في هذه الحروب القوى التقليدية للدولة، حيث تقوم أمراء الحروب والمليشيات الحزبية والشركات الأمنية بمهام الجيوش النظامية، ومن أمثلة ذلك "فاغنر" في الحرب الروسية ـ الاوكرانية، ميلشيات الحشد الشعبي، ميلشيات المقاومة الإسلامية في المنطقة، حروب الميلشيات في سوريا، الشركات الأمنية، داعش.
رابعاً/ في خضم الحروب الحالية توجد الامكانية العسكرية لمجموعة مسلحة أو لميليشيا قليلة العدد خارج سيطرة الدولة، أن تلعب دور الدولة العميقة، وأن تقوم باحتلال منطقة جغرافية واسعة، (نموذج داعش وتأسيس دولة الخلافة الإسلامية على سبيل المثال).
خامساً/ ان التطور الكبير والخطر في مجال تكنولوجيا السلاح وتجارته جعل بإمكان الحصول على أسلحة متطورة ومدمرة من قبل مجاميع ميلشياتية إرهابية ومتطرفة وإمكانية استخدامه في النزاعات القائمة.
وعلى العموم يمكن القول بأن العالم يعيش منذ القرن العشرين وحتى الآن في ظل الحرب الباردة والحروب "الحارة". وقد شهد العالم في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين حروبا عديدة ونزاعات مسلحة في العراق، سوريا، ليبيا، اليمن، السودان، اثيوبيا، أوكرانيا، إضافة الى مناطق أخرى.
ان جملة النقاط الواردة أعلاه أوجدت حالة إرهاب الدولة المنظم وإرهاب المنظومة السياسية، ووفق هذين المفهومين والنقاط المشارة لها كيف يجري تصنيف جملة من تلك العمليات العسكرية والتكييف القانوني والسياسي لها. وعلى سبيل المثال هجوم حماس في السابع من أكتوبر، ورد الفعل الإسرائيلي والقصف الدامي ضد المدنيين الفلسطينيين في غزة من قبل الجيش الإسرائيلي، والعمليات العسكرية للعصابات الفاشية في أوكرانيا منذ عام 2014 وكذلك العمليات العسكرية لفاغنر والجيش الروسي، والحرب بين أطراف النزاع ومساهمة القوات الأجنبية وميلشيات الدول الاقليمية في سوريا، إضافة الى إرهاب الدولة المنظم ضد المناوئين وحملات الإبادة ضد المدنيين؟

الأسباب الحقيقة لديمومة التوتر والحروب

تثير هذه اللوحة الدامية من النزاعات المسلحة والحروب أسئلة عديدة حول مخاطر استمرارها، وخاصة ونحن نقترب من تجاوز الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، إضافة الى أسئلة تتعلق بالأسباب الكامنة وراء استمرار الحروب والنزاعات المسلحة.
وأرى ان الأسباب الحالية التي تديم بؤر

التوتر والحروب هي:
1- فشل المجتمع الدولي والمنظمات الدولية الاساسية ومنها الأمم المتحدة في حل النزاعات بشكل سلمي في ظل فقدان آلية فرض الحلول، أو تطبيق المشاريع الدولية التي تدعو الى السلم. فعلى سبيل المثال لم يجر تطبيق قرار الأمم المتحدة منذ عام 1948 حول حل الدولتين، إضافة الى القرارات الدولية الأخرى واتفاقية أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل.
2- تراجع التيارات الفكرية الداعية الى التنوير في ظل إشكاليات الحداثة وتزايد تأثير ونفوذ التيارات الدينية. فبالنسبة للقضية الفلسطينية استطاعت حماس وهي منظمة دينية إسلامية، السيطرة على غزة وطرد السلطة الوطنية الفلسطينية عام 2007، فيما تشهد إسرائيل تعاظم نفوذ التيارات الدينية اليهودية والأحزاب اليمينية في الحكم.
3- ضعف قوى اليسار في العالم، وفقدان الرؤية المشتركة في النظر الى المتغيرات واتخاذ الموقف من الاحداث، ما أثر على عدم بلورة حركة سلام عالمية مؤثرة على الرأي العام العالمي والدول والمنظمات الدولية. فرغم الظروف الموضوعية التي تشجع على قيام حركة سلام في أوروبا ضد الحرب في أوكرانيا على سبيل المثال في ظل الأزمة الاقتصادية الناجمة عن الحرب وتأثير ذلك على بلدان الجنوب والدول الأوروبية، فان مواقف الأحزاب الشيوعية والعمالية العالمية والأحزاب اليسارية حول الحرب الروسية ـ الأوكرانية تنقسم الى ثلاثة مواقف متباينة، كما تنقسم مواقف الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية الى موقف مؤيد لحل الدولتين، وموقف مناوئ لهذا الحل عبر التأكيد على دولة فلسطينية فقط.
4- دور الاعلام ووسائل التواصل الاجتماعي في تداول خطاب شعبوي مبني على رفض وإلغاء الآخر، وخاصة إذا كان موضوع البحث في اطار التعبير عن الرأي والموقف السياسي. يأتي تعامل الخطاب العربي بشكل عام في الموقف من المفكر هابرماس وموقفه من الحرب في غزة ونعت موقفه (بسقطة هابرماس) نموذجا في هذا السياق.
5- زيادة نفوذ القوى اليمينة في أوروبا. فعلى سبيل المثال استطاعت القوى اليمينية الفوز في الانتخابات في كل من السويد وهولندا والدنمارك وهنغاريا وإيطاليا، بالتزامن مع ظاهرة كره الأجانب والتشدد في قوانين الهجرة.
ان قراءة متأنية للوضع القائم في المراكز الرأسمالية والرأسماليات التابعة في ظل المؤشرات أعلاه، وبسبب غياب السياسات البديلة، خلقت الأجواء المناسبة للقوى اليمينية والفاشية القديمة والقوى التي توظف الدين في العمل السياسي والمنظمات المتطرفة والارهابية، أن تتصدر المشهد السياسي في وقت أصبح القانون الدولي والنظام الدولي الحالي عاجزين عن إيقاف الإرهاب بكل تجلياته واطفاء بؤر التوتر وانهاء النزاعات وإيقاف الحروب.

الأسباب الاقتصادية للأزمة

على العموم يبدو القرن الحادي والعشرون متواجدا في ظل فوضى عالمية عارمة وشاملة، مفتقراً الى آليات واضحة وناجحة لضبط الأزمات وادارتها ومعالجتها.
وبهذا الصدد لا يمكن اغفال العوامل الاقتصادية المسببة لذلك الفوضى، ومنها:

1- تزايد الفجوة بين الشمال الغني والجنوب الفقير.
2- الآثار السلبية لأزمة الرأسمالية العالمية على الطبقة الوسطى عالميا التي تدهور وضعها بسبب التخلي عن مفهوم "دولة الرفاه" في أوروبا، وتبعية اقتصاديات دول الشرق الأوسط الريعية للمراكز الرأسمالية. وتستثنى الطبقات الوسطى في كل من الصين واليابان وكوريا الجنوبية من تلك الحالة.
3- انبثاق الحركات الاعتراضية والاحتجاجات ضد الوضع القائم في ظل غياب برنامج واقعي بديل لمعالجة الأزمات، قائم على تشخيص ماهية الأزمة وسبل معالجتها، ما وفرت الأرضية المناسبة لإنتاج نازيين جدد وقوى دينية متطرفة وإرهابية.

مستجدات موضوعية تفتح آفاقاً للتغيير

ان هذه اللوحة المعقدة والمركبة الشائكة المشارة لها ليست نهاية المطاف، ففي عمق هذه الأزمات والفرز المتوقع للقوى الاجتماعية على صعيد المجتمعات القائمة والمتغيرات في الوضع الدولي، تتواجد وتنخلق فرص جديدة للمواجهة وطرح البديل.

تستند إمكانيات التغيير على قدرة المجتمع من جهة وإمكانية المجتمع الدولي بشكل عام على تصحيح مساراتها متجاوزا السكون والثبات والبحث عن بدائل واقعية تستجيب لما حدث من تغييرات موضوعية على الصعيد العالمي ككل.

ان قراءة واقعية للمستجدات تفتح امام القوى التواقة الى تحقيق تغيير نوعي يتجاوز التبعية ويحقق التنمية والأمن المشترك، آفاقاً نضالية واسعة مبنية على عوامل موضوعية تغتني بتفعيل العوامل الذاتية الكامنة وراء التغيير.

ان قراءة متأنية للمستجدات الموضوعية تدعونا للإشارة الى ما يأتي:

1- التوسع المستمر في مشاركة الكيانات الدولية في العولمة بشكل واضح. الأرقام الاتية تشير الى ما يأتي:

- حسب احصائيات المؤسسة الاقتصادية السويسرية KOF كان بعدد الدول التي وصلت الى ما فوق 60 نقطة في مؤشر العولمة، 14 دولة في عام 1970. وقد وصل العدد عام 2021 الى 98 دولة.
- ارتفع عدد حالات الدمج بين البنوك من 247 حالة عام 1985 الى 1.316 حالة عام 2020.
- تعمل 338 شركة أمريكية كبرى في الصين، منها 90 شركة تبيع كل انتاجها داخل الصين، وهناك 2.400 شركة في الولايات المتحدة الأمريكية يسيطر عليها رأس المال الصيني.
- ان 19% من ديون الولايات المتحدة الامريكية هي صينية، وتبلغ 1.17 مليار دولار. ويعمل 2.6 مليون موظف أمريكي في شركات تنتج سلعا للأسواق الصينية.
- ينعكس توسع العولمة في ان 60 ألف شركة متعددة الجنسيات لها نصف مليون فرع وتسيطر على نصف التجارة العالمية.

2- تؤثر المؤشرات المرتبطة بالعولمة على التوجهات المرتبطة بإدارة العلاقات الدولية في ظل المتغيرات الحاصلة للقوى الاقتصادية المهيمنة والمتغيرات في الهرم السكاني والتمركز الكبير داخل المدن والتطور السريع في مجال التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي ومشاكل البيئة والمناخ وأزمة الطاقة.

3ـ تشكل العلاقات الدولية في الوقت الحاضر شبكة عنكبوتية بعكس مفهوم "كرة البليارد" في العلاقات الدولية التي تعتمد على مسألة رد الفعل. تحتاج شبكة العلاقات الدولية المعاصرة الى اللعبة اللاصفرية Non zero -sun Gam في العلاقات الدولية التي تستند على التوافق والتناغم بين المصالح، بعكس اللعبة الصفرية Zero sum game التي تستند على ما يكسبه طرف معين يشكل خسارة مساوية للطرف الآخر.

يساهم المنظور اللاصفري في العلاقات الدولية والمتغيرات المتعلقة بالمرحلة الانتقالية نحو اعلان التعددية القطبية بشكل رسمي، وفشل نموذج الليبرالية الجديدة في تحقيق التنمية العالمية وبناء السلام، في وضع عالم اليوم أمام منعطف طرق.

فأمام العالم أن يختار بين الوحدة والتفكك، وبين الانفتاح والمواجهة. وضمن هذه المعادلة الشائكة تتجلى ضرورة الحوكمة في العلاقات الدولية.

4ـ تحتاج الإشكاليات والتحديات الحالية في الوضع الدولي والسياسة الدولية المهيمنة الى صياغة إستراتيجيات عالمية جديدة، تواجه نزعة الهيمنة وسياسة القوة وتعزز تطور النظام الدولي نحو اتجاه أكثر عدلاً وعقلانية. لقد نجح الحزب الشيوعي الصيني في صياغة مفهوم "مجتمع المصير المشترك للبشرية" وبلورة العلاقة الديالكتيكية بين التنمية العالمية والأمن العالمي ومبادرة الحضارة العالمية عبر التأكيد على جملة من الأمور منها:

ـ ربط مفهوم التنمية الدولية بالتوجه نحو الابتكار والتناسق والفوز المشترك وتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي وتضييق فجوة التنمية، وتحقيق المنفعة المتبادلة.

ـ ممارسة الأمن المشترك من خلال التعاون والاستدامة ونبذ عقلية الحرب الباردة والمجابهة الجماعية والتضحية بأمن الشعوب والدول الأخرى.

ـ التأكيد على حوار الحضارات وتفاعلها، وقد أعلن الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني في 15 آذار 2023 مبادرة الحضارة العالمية التي تؤكد على المساواة والتعلم والاستفادة المتبادلين والحوار والشمول، لتجاوز الجفاء وتصادم الحضارات ومواجهة التفوق الحضاري.

5ـ ان العصر الجديد والمتغيرات الجديدة يتطلبان فكراً جديداً وسياسة جديدةً تستند على الحوكمة العالمية لفتح آفاق جديدة في السياسة الدولية، من أجل عالم أفضل مبني على الانصاف والعدالة والتوافق والعيش المشترك واحترام التعددية والتعلم من المقابل والتضامن الدولي بين الشعوب واحترام إرادة الشعوب في تقرير مصيرها واختيار طريقها المبني على الارادات الذاتية في تحقيق التنمية والمشاركة في التنمية العالمية.

تساؤلات ومراجعات مطلوبة

في سياق هذا الوضع الدولي المتأزم حالياً، والفشل الواضح في إدارة الازمات ومعالجتها يثير الحرب في غزة ومن خلال طبيعة الأطراف المشاركة فيه وخلفية الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، تساؤلات عديدة منها:

1ـ كيف تقيّم حركات التحرر الوطني ممارساتها ونضالاتها، وهل يسمح نهج الكفاح المسلح من أجل التحرر بممارسة عمليات قتل وأسر المدنيين والأطفال والنساء والتعامل معهم كرهائن، أو التجارة بالمخدرات

والعمليات الانتحارية؟
وعلى هذا الأساس كيف يتم تكييف طبيعة حماس وطالبان والحركة المسلحة السابقة في كولومبيا؟!

2- تواجه حركات التحرر الوطنية اختبار الحفاظ على استقلاليتها وعدم الانجرار والدخول الى استقطاب دولي وإقليمي، لتصبح كماشة في الصراعات الدولية والإقليمية، ويتم النظر اليها كونها تخوض حرباً بالوكالة.

3- لا يمكن وصف رد الفعل العسكري الإسرائيلي بعد هجمات السابع من أكتوبر سوى تصنيفه في خانة إرهاب الدولة المنظم.

ورغم اختلاف المواقف الدولية والإقليمية، ومواقف الدول والأحزاب السياسية العربية، فإن هذه الحرب تظهر لنا بعض الحقائق، منها: ان القبة الحديدية الإسرائيلية التي من المفترض أن تعرقل الصواريخ الموجهة الى إسرائيل إضافة الى الترسانة العسكرية الاسرائيلية والمعدات المتطورة والأجهزة الأمنية وسياسات الاستيطان والتغيير الديمغرافي، لم تكن باستطاعة كل هذه الأمور من توفير الامن والسلام لإسرائيل، وهذا درس بليغ لكل الحكومات والسلطات التي تتصور بان لديها القدرة على تركيع الشعوب التواقة للتحرر من خلال القمع، واستخدام القوة وسياسات التغيير الديموغرافي.

وفي الوقت نفسه، فإن الخيار العسكري في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، لم يسهم في ممارسة الضغط لاختيار بديل التفاوض والسلام او فرضه، والذي يمكن من خلاله إعلان الدولة الفلسطينية، وبالإمكان التركيز على أساليب النضال والمقاومة الجماهيرية الفاعلة مع ايماننا بحق الشعوب كافة في اختيار اشكال النضال الوطني من اجل التحرر وحق تقرير المصير والتأكيد على مراعاة سلامة المدنيين من مختلف الأطراف المتنازعة في حالة التوترات والنزاعات المسلحة.

اننا نرى بأن الخطوة الأولى والاساسية في تفعيل المقاومة الجماهيرية تبدأ بوحدة الفلسطينيين، أي وحدة القرار الفلسطيني وليس بتقسيم السلطة الوطنية الفلسطينية بين منطقتين، بين الضفة الغربية وغزة، وتقسيم السلطة الفعلية بين فتح وحماس، وعدم إمكانية اجراء الانتخابات وما نجم عنها من شلل في المؤسسات الفلسطينية.

إن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي والوضع في منطقة الشرق الأوسط عموما بحاجة إلى مبادرة دولية لإيقاف القتال الدائر الان في غزة وانهاء تبادل الأسرى والمدنيين والتركيز على تطبيق القرارات الدولية وبناء سلام دائم على أساس حل الدولتين. لذا لا يمكن النظر إلى عدالة القضية المشروعة للشعب الفلسطيني وضرورة الحل السلمي لهذه القضية في الدائرة المغلقة للصراع كالذي حدث في غزة، فللفلسطينيين الحق في أن تكون لهم دولتهم الوطنية المستقلة، وللإسرائيليين الحق في العيش بأمان في دولتهم. ومن ناحية أخرى، فإن إثارة الرأي العام في المنطقة ضمن زعيق خطابات الكراهية وفق وعي مشوه، يساهم في اذكاء نار الحرب، وهي ليست السبيل المناسب لدعم الشعب الفلسطيني والتضامن معه لإقامة دولته الوطنية الخاصة والتضامن والدعم لقضية السلام وتعايش الشعوب في منطقة الشرق الاوسط.

إن الطريق إلى السلام والأمن والتنمية والتعايش بين الأمم وشعوب الشرق الاوسط يبدأ باحترام القرار المستقل للشعوب وارادتها الحرة.

الهندسة الوراثية
والجيل الجديد من المعالجات الإلكترونية

د. عادل كنيش مطلوب

يستخدم مصطلح الهندسة الوراثية بشكل عام للإشارة إلى تقنيات توليف الحمض النووي، والتي نشأت من الأبحاث الأساسية في علم الوراثة الميكروبية. أدت التقنيات المستخدمة في الهندسة الوراثية إلى إنتاج منتجات ذات أهمية طبية، بما في ذلك الأنسولين البشري وهرمون النمو البشري ولقاح التهاب الكبد B، فضلاً عن تطوير كائنات معدلة وراثيًا مثل النباتات المقاومة للأمراض. كما أشار مصطلح الهندسة الوراثية في البداية إلى التقنيات المختلفة المستخدمة لتعديل أو معالجة الكائنات الحية من خلال عمليات الوراثة والتكاثر. على هذا النحو، فإن المصطلح احتضن كلاً من الانتقاء الاصطناعي وجميع تدخلات التقنيات الطبية الحيوية، من بينها التلقيح الاصطناعي، والتخصيب في المختبر (على سبيل المثال، أطفال "أنبوبة الاختبار")، والاستنساخ، والتلاعب الجيني. لكن، في الجزء الأخير من القرن العشرين، جاء المصطلح للإشارة بشكل أكثر تحديدًا إلى استنساخ الجينات وتعديلها، حيث يتم دمج جزيئات الحمض النووي من مصدرين أو أكثر إما داخل الخلايا أو في المختبر ثم يتم دمجها بعد ذلك وإدخالها في الكائنات الحية

المضيفة بحيث تكون قادرة على التكاثر فيها.

تعديل الجينات

ظهرت إمكانية تقنيات توليف الحمض النووي مع اكتشاف إنزيمات التقييد في عام 1968 ثم تبعت بتقنية سميت بالإنزيمات المقيدة من النوع الثاني، والتي وُجد أنها ضرورية للهندسة الوراثية لقدرتها على شق موقع معين داخل الحمض النووي (على عكس إنزيمات التقييد من النوع الأول، والتي تشق الحمض النووي) في مواقع عشوائية. بالاعتماد على هذه التقنيات تم تطوير تقنية إعادة تركيب الحمض النووي في 1970–1971 وأظهر

أن إنزيمات النوع الثاني يمكن أن تكون مفيدة في الدراسات الجينية. بدأ علماء الكيمياء الحيوية باستخدام الهندسة الوراثية القائمة على إعادة التركيب في عام 1973، وهذه كانت البوادر الأولى لتقطيع الحمض النووي إلى أجزاء وإعادة ترتيبها. لقد تم استخدام هذا النوع من الحمض النووي الجديد في الجينات الجديدة في بكتيريا الإشريكية القولونية E. coli bacteria .

كانت أعمال فرانسيس كريك وجيمس واتسون وروزاليند فرانكلين وغيرهم، ممن فتحوا الشفرة الأساسية للحياة، مادة للخيال العلمي. فهل ستستخدم أعمالهم في هندسة مستقبل غريب جدا على ما نحن فيه؟

لقد كشف العلماء الذين يقومون بالبحث الأساسي عن آليات الحياة منذ عقود وابتكروا أدوات لتعديل الجينات الفردية مثل ما يعرف بالتكرارات المتناوبة القصيرة المتجمعة والمتباعدة بانتظام كرسبر Clustered Regularly Interspaced Short Palindromic Repeats وهي أداة قوية للغاية لتعديل الجينات في أي كائن حي على ما يبدو، بما في ذلك البشر. لكن كرسبر هي واحدة من تلك الثورات حيث أصبح ما يعتقده الباحثون بأنه ما كان من الممكن إن يكون في الأفق البعيد متاح؛ أصبح الآن متوفر بشكل مفاجئ.

مثلا؛ نشر في 17 من أذار لهذا العام في مجلة الطب التجريبي Journal of Experimental Medicine عن معالجة التهاب الشبكية الصباغي جينيا [1]، وهو أحد الأسباب الرئيسية للعمى لدى البشر. في هذه الدراسة الحديثة، استخدم الباحثون تعديل الجينات كرسبر لاستعادة فقدان البصر لدى الفئران المصابة بهذه الحالة؛ ويقول الخبراء إن تعديل الجينات بتقنية كرسبر يبشر بالخير لاستخدامه لتصحيح فقدان البصر لدى البشر. كما يمكن للتعديلات الجينية، على سبيل المثال اليوم، من علاج الأمراض الوراثية، كما يتم اختبارها ضد السرطانات وفيروس نقص المناعة البشرية. ويمكن أيضا أن تستخدم لجعل المحاصيل أكثر مقاومة للجفاف أو تمكن النباتات من أن تكون أكثر إنتاجا.

ومن الأمثلة الأخرى:

• تساعد ''الدوائر الجينية'' القابلة لإعادة برمجة النباتات في النهاية على التكيف مع التغير المناخي [2].

• الثورة الأخيرة في الذكاء الاصطناعي (AI) وفرت أملاً جديداً. في دراسة نشرت في 20 شباط| فبراير 2020 في مجلة الخلية [3] Cell استخدم علماء من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وجامعة هارفارد ''التعلم العميق'' لاكتشاف مضادات حيوية جديدة.

• تصميم تطبيق مواعدة، استنادًا إلى مطابقة الجينات لتلافي الأمراض الوراثية [4].

• دراسة أسماك صخور أعماق البحار، التي تعيش حتى 200 عام [5]، والتي تلقي الضوء على الجينات المرتبطة بطول العمر. يمكن أن تساعد هذه الجينات في العثور على أهداف دوائية لإبطاء الأضرار المرتبطة بالعمر في جسم الإنسان.

• نزلات البرد يمكن أن تكون شيئا من الماضي، حيث اكتشف العلماء طريقة ''لإعاقة'' الشفرة الجينية لنزلات البرد [6].

• أنتج العلماء عث معدل وراثيا لكبح مشاكل آفات زراعية عالمية تكلف المزارعين

مليارات من الدولارات [7].

• خلق العلماء خلايا جذعية داخل جسم الفئران المختبرية للمرة الأولى، في دراسة تاريخية تبين أنه قد يكون من الممكن في يوم واحد زراعة الأعضاء البشرية عن طريق إصلاح الأضرار في الموقع دون الحاجة إلى عمليات جراحية [8].

•عمل الجيش الأمريكي على تطوير نباتات معدلة وراثيا لغرض التجسس في بيئات "غير مناسبة لأجهزة الاستشعار التقليدية" [9].

الواقع القائم والمستقبل

إن تعديل الجينات يتيح لنا التحكم في تطورنا. ولكن هل سنستخدمها بحكمة؟ خصوصا قد تستخدم في تغيير مواصفاتنا البشرية؛ من الصنف البشري الحالي الى نوع اخر يختلف بيولوجيا عما نحن عليه الآن! ربما نحن بعيدون عن تصميم أطفال حسب الطلب ليكونوا أكثر ذكاءً أو الأكثر إبداعا في الحياة بشكل عام. على الأقل الآن، هناك الكثير من عدم المعرفة حول وجهة هذه التكنولوجيا المثيرة للغاية.

أين يجب أن نرسم الحدود التي لا نجرؤ على تجاوزها؟ يعرف الباحثون الملهمون بأن الأسئلة الأخلاقية التي تطرحها هذه التكنولوجيا لا تتعلق بهم. لقد قدم لنا العلم الأدوات، لكن لم يقدم الإجابات.

إن ما نشر مؤخرا عبر وسائل الإعلام عن علاج جيني لطفلة، بكلفة ثلاثة ملايين جنيه إسترليني (حوالي خمسة ملايين دولار)، تكفلت به مؤسسة الرعاية الصحية البريطانية NHS، يؤشر الى أهمية ديمومة ورعاية مثل هذه المؤسسات العامة لخدماتها الإنسانية؛ وأن مثل هكذا علاجات يجب أن تتوفر للجميع عبر اتفاقات دولية او مؤسسات عالمية غير ربحية أو أية صيغة أخرى تسمح بتوفيرها للبلدان منخفضة الدخل؛ لأن كلفتها خارج إمكانيات هذه الدول، ناهيك عن المؤسسات العامة الموجودة في هذه البلدان.

الجيل الجديد من المعالجات الإلكترونية ودمجها في جسم الإنسان

إن تواصلنا المباشر مع العالم الخارجي يتم من خلال حواسنا. يمكننا الوصول إلى مواد العالم المادي ولمسها. لكن حاسة اللمس هذه ليست تجربة مباشرة. على الرغم من أن اللمس يحدث في الأصابع، إلا أن كل هذا يحدث في الواقع في مركز التحكم في المهام وهو الدماغ. إنه نفس الشيء عبر جميع التجارب الحسية. الرؤية لا تحدث في العينين. السمع لا يحدث في الأذنين. الرائحة لا تحدث في الأنف، كل التجارب الحسية تحدث في عواصف من النشاط داخل مادة الحوسبة والمعالجة وهو الدماغ. لا يستطيع الدماغ الوصول إلى العالم الخارجي. إنه مغلق داخل حاوية مظلمة صامتة في الجمجمة، لم يختبر الدماغ العالم الخارجي بشكل مباشر أبدًا، ولن يحدث ذلك أبدًا. بدلاً من ذلك، هناك طريقة واحدة فقط تدخل بها المعلومات إلى الدماغ. تعمل الأعضاء الحسية - العينان والأذنان والأنف والفم والجلد - كمترجمين فوريين. يكتشفون طاقمًا متنوعًا من مصادر المعلومات (بما في ذلك الفوتونات وموجات ضغط الهواء والتركيزات الجزيئية والضغط والملمس ودرجة الحرارة) ويترجمونها إلى العملة المشتركة للدماغ: الإشارات

الكهروكيميائية.
تندفع هذه الإشارات الكهروكيميائية عبر شبكات كثيفة من الخلايا العصبية، وهي خلايا الإشارات الرئيسية في الدماغ. هناك مئة مليار خلية عصبية في دماغ الإنسان، وكل خلية عصبية ترسل عشرات أو مئات النبضات الكهربائية إلى آلاف الخلايا العصبية الأخرى في كل ثانية من حياتنا.
تُترجم الإشارات من البيئة الخارجية إلى إشارات كهروكيميائية تحملها خلايا الدماغ. إنها الخطوة الأولى التي يتفاعل بها الدماغ مع المعلومات من العالم خارج الجسم. حيث تقوم العين بتحويل الفوتونات إلى إشارات كهربائية، وتعمل آليات الأذن الداخلية على تحويل الاهتزازات الموجودة في كثافة الهواء إلى إشارات كهربائية. كما تقوم المستقبلات الموجودة على الجلد، وكذلك داخل الجسم، بتحويل الضغط والتمدد ودرجات الحرارة والمواد الكيميائية الضارة إلى إشارات كهربائية. ويحول الأنف جزيئات الرائحة، وأخيرا يحول اللسان جزيئات الذوق إلى إشارات كهربائية.
ذلك يشير الى أن هذه الحواس، يجب أن تترجم هذه المظاهر الفيزيائية إلى عملة مشتركة قبل إجراء ردود فعل ذات مغزى.
وأحد الألغاز التي لم يتم حلها في علم الأعصاب يعرف باسم "مشكلة التشكيل": كيف يمكن للدماغ إنتاج صورة واحدة وموحدة للعالم، بالنظر إلى أن الرؤية تتم معالجتها في منطقة، والسمع في منطقة أخرى، واللمس في منطقة ثالثة، وما إلى ذلك؟ في حين أن المشكلة لا تزال دون حل، فإن العملة المشتركة بين الخلايا العصبية - بالإضافة إلى ترابطها الهائل - تعد بأن تكون في قلب الحل.

شرائح معالجات الكترونية

هذا هو المبدأ التي عملت به الشركات الاحتكارية منذ عام 2016، والتي تهدف الى زرع شريحة معالج الكتروني مدمج في جمجمة الإنسان. بعد سنوات من الاختبارات على الحيوانات، في 25 مايس/ مايو 2023، حصلت إحدى هذه الشركات أخيرًا على موافقة إدارة الأغذية والعقاقير الأمريكية (FDA) لأول تجربة إكلينيكية بشرية لها.
لقد أمضت هذه الشركات أكثر من نصف عقد في اكتشاف كيفية ترجمة الإشارات الداخلة الى الدماغ من الحواس، والخارجة منه إلى مخرجات رقمية - تخيل أن تكون قادرًا على تحريك مؤشر أو إرسال رسالة نصية أو كتابة معالج كلمات بمجرد التفكير به.
في حين ينصب التركيز الأولي على حالات الاستخدام الطبي (مثل مساعدة الأشخاص المصابين بالشلل على التواصل)، تطمح هذه الشركات إلى استخدام معالجات إلكترونية، لوضع ما يعادل "Fitbit" (منتج لمتابعة نشاط الجسم على هيئة ساعة يدوية) في جمجمتك. لكنه، أيضا، يسعى "إلى زيادة الذكاء البشري بجانب الاستخدامات الطبية المحتملة للرابط، من خلال إنشاء اتصال عند الطلب مع أنظمة الذكاء الاصطناعي - مما يسمح، على سبيل المثال، بتحسين الإدراك من خلال الذاكرة المحسنة، وتحسين مهارات التعلم وحل المشكلات" [10].
هذه الشركات التي تعمل على واجهات

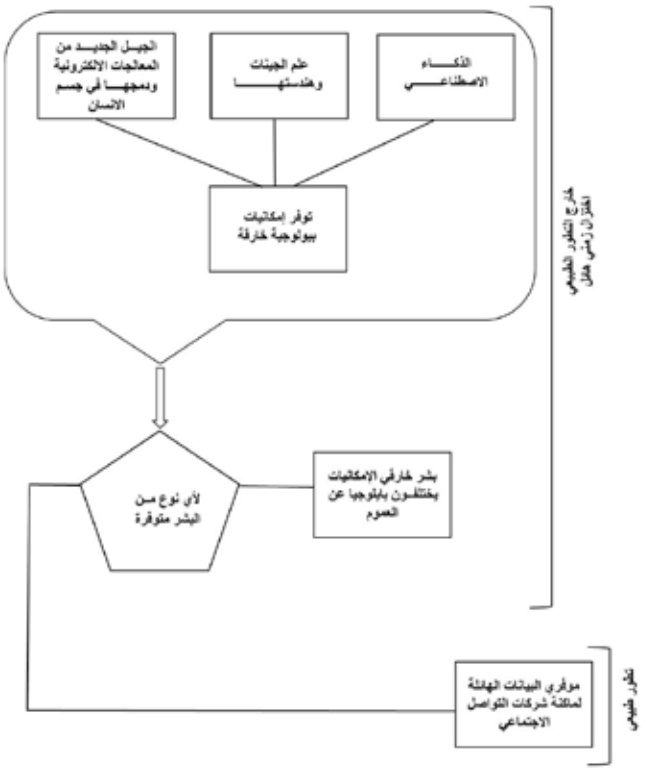

الدماغ والحواسيب او الانظمة لتسهيل الاتصال المباشر بين العقول البشرية وأجهزة الحواسيب الخارجية تستخدم رابط الحاسوب بالدماغ
(Brain Computer Interface (BCIs)))أو تسمى أحيانا رابط الآلة بالدماغ
(Brain Machine Interface (BMI))
أو الدماغ الذكي Smartbrain وهي مسار اتصال مباشر بين النشاط الكهربائي للدماغ والأجهزة خارجه لاستعادة الحواس المفقودة والتحكم في الأطراف الصناعية.
في حين أن هذه التقنيات لا تزال في مهدها، إلا أنها كانت موجودة لفترة كافية للباحثين لتكوين فكرة متزايدة عن كيفية تفاعل الغرسات العصبية مع عقولنا.
إنّ التدخل في العمليات الدقيقة للعقل البشري هو عمل شاق، والتأثيرات ليست دائما مرغوبة أو مقصودة. يمكن أن يشعر الأشخاص الذين يستخدمون رابط الحاسوب بالدماغ بإحساس عميق بالاعتماد على الأجهزة، أو كما لو أن إحساسهم بأنفسهم قد تغير. قبل أن نصل إلى النقطة التي يصطف فيها الناس للحصول على هاتف ذكي مزروع في عقولهم، من المهم أن نتعامل مع مخاطرها الأخلاقية الفريدة، وان لا يتم التركيز على صناعة مليارات الدولارات من الخيال العلمي.
هناك أكثر من 200000 شخص حول

العالم يستخدمون بالفعل نوعا من رابط الحاسوب بالدماغ، ومعظمها لأسباب طبية. ولعل أشهر حالات الاستخدام هي غرسات القوقعة الصناعية، والتي تمكن الصم من السمع إلى حد ما.

حالة استخدام بارزة أخرى هي الوقاية من نوبات الصرع: يمكن للأجهزة الموجودة مراقبة نشاط إشارات الدماغ للتنبؤ بالنوبات وتحذير الشخص حتى يتمكن من تجنب أنشطة معينة أو تناول الأدوية الوقائية. اقترح بعض الباحثين أنظمة لا تكتشف النوبات فحسب، بل تمنعها من خلال التحفيز الكهربائي.

أدت التحسينات الأخيرة في الذكاء الاصطناعي ومواد الفحص العصبي إلى جعل الأجهزة أقل توغلاً وأكثر قابلية للتوسع، الأمر الذي اجتذب بطبيعة الحال موجة من التمويل الخاص والعسكري. تعد شركات البارادروميكس Paradromics وبلاك روك نيوروتيك Blackrock Neurotech وسنكرون Synchron مجرد عدد قليل من الشركات المتنافسة التي تعمل على ابتكار أجهزة لمعالجة الأشخاص المصابين بالشلل.

في أيلول/سبتمبر 2022، حصلت شركة ماجنوس الطبيةMagnus Medical على موافقة من إدارة الغذاء والدواء الامريكية لإجراء علاج موجه لتحفيز الدماغ لمقاومة اضطراب الاكتئاب الشديد، وفي نوفمبر الماضي، كشفت شركة ناشئة تدعى العلوم Sciences عن مفهوم لواجهة كهربية حيوية للمساعدة في علاج العمى.

قدرت شركة جراند فيو للأبحاث Grand View Research لاستخبارات السوق العالمي بأن زراعة الشرائح في الدماغ تقدر بـ 4.9 مليار دولار أمريكي في عام 2021، وتوقعت شركات أخرى أن الرقم يمكن أن يتضاعف بحلول عام 2030.

في الوقت الحالي، تم تقييد رابط الحاسوب بالدماغ في المجال الطبي، ولكن تم اقتراح مجموعة واسعة من الاستخدامات غير الطبية لهذه التكنولوجيا. وصف البحث المنشور في 2018[11] المشاركين الذين يستخدمون رابط الحاسوب بالدماغ للتفاعل مع العديد من التطبيقات على أجهزة الجوال المحمول الذي يستخدم نظام أندرويد، مثل الطباعة والمراسلة والبحث في الويب من خلال تخيل الأعمال المطلوبة ذات الصلة. كما هناك المزيد من التطبيقات التخمينية مثل ممارسة ألعاب الفيديو أو التلاعب بالواقع الافتراضي أو حتى تلقي مدخلات البيانات مثل الرسائل النصية أو مقاطع الفيديو مباشرة، متجاوزةً الحاجة إلى شاشة. قد تبدو هذه مثل الخيال العلمي، ولكن الحقيقة هي أننا وصلنا إلى نقطة حيث بدأت الحواجز الثقافية والأخلاقية لهذا النوع من التكنولوجيا تتفوق على الحواجز التقنية.

لكن ليست كل التغييرات التي وجدها الباحثون مفيدة. في المقابلات مع الأشخاص الذين خضعوا لمؤشرات رابط الحاسوب بالدماغ، حذر المتخصصون في أخلاقيات الأعصاب التطبيقية من بعض التأثيرات الغريبة. حيث أشاروا الى: "مفاهيم الشخصية، والهوية، والفاعلية، والأصالة، والاستقلالية، والذات - هذه أبعاد مدمجة وغامضة ومبهمة للغاية. لا يوجد توافق حقًا على ما يقصد بها من معاني، ولكن هناك حالات من الواضح فيها أن رابط

الحاسوب بالدماغ قد أحدث تغييرات في الشخصية"[12].

عبر العديد من الدراسات، لاحظوا بأن المرضى أبلغوا عن مشاعر عدم التعرف إلى أنفسهم، أو ما يشار إليه عادة باسم "القطيعة" في البحوث. و"إنهم يعرفون أنهم هم أنفسهم، لكن الأمر ليس كما كان قبل الزرع"(12). أعرب البعض عن شعورهم بامتلاك قدرات جديدة لا علاقة لها بما تم زرعه.

في حين أن بعض الاغتراب يمكن أن يكون مفيدا - إذا أدى إلى شعور صحي باحترام الذات، على سبيل المثال - فإن الحالات السلبية، المعروفة باسم الاغتراب المتدهور، يمكن أن تؤدي إلى محاولات للانتحار.

بالنسبة للأشخاص الذين يستخدمون رابط الحاسوب بالدماغ للمساعدة في وجود قيود طبية كبيرة، فمن المنطقي أن يكون للعلاج تأثير نفسي إيجابي. ولكن عندما يتعلق الأمر بالتفكير في استخدام رقائق الدماغ للاستخدام الشائع، فهناك الكثير من القلق بشأن الجوانب السلبية.

في بعض الأحيان، يمكن للمريض الاعتماد كثيرًا على أجهزته بحيث يشعر أنه لا يمكنه العمل بدونها. فمثلا إن قسما من المشاركين في الدراسة، عانوا من الاكتئاب عند فقدانهم دعم أجهزتهم وإزالتها، وغالبا ما يكون السبب هو انتهاء فترة التجربة المعينة أو نفاد التمويل.

يزداد هذا النوع من الاعتماد تعقيدا بسبب حقيقة أن رابط الحاسوب بالدماغ يصعب دعمها ماليًا والحفاظ عليها، وغالبا ما تتطلب جراحة دماغية لإزالتها وإعادة زرعها.

نظرًا لأن رابط الحاسوب بالدماغ لا تزال إلى حد كبير في المرحلة التجريبية، فهناك نقص في المعايير العالمية أو الدعم المالي المستقر، والعديد من الأجهزة معرضة لخطر فقدان التمويل بشكل مفاجئ. يمكن للمتبنين الأوائل أن يضطرب إحساسهم بالذات بسبب مشكلات سلسلة التوريد أو تحديثات الأجهزة أو إفلاس الشركات الموردة.

يمكن لأي شخص أن يتعلم الكثير من خلال دراسة موجات دماغك، وإذا تمكن أحد المتطفلين من الوصول إلى بياناتك، فيمكنه قراءة عقلك، بمعنى ما، من خلال البحث عن تعبيرات محددة لنشاط إشارات الدماغ.

في حين أننا ما زلنا بعيدين عن المستقبل الذي تكون فيه العقول مترابطة إلكترونيًا، فإن النمو المتسارع للصناعة يزيد من إلحاح الاعتبارات الأخلاقية التي كانت مقيدة في السابق بالخيال العلمي. إذا كانت شريحة الدماغ قادرة على تغيير الأجزاء الرئيسية من شخصيتك، فلا ينبغي للشركات أن تتسرع في وضعها في أذهان الناس. خصوصا وان التطور الخارق في المعالجات الالكترونية المبنية على اللكونتوم يقترب من نهايات إنجازه؛ وما قد يوفر ذلك من **قدرات حوسبة خارقة، توفر إمكانيات لذكاء اصطناعي لا يمكن حتى مقارنتها بالقدرات الحالية للذكاء البايولوجي البشري.**

لمن تتوفر هذه التقنيات؟

يلاحظ من المخطط أعلاه بإن تقنيات الذكاء الاصطناعي، والتعديل الجيني، والمعالجات الالكترونية التي تصمم على أساس هذه

التقنيات؛ إذا ما استخدمت ودمجت في جسم الإنسان فإنها ستوفر إمكانيات بيولوجية خارقة غير مألوفة وجديدة بالكامل على القدرات البيولوجية الطبيعية عند البشر. كما إن استخدامها هو خارج التطور الطبيعي مما سينتج عنه بشر يختلفون عنا كما اختلافنا عن الشمبانزي.

كما إن هذه التقنيات، نتيجة كلفها الخرافية، متوفرة إلى طبقة اجتماعية من خارقي الثراء دون سواهم.

ما يوصي به المتخصصون

أننا بحاجة إلى الحفاظ على إعادة تأكيد أهمية الناس وتنوع تجاربنا الحية في محادثاتنا حول التكنولوجيا والمستقبل. فمن السهل الحصول على إغراءات من الإمكانات الجديدة والعجائب الموعودة. هناك الكثير من الضجيج وليس الكثير من النقاش الذي يمكن قياسه. لذلك حان الوقت لإجراء نقاشات حول مستقبلنا الرقمي والبشري الممكن، وعن العالم الذي قد نرغب في تحقيقه معا، وما هي الإجراءات التي يمكننا اتخاذها، فرديا وجماعيا؟

سوف نحتاج إلى ممارسين جدد لترويض وإدارة العالم الرقمي الناشئ من البيانات، مع تلك التي تنظم تلك البيانات وتحكمها. وبدلا من مجرد تعديل الاختصاصات القائمة، نحتاج إلى تطوير مجموعة جديدة من الأسئلة ووجهات النظر الحرجة، والعمل على إيجاد كيفية نقل إنسانيتنا في سياق هذا العالم الرقمي الذي تحركه البيانات والذي يتطلب النقاشات عبر التخصصات المختلفة.

نحن بحاجة إلى الاستثمار في النقاشات الصعبة التي تعالج الأخلاق والقيم والفلسفة الثقافية الكامنة وراء هذه التكنولوجيا الرقمية الجديدة في الحياة عموما. لدينا قدر كبير من القلق بشأن مستقبلنا ودور التكنولوجيا فيه. نحن نتحمّل مسؤولية للتحدث أكثر عن الدقة في درجات الاختلاف.

السؤال هنا؛ كيف سيتم التعبير عن إنسانيتنا في عالم تشكله الخوارزميات التي ليس لدينا أي رأي فيها، ولا يوجد لدينا أية بصيرة عنها؟ هل ينبغي أن تكون هناك مساءلة وشفافية وانفتاح؟ وإذا كان الأمر كذلك، لمن؟ وكيف نبين ذلك؟

هل نريد، كما يقال، أن "نكون أو لا نكون" في هذا العالم الذكي الجديد الذي يعتمد على البيانات، والسريع والمرتبط ببعضه البعض، أو مجرد أن نكون مستعمرات أخرى مع بعض الامتيازات لإمبراطورية تجارية عابرة للوطنية؟ بطبيعة الحال، فإنها ليست بهذه البساطة، ولا ينبغي أن تكون كذلك. لكن الخوارزميات والعالم الذي يرتكز على البيانات والذي يساعد على بنائها، هي بالأساس مظاهر لقيم ثقافية ومنطق نشأ في أماكن ذات سياقات خاصة جدا بها. في حين أنه ومن المؤكد أنه في العديد من بلدان العالم هناك حاليا نقاش قوي حول من سيحدد مجموعة قيمنا، أنه من الآمن القول بأننا قد نرغب في زرع قيمنا في العالم الرقمي القائم على البيانات. هذه القيم تشمل أشياء مثل الإنصاف، والمساوات، والعدالة الاجتماعية لمجتمع مدني. في الواقع، لكنها لم تخل من تحدياتها التي تشمل التنظيم والرقابة والمساءلة، ولا تزال هناك أسئلة مفتوحة حول نمذجة القيم.

لا يزال بإمكاننا تشكيل عالم مزدهر، وجعله مكانا يعكس إنسانيتنا وثقافاتنا واهتمامنا. لقد فعلنا ذلك من قبل، ويمكننا أن نفعل ذلك مرة أخرى. وهو يتطلب أن نخوض نقاشات حول

دور التكنولوجيا في مجتمعنا، وعن الطريقة التي نريد أن نسير بها كإنسانيين في العالم الرقمي. إن علينا التزاما أخلاقيا بأن نفعل ذلك، من أجل تشكيل عالم يمكننا جميعا أن نعيش فيه.

لا يزال بإمكاننا تنظيم هذه التقنيات الجديدة، لكن يجب علينا التصرف بسرعة. في حين أن الأسلحة النووية لا تستطيع اختراع أسلحة نووية أكثر قوة، لكن يمكن للذكاء الاصطناعي أن يصنع ذكاءً اصطناعيًا أقوى بشكل كبير. تتمثل الخطوة الحاسمة الأولى في المطالبة بفحوصات أمان صارمة قبل طرح أدوات تقنية قوية في المجال العام. مثلما لا تستطيع شركة الأدوية إطلاق عقاقير جديدة قبل اختبار آثارها الجانبية قصيرة المدى وطويلة المدى، لذلك لا ينبغي لشركات التكنولوجيا إطلاق أدوات تقنياتها الجديدة قبل أن تصبح آمنة.

نحتاج إلى ما يعادل إدارة الغذاء والدواء لتكنولوجيا جديدة، ونحتاجها منذ الأمس حتى قبل الآن. من شأن عمليات النشر غير المنظمة للتقنيات الجديدة أن تخلق فوضى اجتماعية، الأمر الذي من شأنه أن يفيد المستبدين ويدمر مجتمعاتنا. عندما يخترق الذكاء الاصطناعي اللغة، يمكن أن يدمر قدراتنا على إجراء محادثات هادفة، وبالتالي تدمير واقعنا. لقد واجهنا للتو ذكاءً غريبا هنا على الأرض. لا نعرف الكثير عنه إلا أنه قد يدمر حضارتنا. يجب أن نوقف النشر غير المسؤول لأدوات الذكاء الاصطناعي في المجال العام وأن ننظم الذكاء الاصطناعي قبل أن ينظمنا. وأول تنظيم هو جعل الذكاء الاصطناعي أن يفصح، إلزاميًا، عن أنه ذكاء اصطناعي. إذا كنت تجري محادثة مع شخص ما، ولا يمكنك معرفة ما إذا كان هذا الشخص إنسانًا أم ذكاءً اصطناعيا – فهذه هي نهاية لنا.

هوامش

1-How CRISPR Gene Editing May Help Reverse Vision Loss. Eileen Bailey, March 17, 2023, www. .healthline.com

2- https://www.science.org/doi/10.1126/science.abo4326

3- A Deep Learning Approach to Antibiotic Discovery: Cell

4- Dating app based on genetic matching not eugenics, scientist says | Genetics | The Guardian

5-https://www.independent.co.uk/news/science/rockfish-pacific-ocean-longevity-genes-b1956376.html

6-https://www.independent.co.uk/news/science/common-cold-could-be-stopped-in-its-tracks-thanks-to-science-breakthrough-10024743.html

7-https://www.independent.co.uk/news/science/scientists-breed-genetically-modified-moths-to-curb-global-pest-problem-costing-farmers-billions-of-dollars-10395257.html

8-https://www.independent.co.uk/news/science/breakthrough-with-stem-cells-could-end-need-for-transplants-8809955.html

9-https://www.independent.co.uk/news/science/us-military-gm-plants-spy-gentically-modified-research-development-sensors-environments-a8071646.html

10-https://theconversation.com/the-fda-finally-approved-elon-musks-neuralink-chip-for-human-trials-have-all-the-concerns-been-addressed-206610

11-Cortical control of a tablet computer by people with paralysis | PLOS ONE

12-https://www.businessinsider.com/brain-chips-elon-musk-neuralink-change-personality-behavior-computer-tech-2023-2?r

نحو سياسة نقل عادلة اجتماعيا

د. رعد موسى الجبوري

ما هي سياسة النقل العادلة اجتماعيا؟

هل هناك سياسة نقل أو تنقل تختلف عن المقاربات السياسية الأخرى بسبب توجهها الاجتماعي؟ النظرة التي شاعت ولعقود من الزمن ان سياسة النقل، في الغالب، هي مجال عملي بحت بعيد عن احقاق العدالة بين فئات المجتمع، وكان هدف السياسيين، دوما، هو التركيز على بناء أو تجديد البنى التحتية، فعليهم توفير البنى التحتية لوسائل النقل بما يتماشى مع تغير الطلب [1]. ولم تلعب الاختلافات السياسية والاجتماعية أي دور ملحوظ، بل ربما أنها تراجعت الى الخلف وتلاشت في هذا المجال. واقتصرت مراعاة الجوانب الاجتماعية على شكل المطالبات بأجور مناسبة لوسائل النقل العام أو بشكل أعم المطالبة بتطويرها كجزء من تقديم الخدمات العامة، واصبحت نتيجة هذا النهج العملي ظاهريا، هي التركيز على جعل السيارة الخاصة وسيلة النقل السائدة [2و3].

ولكن الوعي الاجتماعي يتطور وبحق، فاخذت أجزاء كبيرة من المجتمع العالمي تطالب بـ"تغيير سياسة النقل" كامتداد للمطالبة بتغيير سياسة الطاقة، فيتم ذكر حصة قطاع النقل من انتاج الغازات الضارة بالبيئة، إضافة الى نقاشات تدور داخل المدن حول نوعية الحياة [4]. ومع ذلك، فنادرا ما يتم التعبير بصراحة عن مطالب العدالة الاجتماعية في رؤية سياسية للنقل المستقبلي، وفي الواقع، لا يشارك الأشخاص ذوو القوة الشرائية المنخفضة غالبا وبشكل فعال في تطلعات مجتمع السيارات، ولا في أشكال التنقل الجديدة باهظة التكلفة، بالرغم من إن النقل والتنقل يلعب دورا مهما في بيئتهم المعيشية [5]. فأي وسيلة نقل يجب دعمها عندما تكون موارد الفئات العامة من الشعب شحيحة؟ أو أي وسيلة نقل يجب ان تحظى بمساحة أكبر وكيف يجب تصميم الإطر التنظيمية لها؟ إن هذا الجمهور بحاجة إلى صوت قوي في هذه المناقشة حتى يتمكن من تمثيل مصالحه بشكل فعال.

سياسة نقل عادلة اجتماعيا

سياسة النقل العادلة اجتماعيا تمنح صوتا للفئات الأضعف في المجتمع وتساعد على تخفيف التفاوت والاختلال في سد الحاجات بين فئات المجتمع، وتهدف الى توفير امكانيات نقل للغالبية العظمى من افراد المجتمع. في هذا الموضوع نركز على أربعة أبعاد، ونأمل

ان هذا سيطلق نقاشا أساسيا، يهدف إلى صياغة سياسة نقل مستقلة تستند على العدالة الاجتماعية، وتعمل على صياغة سياسة فعالة لصالح غالبية الجمهور.

1 - تمكين الحد الأقصى من المشاركة الاجتماعية

ان للأشخاص من ذوي الدخل المنخفض والأشخاص ذوي القدرة المحدودة على الحركة - مثل كبار السن والأطفال والشباب والأشخاص من ذوي الإعاقة - كامل الحق في المشاركة في الأنشطة الاجتماعية. كما ان تمكين أقصى قدر من المشاركة يعني ضمان تلبية جميع المتطلبات المرتبطة بذلك، فالحد الأقصى من المشاركة يعني أيضا توفير خيارات جذابة وغير مكلفة لوصول الاشخاص الذين يعيشون بالأساس على اجر عملهم إلى العمل، ولا يملكون احتياطيات مالية، وتتطلب المشاركة القصوى ايضا اتاحة وصولهم إلى المعلومات حول التنقل المنظم اجتماعيا، لتمكين جميع الناس من السفر والتنقل. فالجوهر الاجتماعي لتمكين الحصول على المعلومة ليس قيمة متبقية (فضلات) تضمن الحد الأدنى المطلق من مستوى التنقل للأشخاص الأشد فقرا والأكثر إعاقة في الحركة، بل يجب ان يضمن النقل العادل اجتماعيا عرضا جذابا قائما على تلبية احتياجات الجميع. فمن خلال وضع الفئات الأكثر ضعفا في مركز الاهتمام وتلبية احتياجاتهم بالكامل، سيتوفر تلقائيا عرض كامل يناسب الجميع. وهذا يتطلب منظومات نقل مترابطة وعادلة اجتماعية، بمعنى انظمة متدرجة تتكون من نظام على مستوى العراق، يليه نظام على مستوى المحافظات والاقاليم، اضافة لنظام ضمن البلديات وداخل المدن، بحيث يتيح ذلك توقيتا متناسقا لوسائل النقل المختلفة لضمان الوصول إلى أي مكان في البلد بشكل مريح من دون الحاجة إلى فترات انتظار طويلة للتنقل بين وسائط النقل في انظمة النقل على المستويات المختلفة.

وهنا تتحمل المؤسسات الحكومية المعنية مسؤولية وضع قوانين وخطط للنقل لتصميم هذه النظم، وينبغي تصميم حركة النقل المنتظمة بطريقة تعطي الأولوية لوسائل النقل الأكثر منطقية اجتماعيا، وهذه بالاساس هي السكك الحديدية وأنظمة النقل العام التقليدية. كما تتم إضافة عناصر النقل الجديدة كملحق لها. ويجب تلبية احتياجات التنقل في المناطق الريفية أيضا من خلال جعل وظائفها تناسب الناس، ويمكن أن يكون دمج نظام النقل بالسيارات الخاصة في منظومة وسائل النقل العام بمثابة حل أيضا. ولتحقيق ذلك، تحتاج البلديات إلى منحها مزيدا من الحقوق والى موارد مالية أفضل.

2 - توفير أفضل نوعية حياة للجميع

التأثير المتبادل بين سياسة الإسكان والنقل،

هنا ينبغي الاشارة الى وجوب تكيف سياسة الاسكان مع سياسة النقل وليس العكس. فلا يجوز ان تقوم سياسة النقل الاجتماعية بحل الأخطاء التي تنشأ عن سياسات سوء تخطيط استخدام الأراضي أو بناء المساكن العشوائية أو التخطيط السكاني غير الصحيح. ولكي يظل النقل الاجتماعي في متناول الجميع، ومن أجل استخدام منظومات النقل المترابطة، يجب توفير المعلومات عن حركة وسائط النقل (مثل: اوقات ومسار تحركها او اعطاء بدائل لها وغير ذلك) من قبل المؤسسات العامة، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها ضمان التواصل الخالي تماما من العوائق وبما

يتوافق مع متطلبات أمن البيانات. كما يجب أن تكون عروض وسائط النقل (مثل نوع وسيلة النقل وكلفها وطاقتها الاستيعابية والبدائل المتاحة) باستخدام الإنترنت ومدعومة بقنوات الهواتف النقالة لأنه ليس لدى الجميع وسائط يمكن الوصول إليها عبر الإنترنت أو ربما لا يرغبون هم في استخدامها. لان من مهام سياسة النقل توفير أقصى نوعية وراحة وجودة حياة للجميع. وايضا فان سياسة النقل العادلة اجتماعيا تعني تمكين جميع الناس، بغض النظر عن الدخل والوضع الاجتماعي، من التمتع بجودة حياة عالية خالية من انبعاث غازات العوادم والضوضاء الضارة. وعلى وجه الخصوص، يجب أولا وقبل كل شيء تقليل النقاط والتقاطعات التي تسبب الانبعاثات نتيجة حركة المرور. إن أساس العمل من أجل نقل عادل اجتماعيا وفعال لا ينحصر فقط في القضاء على الآثار المباشرة للانبعاثات، ولكن عليه أيضا خلق بيئة صالحة للعيش (مناطق السكن). كما يعتبر تقليل انبعاثات الغازات الضارة و ثاني أكسيد الكربون أمرا ضروريا للمجتمع ككل. إن الفئات ذات الدخل المنخفض تنتج أقل كمية من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون لعدم امتلاكهم سيارات خاصة، وعلى هذه الخلفية، فمن غير المقبول أن تؤثر اضرار حركة المرور في المدن والبلدات بشكل خاص على الأشخاص الذين لا يستطيعون شراء فيلا أو منزل مع شرفة في الضواحي الراقية. ان الممارسات الحالية تدفع الفئات ذات الدخل المنخفض الى سكن المناطق الواقعة على الطرق الرئيسية، والتي تعتبر غير جذابة وغير صحية بسبب كثافة مرور وسائل النقل الالية الخاصة. ان من مصلحة المواطن ـ ومن حقه المشروع ـ تقليل الانبعاثات (الغازات والضوضاء) حول منزله، وينبغي تحديد استخدام السيارات حسب حاجة المجتمع وبتوفير نظام نقل عام يعتبره المجتمع كافيا. وعلى أي شخص لا يريد الاستغناء عن سيارته الخاصة التعايش مع القيود المفروضة على أماكن وقوف السيارات وتحديد السرعة ووضع حدود لانبعاث الغازات والضوضاء، ويجب استخدام الحوافز الاقتصادية بزيادة رسوم مواقف السيارات وأنظمة جباية الرسوم، لأن جميع مستخدمي الطريق يمكنهم أيضا استخدام بدائل النقل الرخيصة والمدعومة اجتماعيا. وبهذه السياسة، يتم تعزيز أنظمة النقل العامة وخلق توازن بين متطلبات فئات المجتمع المختلفة، فتزايد عدد مستخدمي النقل العام من جميع الطبقات يؤدي إلى اعتراف اجتماعي أكبر بأنظمة النقل العامة، وبالتالي إلى توازن المصالح لصالح المحرومين اجتماعيا والسكان الذين يعملون بكدح.(6)

ويمثل ''التنقل'' من المناطق النائية مشكلة خاصة في هذا السياق. فقد أدى الضغط على أسعار المساكن إلى دفع العديد من الناس إلى مغادرة المناطق الحضرية القريبة من مراكز العمل إلى الضواحي. كما دفع شرائح كبيرة الى بناء ما يسمى العشوائيات. ويشكل هؤلاء المتنقلون جزءا من المشكلة التي تواجهها الأسر ذات الدخل المنخفض، فينبغي منحهم بديلا من خلال النقل الاجتماعي الميسر. ويجب توفير عروض وبدائل لوسائط وانظمة نقل مختلفة لكل من لا يستطيع الاستفادة من النقل الميسر الاجتماعي بسبب سياسات السكن الفاشلة في الماضي. ومستقبلا يجب تطبيق ما يأتي: عدم اخضاع سياسة النقل لتصحيح سياسة الاسكان الفاشلة. ولا يجب تطوير مناطق استيطان جديدة إلا بعد توفير البنية التحتية اللازمة للنقل. كما لا بد من تعديل المعايير الحالية التي تنسب الفوائد

إلى التكاليف الاقتصادية فقط، فينبغي تجنب السكن المترامي والمتباعد الأطراف، فسيكون من الصعب ربط مناطق السكن بواسطة أنظمة نقل مدعومة وممولة اجتماعيا ولا يتم إلا بجهد لا يتناسب مع الفوائد. وهناك حاجة إلى أدوات لتخفيف العبء عن السكان قرب المطارات والطرق السريعة والطرق الرئيسية والسكك الحديدية، وينبغي وضع قيود كبيرة على السرعة وتنفيذ حظر قيادة (مؤقت) لفئات معينة من المركبات وغيرها من التدابير التي يمكن تنفيذها. ومن الضروري أيضا تكييف الإطار القانوني. على سبيل المثال وضع قانون مراقبة وتحديد انبعاثات الضوضاء والغازات الضارة لتحقيق أهداف سياسة نقل عادلة اجتماعيا.

بشكل عام، يجب ابعاد محاور وتقاطعات المرور عن المناطق السكنية، قدر الإمكان، لتصبح هذه المناطق ذات جودة لائقة بالسكن. ويجب أن يراعى في كل صيانة وتجديد وتحويل للطرق وللتقاطعات المرورية الرئيسية داخل المدينة مبدأ وشرط إسترجاع أجزاء من المساحات لحركة الناس لتحسين نوعية المعيشة والسكن، كما يجب إعادة انشاء مسارات السيارات لتصبح صديقة للبيئية حيثما أمكن.

3 - تحقيق اقصى قدر من الكفاءة الاجتماعية

تهدف سياسة النقل الاجتماعية لتحقيق قفزة نوعية في موثوقية وسائل النقل وإمكانية التنبؤ بحركتها لجميع الأشخاص في المجتمع. والمقصود هو خلق ترابط متوازن بين مختلف أنظمة النقل حتى يتمكن الجميع من الوصول إلى وجهتهم بشكل أسرع وبجودة أفضل، وبشكل يمكن المواطنين من التخطيط لمسار نشاطات يومهم، من خلال توفير النقل المنتظم للجميع.

وهذا ينطبق على حركة النقل الجوي والمائي والسكك الحديدية والسيارات وجميع مكونات النقل الجديدة التي يقدمها المجتمع. ومع ذلك، فإن الحد الأقصى من الكفاءة الاجتماعية يتطلب أيضا تحديد الأولويات في توسيع وصيانة الأنظمة وفي التحكم في حركة المرور بناء على التأثيرات الاجتماعية ايضا. وبتحقيق هذا يتحقق أقصى قدر من الكفاءة الاجتماعية كما سيؤدي أيضا إلى الاقتصاد في استهلاك الموارد.

إن الاختناقات المرورية المستمرة على الطرق والشحة المتزايدة السائدة حاليا في تمويل وسائل النقل العام والسكك الحديدية وانعدام شبكة نقل بيئية (وخاصة مسارات الدراجات الهوائية) غير مرضية للجميع. فاضافة للعواقب غير الحميدة، فإن التوسع في انشاء الطرق سيصل إلى حد الاختناق لأن مساحة اي بلد محدودة. كما قد أظهرت التجربة أيضا أن توسيع الطرق ليس حلا، حيث يتم استغلال القدرات الجديدة بالكامل بجذب مستخدمين إضافيين. ولا يمكن أن يكمن الحل إلا في توسيع وتحسين أنظمة النقل العام والجماعية. ولا يكفي استمرار الوضع الراهن وتجميله بتحسينات طفيفة. فانظمة النقل العام والجماعية تحتاج إلى إعادة تنظيم شاملة حتى تتمكن من العمل كنظام يدعم نقل عادل اجتماعيا بتوسيع كبير في العرض - بما في ذلك المناطق الريفية - وتحسين الجودة والنوعية وترابط امثل بين شبكة بيئية وبين مراكز التنقل وتحسين مستمر في موثوقية توفر وسائط النقل ومواعيد وصولها (المرونة). ولن يتحول الناس إلى النقل الجماعي إلا إذا كانت الأنظمة تعمل بشكل موثوق في جميع الأوقات. وينطبق هذا بشكل خاص على شرائح المجتمع التي تستطيع، في ظل ظروف مختلفة، اللجوء إلى وسائل النقل الفردية الآلية.

وبافتراض وجود نظام فعال للنقل الاجتماعي العادل، يجب تحميل ثقل التكاليف الاجتماعية العامة على مالكي السيارات الفردية. إنّ حساب التكلفة الحقيقة يجب ان لا يأخذ في الاعتبار الخصائص البيئية فحسب، بل أيضا حجم استعمال واستهلاك مساحات الأراضي. فالسيارات الخاصة الثقيلة (خاصة ما يسمى بسيارات الدفع الرباعي)، والتي تشغل مساحة عامة أكبر من السيارات التقليدية، تسبب المزيد من الانبعاثات بسبب وزنها المتزايد ومقاومتها الكبرى للهواء، وهو ما يمثل خطورة أكبر بكثير على المشاة وراكبي الدراجات، ويجب أن تغطي الرسوم تكاليف البنية التحتية المرتفعة بشكل خاص بسبب وزنها والتكاليف الناتجة عن ذلك. إن سياسة مساواة وانشاء مسارات متجاورة لأنواع مختلفة من نظم النقل لن تكون فعالة إذا كان هناك نظام أساسي مناسب اجتماعيا، لذلك يجب زيادة تسعير السيارات الخاصة بما يعكس كامل تكاليفها الاجتماعية الحقيقية كالتكاليف الناجمة عن الأضرار البيئية وعن الحوادث المرورية، وتخفيض الكلف لوسائل النقل الجديدة المدمجة في نظام نقل مترابط. وينبغي التفكير بفرض تسعيرة ديناميكية متحركة لاستخدام الطرق من قبل السيارات الخاصة من أجل تجنب الاختناقات المرورية وتأثيرها الاجتماعي السلبي. كما يجب استخدام مداخيل هذه التسعيرة والوفورات الناتجة عن إلغاء مزايا السيارات (فرض ضريبة الديزل، وضريبة على سيارات الشركات الفاخرة المميزة الخ) لتمويل نظام وسائل النقل الاجتماعية [7]. ان سياسة النقل المستندة إلى معايير الكفاءة الاجتماعية ستؤدي إلى انخفاض كبير في انبعاثات الغازات الدفيئة.

4 - ضمان أقصى قدر من الأمن والسلامة

ان 11 ألفاً و523 حادثا مروريا في العراق أودى - خلال 2022 - بحياة 3021 شخصا وحده. وهذه حجة مثيرة تدفع للتفكير بمزيد من السلامة [8]. وعند النظر إلى عدد الضحايا، يتجلى البعد الاجتماعي أيضا: فحوالي ثلث الحوادث دهس اي ان المصابين هم من المشاة أو من راكبي الدراجات. يعني من الأشخاص الذين لا يشكلون أي تهديد بأنفسهم مع ذلك يصبحون ضحايا حاجتهم لحركتهم. وبغض النظر عن "مسألة الذنب"، فإن هذا التهديد الذي تشكله حركة مرور السيارات الآلية لم يعد من الممكن قبوله. ان الحق في السلامة الجسدية حق مشروع للجميع، وبشكل خاص ينطبق هذا على أولئك الذين لا يعرضون أي شخص للخطر، وهم بالدرجة الأولى المشاة، ويجب ان يكون الهدف تحقيق "صفر وفيات" في حركة المرور. إن الخطر الهائل طويل المدى الذي يتعرض له الأشخاص على الطريق دون أي خطأ يرتكب من جانبهم يجب أن ينتهي؛ فحماية الأضعف هو معيار السلامة على الطرق! ولتحقيق هذه الغاية، يجب ضمان تطبيق القواعد والقوانين الحالية بحزم في جميع أنحاء البلاد، ويجب معاقبة المخالفين الذين يركنون مركباتهم في مناطق حظر وقوف السيارات (مثل مداخل المستشفيات وغلق حارات الطوارئ وعرقلة حركة المواطنين في الاماكن العامة وغير ذلك) ومخالفي الانعطاف واتجاه السير والسرعة العالية والحالة التقنية للمركبة. وينبغي أيضا التعبير عن عدم التسامح مطلقا في تشديد التحذيرات والغرامات، والتي ظلت حتى الآن غير فعالة نسبيا بحسب المعايير الدولية. ولضمان عدم إضعاف الثقة في امن نظام النقل، يجب زيادة تواجد وحضور قوات

الأمن. وتحتاج مكاتب الشرطة واجهزة النظام العام إلى تجهيزات وتنسيق أفضل لأنشطتها في حركة المرور الثابتة والمتحركة حتى يمكن منع الانتهاكات والمخالفات ومعاقبة مرتكبيها بشكل أكثر فعالية (مطلوب أيضا المزيد من الموظفين). وبشكل عام، يحتاج المجتمع إلى أن يصبح أكثر وعيا بأن المخالفات المرورية هي انتهاكات خطرة للقواعد التي لن يتم التسامح معها. كما ان الأمن والسلامة مسألة تتعلق بحالة الطرق والبنية التحتية أيضا، لذلك يجب وضع حد للحالة الإنشائية والهيكلية السيئة للطرق والجسور والسكك ومواقف محطات النقل واشارات المرور في جميع أنظمة النقل. ومن أجل تحقيق نتائج سريعة نحو استراتيجية "صفر وفيات"، من الضروري أيضا إعادة تنظيم مناطق المرور. وبشكل خاص حماية اكثر لحركة الدراجات وحركة المشاة من خلال ممرات منفصلة، ويجب تنفيذ تطوير واجراء تحسينات على إشارات المرور للمشاة بما يتناسب مع الخبر العالمية المتراكمة في هذا المجال؛ ومن المطلوب فرض حدود سرعة أكثر وضوحا وصرامة (في المدينة وعلى الطرق الريفية والطرق السريعة). وتعد السلامة الموضوعية والذاتية من القضايا المركزية عند استخدام وسائل النقل العام. ولذا فهناك حاجة إلى عدد من التدابير لتحسين السلامة في المركبات وفي المرافق (محطات الانتظار والركوب)، ويمكن للحلول الهيكلية والمراقبة بالفيديو أن تدعم ذلك.

تطبيق سياسة النقل العادلة اجتماعيا على جميع مستويات الدولة

لا يمكن تنفيذ سياسة النقل الاجتماعية بنجاح إلا إذا كانت جميع مستويات الدولة أكثر مشاركة ونشاطا من ذي قبل. فتحتاج الحكومة المركزية والمحافظات والبلديات إلى أدوات تخطيط وتنفيذ متكاملة، الهدف هو منح جميع المجموعات السكانية المحلية الفرصة لإبداء رأيها والمساعدة في تشكيل عملية النقل، وينبغي أن يفهم النقل كوحدة متكاملة شاملة. ويجب مراعاة تأثيرات حركة المرور على الناس والكفاءة الاجتماعية ومسألة السلامة معا. إن بذرات نهج أولي لتطوير قوانين النقل موجودة بالفعل وينبغي مواصلة متابعتها. ومن أجل تلبية هذا المطلب وإعطاء الفرصة على مستوى المحافظات لتنفيذ النقل الاجتماعي، فلا تكفي أدوات التمويل الحالية، ولذلك يجب السعي للتوصل إلى اتفاق اجتماعي يعمل على تمكين تمويل التوسع الهائل في تطوير البنية الأساسية للنقل، ويمكن تمويل تكاليف تشغيل النقل الاجتماعي من خلال الدخل الناتج عن تسعير طرق السيارات ورسوم مواقف السيارات. ولا يجوز ان نتوقع أن تكون هناك مناقشة سهلة حول هذه القضايا، وستواجه سياسة النقل التقدمية هذه الأسئلة بشجاعة. ولكن علينا الثقة في سياسة نقل مسؤولة وموجهة اجتماعيا. وإذا استطعنا أن ننقل ذلك إلى الناس في بلادنا بمصداقية وبمفاهيم واضحة كمشروع واعد للمستقبل، فإننا سنقنعهم أيضا بالحاجة إلى تمويل وتنفيذ هذه المشاريع.

خلاصة

من الضروري اتباع سياسة نقل ذات توجه اجتماعي وتجاوز فهمها كمجال تنفيذي بعيد عن احقاق العدالة بين فئات وطبقات المجتمع المختلفة، وان لا تقتصر هذه السياسة على المطالبات بأجور مناسبة لوسائل النقل العام أو بشكل أعم فقط بالمطالبة بتوفيرها كخدمة عامة. فسياسة النقل لا تؤثر فقط على انتاج الغازات الضارة والبيئة الطبيعية، بل ايضا على توفير العدالة الاجتماعية وديمومة البيئة المعيشية

للسكان. كما وان هناك تأثيرا متبادلا بين سياسة الاسكان وسياسة النقل، فينبغي الاشارة الى وجوب تكيف سياسة الاسكان حسب سياسة النقل وليس العكس.

وعلى سياسة النقل الاجتماعية تحقيق موثوقية عالية في وسائل النقل المتاحة وتوفر إمكانية معرفة حركتها لجميع الأشخاص في المجتمع، فمن الضروري خلق ترابط متوازن بين مختلف أنظمة النقل حتى يتمكن الجميع من الوصول إلى وجهتهم بشكل أسرع وبجودة أفضل وبشكل يمكن المواطن من التخطيط لمسار نشاطه. ومن خلال توفير النقل المنتظم للجميع، ويجب ان ينطبق هذا على حركة النقل على جميع مكونات النقل التي يقدمها المجتمع.

كما يجب توفير السلامة والامن في التنقل كحق للجميع، وينطبق هذا بشكل خاص على أولئك الذين لا يعرضون أي شخص للخطر، وهم بالدرجة الاولى المشاة، ويجب ان يكون الهدف تحقيق "صفر وفيات" في حركة المرور. ان معيار السلامة هو حماية الأضعف! ولتحقيق هذه الغاية، يجب ضمان تطبيق القوانين والقواعد الحالية في جميع أنحاء البلاد، ويجب فرض عقوبات على المخالفين لقواعد حظر وقوف السيارات الذين يعرقلون سلاسة حركة المواطنين ومخالفي الانعطاف والسرعة العالية، وينبغي أيضا التعبير عن عدم التسامح مطلقا في تشديد التحذيرات والغرامات، والتي ظلت حتى الآن غير فعالة نسبيا وفقا للمعايير الدولية. ولضمان عدم إضعاف الثقة في امن نظام النقل، يجب زيادة تواجد قوات الأمن.

ولا يمكن تنفيذ سياسة النقل الاجتماعي بنجاح إلا إذا شاركت جميع مستويات الدولة بنشاط وبشكل أكبر من ذي قبل. ولهذا تحتاج الحكومة المركزية والمحافظات والبلديات إلى أدوات تخطيط وتنفيذ متكاملة، يكون الهدف فيها هو منح جميع المجموعات السكانية المحلية الفرصة لإبداء رأيها والمساعدة في صياغة سياسة النقل وإجراءاتها العملية، وينبغي أن يتم فهم النقل كوحدة متكاملة شاملة.

هوامش

1- Sack D.; Straßheim H.; Zimmermann K., Renaissance der Verkehrspolitik; Politik- und mobilitätswissenschaftliche Perspektiven, 1. Auflage, Wiesbaden /Berlin, Verlag: Springer Fachmedien, 2023.

2- Schwedes O., Verkehrspolitik; Eine interdisziplinäre Einführung, 2. Auflage, Wiesbaden / Berlin, Verlag: Springer Fachmedien, 2018.

3- Stopher P.; Stanley J., Introduction to Transport Policy: A Public Policy View, 1st Edition, Cheltenham, Edward Elgar Pub, 2014.

4 - رعد موسى الجبوري، "دراسة إلى المنادين بزيادة السرعة وتيسير اقتناء السيارات، البحرين تحتل المرتبة الرابعة عالميا من حيث ضحايا حوادث المرور"، صحيفة اخبار الخليج، 15 ابريل 2017.

5- Daubitz S., Aberle C., Schwedes O., Gertz C.; Mobilität und soziale Exklusion; erste Auflage, Berlin, LIT Verlag, 2023.

6- Schwedes O., Verkehr im Kapitalismus, Bielefeld, Transcript Verlag, , 2021.

7- Sander H., Die Berliner Verkehrswende; Der Auto- Zur Mobilitätsgerechten Stadt, Berlin, Rosa-Luxemburg-Stiftung, 2020.

8 - حصيلة مفزعة.. العراق يعلن تسجيل 11 ألف حادث مروري تسبب بوفاة 3 آلاف شخص خلال 2022 - شفق نيوز (shafaq.com) (تمت زيارة الموقع بتاريخ 2023-9-22)

يهود العراق
من أحضان الشيوعية الى مشانق البعث

عرض: شميران اوديشو

صدر مؤخرا كتاب بعنوان (يهود العراق من أحضان الشيوعية الى مشانق البعث) من تأليف الدكتور سيف عدنان القيسي من اصدارات دار قناديل. صدر في 160 صفحة من القطع المتوسط في فصلين؛ يتناول الاول اثر اليهود في الحزب الشيوعي العراقي حتى عام 1950. والثاني يهود العراق مدة البعث الثانية (1968-1975).

سلطت الكتابات التاريخية والرسائل الاكاديمية عن تاريخ يهود العراق الاضواء على الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولكنها لم تبحث بنحو كبير من العناية الجوانب الاخرى من نشاطاتهم التي تتصل بالمشروع السياسي التنظيمي والانتماء الى الاحزاب السياسية في العهد الملكي.. من اجل ذلك ركز الكاتب في هذه الدراسة على الجانب السياسي لكشف الانتماء الايديولوجي لليهود وانخراطهم في صفوف الحزب الشيوعي العراقي السري ليجدوا ضالتهم في هذا الحزب الذي بدد لهم المخاوف الدينية والقومية والطائفية على الرغم من ان انتماءهم الديني جعلهم عرضة للملاحقة والاعتقال، بل الإعدام. وتعد حقبة الاربعينيات من ازهى سنوات صعود اليهود هرم الحزب بحيث تصدى اثنان منهم لسكرتارية الحزب ولم يكتفوا بذلك بل شكلوا عددا من المنظمات التي تعمل على تعزيز انتمائهم الوطني، بيد ان نشاط

اليهود سرعان ما اصطدم بعقبة قانون اسقاط الجنسية عنهم عام 1950.

كما تناولت الدراسة أوضاع اليهود منذ قيام ثورة 14 تموز 1958 وهي الحقبة التي تمتعوا خلالها بنوع من تخفيف القيود النسبية عنهم ولكن هذا الحلم هو الآخر لم يدم طويلا، ليعيش اليهود تحت ايديولوجية حزب البعث الذي بدوره ضيق الخناق عليهم ليكون ذلك دافعا كبيرا لمن تبقى منهم من اجل الهجرة عبر المناطق الكردية بتسهيلات من الحركة الكردية، نتيجة ما اصابهم

من سياسة البعث.

في مقدمة الكتاب يشير الكاتب الى ما نالته الكتابة عن تاريخ الطائفة اليهودية من استحسان لدى شريحة الباحثين، لأنها بقيت من المواضيع التي ما زال يبحث عنها الباحثون جاهدين تسليط الضوء على تلك الطائفة التي شرخت طوعا او اجبارا عن جسد المجتمع العراقي، محاولين البحث عن الاسباب التي دفعتهم للهجرة، تاركين ارثا يمتد لحقب تاريخية مثل فيها اليهود جزءا لا يمكن نكران وجوده في جميع اركان العراق .. في بغداد والبصرة ثقله الاقتصادي وفي الموصل لا يقل دورهم عن باقي الطوائف الاخرى في الاهمية. وفي النجف وكربلاء مزارات دينية. وفي شمال العراق تتجاذب تجمعاتهم على هذا الطرف من الجبل او ذاك.. كلها تجليات تدفع الباحث للتوقف عن مكامن وجود اليهود ومن ثم مغادرتهم بهذا الحدث الدراماتيكي الذي دونته سجلات مغادرتهم للعراق.. وتشبث وبقاء الالاف المتعددة ممن بقي قلبه ينبض بأرض العراق خوفا من المجهول الذي ينتظره في حال مغادرته. ومن جانب آخر هناك نقطة يجب التوقف عندها وهي بروز ظاهرة القمع والاذلال المتعمد في التعامل مع ابناء البلاد عن طريق مظاهر الاستبداد السياسي والقمع العسكري محاولا إثارة الفرقة الاجتماعية بين أفراد المجتمع العراقي بوسائل سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة كالحروب او الصراعات او الشلل الحزبية او العشائرية او الدينية او الطائفية او العنصرية ... الخ. وهذا ما وضع اليهود بين جملة من التناقضات الحكومية المتعاقبة التي رافقت دور اليهود في مسرح الحياة العامة والذي جعلهم بين خيارات صعبة بين البقاء وبين الهجرة لتجنب الوقوع في منزلقات خطرة غير محسوبة من قبل تلك الانظمة.

في الفصل الاول يشير الكاتب الى ما ناله تاريخ الحزب الشيوعي العراقي من اهتمام الباحثين وكتابة العديد من الرسائل والأطاريح العلمية عن تاريخ الحزب منذ تأسيسه والتي ركز غالبها على الجانب السياسي ودوره في الحركة الوطنية العراقية حتى عام 1979 . ولكونه ايضا شكل قطبا لأحد اهم القطبين الرئيسين في الحركة الفكرية وتمثل القطب الاخر بالتيار القومي. وبالرغم من الدراسات التي تناولت تاريخ الحزب لكنها لم تتناول جوانب اخرى مهمة للحزب الشيوعي العراقي كالبنية الاجتماعية والفكرية للحزب والاقليات التي انتمت لهذا الحزب، ومنهم اليهود الذين عدوا احدى تلك الاقليات المهمة التي كان لها تأثير في المسار الفكري للحزب في مدة تاريخية مهمة للحزب الشيوعي، وهي مدة الاربعينيات من القرن العشرين والتي اعطت تفسيرا واضحا عن اثر اليهود العراقيين في الحزب وتبنيهم للفكر اليساري.

وفي التوطئة يقدم الكاتب نبذة تاريخية عن الطائفة اليهودية التي تعتبر من اقدم الطوائف الدينية في العراق، وتمتعت بتفوق تجاري مقارنة بالطوائف الاخرى وهذا ما عزز مكانتهم التجارية على مدى قرون سحيقة، فضلا عن احتكارهم للسوق المالية فعرفت من بينهم اسر مالية عريقة.. ولم تقتصر اهتمامات اليهود على الجانب التجاري فحسب بل كان بعضهم معروفين على الصعيد الثقافي والفني، وكان منهم شعراء. وهذا التنوع يعود بالدرجة الاولى الى اتقانهم لغاتٍ متعددة اكتسبوها في مدارسهم الخاصة. درس الكثير منهم داخل العراق وخارجه وتخصصوا في الطب والهندسة والعلوم والتربية والحقوق والاقتصاد، ومارسوا

المهن الحرة كالمحاماة والطب والصحافة، بل واندمجوا مع مواطنيهم وتكلموا وكتبوا بالعربية وكانوا جزءا من المجتمع العراقي.. في الحقيقة لم تحظ الحياة السياسية الحزبية باهتمام الطائفة اليهودية التي بدأت تظهر بالتوافق مع تشكيل الدولة العراقية لانشغالهم بالتجارة وادارتهم لاعمالهم الخاصة برغم ان اليهود كان لهم ممثلون في مجلسي الاعيان والنواب العراقيين واصبح لهم وزير في اول وزارة عراقية التي شكلها عبد الرحمن النقيب 1920. اسهم اليهود في ظل الانفتاح الذي لمسوه في عهد الملك فيصل الاول في الميدان السياسي عن طريق عملهم بوصفهم اعضاء ممثلين في مجلس النواب وموظفين حكوميين ومدنيين واسهموا في تعزيز الاقتصاد وادارة البنوك والحسابات والتعليم والثقافة. وهذا الامر ادى الى تذمر عدد من العراقيين من السيطرة الواضحة لليهود على الامور الاقتصادية والمالية في العراق.. وقد بدأ الخط البياني بالتراجع للطائفة اليهودية بعد وفاة الملك فيصل الاول بسبب ان من اخلفوه لم يحافظوا على التوازن الذي اوجده بسبب امتلاكهم المؤهلات وقادوا العراق الى هاوية التطرف واضطهاد الاقليات التي لها شأن مهم في العراق، فضلا عن ظهور احزاب ذات صفة قومية وهو ما جعل اليهود يفكرون بالوقوف بالضد من التيار الجديد، ليجدوا ضالتهم في الحزب الشيوعي العراقي الذي بدأ هو الاخر يخترق الشارع العراقي من طريق افكار المساواة التي بدأ يطرحها والتي لاقت استحسانا من ابناء الاقليات القومية والدينية .. وقد ادى اليهود أدوارا فاعلة في عملية انتشار وتكوين الاحزاب الشيوعية العربية ومنها الحزب الشيوعي العراقي ولكن انتماءهم بشكل فعلي لصفوف الحزب يعود الى بداية عقد الاربعينيات حتى اسقاط الجنسية العراقية عنهم في عام 1950. عمل عدد منهم في اطار الحركة الوطنية واسهم بعضهم في النشاطات الجماهيرية.. ومما زاد المخاوف في نفوس اليهود العراقيين هو انعكاس تدهور الاوضاع في فلسطين في بداية عقد ثلاثينيات القرن العشرين عليهم، وما قامت به المنظمات الصهيونية تجاه الفلسطينيين ووقوف العراق الى جانب عرب فلسطين ضد الصهيونية. وبانهيار انتفاضة مايس 1941 تعرض اليهود الى احداث سلب ونهب وبعث الحزب الشيوعي العراقي برقية بهذا الخصوص الى رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني وتعددت الروايات عن احداث الفرهود واسبابها وآثارها في اوضاع اليهود وفق ما يخدم الاهداف السياسية لمروجيها .. ان زيادة انتماء اليهود في صفوف الحزب كان لها بعدان؛ اولها الاعتماد على اليهود في اتخاذ بيوتهم ومحلاتهم مقرات للاجتماع ومحطات للبريد. والثاني ان اليهود من جانبهم عملوا على طرح بدائل للحزب الشيوعي السري وهو ايجاد واجهات علنية يعمل من طريقها ومنها طرحهم انشاء (دار الحكمة) للنشر والترجمة، مستفيدين من الثقافة والمؤهلات التي يملكها اليهود والدعم الذي قدمه التجار اليهود لتلك الدار التي بدأت طبع الكتب وترجمتها ولا سيما ان منها ذات التوجه الماركسي. عقد المؤتمر الاول للحزب في اذار 1945 واكدت مقررات المؤتمر واعماله تنظيميا اتساع قاعدة نشاط الحزب بين الناس، لا سيما انه ركز على جوانب اجتماعية وسياسية تتعلق بواقع العراق ومنه حقوق الاقليات القومية والدينية التي لاقت صدى في نفوسهم.

بعد السياسة الصهيونية التي بدأت تلوح في الافق لتأسيس دولة يهودية في فلسطين وهو

ما دفع اعضاء الحزب الشيوعي من يهود ومسلمين لاقتراح تكوين منظمة تعمل على فضح اهداف الصهيونية. وفي الحقيقة ان تزايد النشاط الصهيوني في العراق كان له تأثير على اوضاع اليهود الذين وجدوا ضالتهم في الحزب الشيوعي ودخل الحزب من جانبه في صراع مع الصهيونية على النفوذ في اوساط الشباب. وتوصل الحزب الى تشكيل (عصبة مكافحة الصهيونية)، واصبحت غايتها الاكيدة مكافحة الصهيونية بين جماهير اليهود المخدوعة بها، واشراكهم في العمل السياسي من جهة وازالة التوتر الطائفي السائد حينذاك من طريق افهام الشعب الفرق بين الصهيونية واليهودية. وان الذي جذب الشباب اليهودي لصفوف العصبة كونها المنظمة الوحيدة المجازة التي اصبحت تمثل اليهود تنظيما سياسيا مستقلا لم يألفه اليهود منذ تأسيس الدولة العراقية فكانوا مقتنعين ان الصهيونية ليست المنهج الصحيح الذي يسلكونه، وفي الوقت ذاته سينهي عقدة الانتماء الى المنظمات الصهيونية المحظورة. وقدمت العصبة بعد استكمال الشروط طلب اجازة عمل الى وزارة الداخلية وحصلت الموافقة بموجب قانون الاحزاب لعام 1946، واصبح يوسف هارون رئيسا للعصبة وعلى ذلك اوصى الحزب الشيوعي من جهته اعضاءه بالدخول في هذه العصبة وتشجيعها. وبينت العصبة في منهاجها ان هدفها هو مكافحة الصهيونية وفضح اعمالها ونواياها بين جماهير الشعب العراقي، ولا سيما بين اليهود. وتلك قضية حيوية لها خطورتها في حياتنا الوطنية. وكان للعصبة موقف مساند لمشاعر العرب المؤيد لحق عرب فلسطين، وكان اليهود بحاجة الى تقوية صلتهم بالعرب المسلمين؛ اذ رغبوا في ايجاد قواسم مشتركة مع مجاوريهم من المسلمين والتأكيد بانه لا صلة لهم مع الصهيونية، وذلك لحماية انفسهم وللاندماج في المجتمع الذي حاول ان يلفظهم. لم تستمر العصبة كثيرا في عملها بعد تقارير وردت من جهات امنية ضدها، واصدرت وزارة الداخلية قرارا بتعطيل عملها بعد ان نسبت اليها القيام بأعمال من شأنها الاخلال بالأمن العام ومن ثم اغلقت مقرها. ولعل من اهم اسباب غلقها حسب ما يذكره احد اعضائها هو ان اسمها كان يتسم بالغموض واتهمت بكونها منظمة صهيونية تكافح من اجل الصهيونية وليست ضدها. وبالفعل تم اعتقال كوادرها وسجنهم واعدامهم في ما بعد بسبب الصهيونية والانتماء للحزب الشيوعي العراقي.

ونتيجة لقرار وزارة الداخلية بإغلاق عصبة مكافحة الصهيونية والتي وجدت من الضروري ان يبينوا للرأي العام مدى قوتهم الشعبية ، دعت العصبة بمؤازرة الحزب الشيوعي الى القيام بتظاهرة للتنديد بما سماهم (ارهاب وزارة ارشد العمري) في 28 حزيران 1946 وانطلقت التظاهرة من شارع الرشيد واشتبكت مع الشرطة التي ادت الى اعتقال ما يزيد على 45 شيوعيا وقد قتل في تلك التظاهرة شاؤول طويق عضو الحزب الشيوعي العراقي، والذي سقط قرب السفارة البريطانية برصاص الشرطة الملكية، وكان طالبا في الصف الخامس الثانوي وهو يردد (لا مهادنات ولا مساومات نريد عراقا حرا مستقلا).

اعتقل سكرتير الحزب الشيوعي في 18 كانون الثاني 1948 وعانى الحزب ركودا لمدة من الزمن ولم يستعِد نشاطه الا بعد اشهر، حيث توضح ان الحزب بقي سليما وكان التعويل حسبما يذكر سالم عبيد نعمان على ما سماه الكادر الطليق في الحزب الذي كان بمستوى جيد جدا. وبعد الضربة التي تلقاها الحزب

باعتقال قيادته اتبع اسلوب (التراجع المنظم) حتى يعيد الحزب نشاطه من جديد وقد وجد ضالته في وثبة كانون الثاني 1948، وكان للحزب دور فيها ما اشارت اليه التقارير الامنية. والحقيقة ان الوثبة لم تكن نتيجة تصميم سابق من احد او من جماعة او جماعات وانما حدثت عفوية نتيجة لتوقيع معاهدة بورتسموث، وكان اعضاء الحزب نشطين في العمل فيها ولا سيما ان للحزب الشيوعي اعضاء كثيرين لهم خبرة وتجارب بين الطلاب والعمال وغيرهم. ومما تجدر الاشارة اليه هو ان اسهام اليهود في الوثبة لم تقتصر على الايديولوجيين الذين يؤمنون بالحزب الشيوعي بل تعداه ليشمل الطائفة اليهودية ككل وعلى رأسهم ساسون خضوري رئيس الطائفة اليهودية في العراق، وحاولوا تبديد الانطباع بأن اليهود لا يبدون اي اهتمام بمصير وطنهم وكيانه القومي.

اتضح موقف الحزب الشيوعي العراقي من قضية فلسطين منذ بداية تأسيسه والقائم على اساس الفصل بين الصهيونية واليهودية ويكون بذلك قد اختلف عن كل الاحزاب السياسية الاخرى في العراق من هذا الامر. ومن المعروف ان تناول قضية فلسطين من المواضيع الشائكة التي هزت كيان الحزب الشيوعي العراقي امام القوى القومية المنافسة له جماهيريا، ولا سيما في ظل وصول قيادات يهودية الى قيادة الحزب وفي ظل تغييب قادته في السجون ليصبح اليهود هم الطرف المعني في تلك القضية. واجه اليهود من الشيوعيين ارباكا بعد قيام الكيان الصهيوني وكان الارتباك مرتبطا بالتراجع المفاجئ للاتحاد السوفييتي عن سياسته القديمة وهو يمثل موقفا محرجا للشيوعيين العراقيين ككل فهؤلاء قد تربوا دوما على اساس العداء للحركة الصهيونية ولفكرة الوطن القومي الصهيوني في فلسطين العربية فضلا عن الشيوعيين اليهود الذين كانوا ينظرون الى الصهيونية على انها خطر يهدد اليهود انفسهم. وحين اعلان تقسيم فلسطين في عام 1947 وقف الحزب الشيوعي موقف المعارض لمن كانوا يؤمنون بقرار التقسيم ومنهم الشيوعيون اليهود الذين كانوا يؤمنون بالفكر الاممي المناهض للصهيونية.

نتيجة الاعتقالات التي طالت اليهود المنتمين للحزب الشيوعي او بسبب المخاوف التي اثيرت في نفوسهم بعد قيام (اسرائيل) هربوا الى ايران ومن ثم الى فلسطين سرا وعلانية بعد ان شرعوا بتصفية ممتلكاتهم، ولم يكن امامهم خيار آخر فأما العودة الى العراق ومحاكمتهم واما الفرار الى الكيان الصهيوني. وبهذه الطريقة وقع في احضان الصهيونية آلاف اليهود وهم في هجرتهم.

وحين صدر قانون اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود في عام 1950 ومغادرة اغلب اليهود العراق حاول البعض ان يعطي مبررا لصدور هذا القانون بأن وراء صدوره هو للتخلص من اليهود الشيوعيين ويناقضه رأي ان هذا ليس صحيحا فان عدد الشيوعيين اليهود الذين تم اعتقالهم لا يتجاوز (245) عضوا، وهذا لا يبرر اخراج كل يهود العراق البالغ عددهم (130) الف يهودي. بل ان قانون اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود لاحق اليهود الشيوعيين في سجونهم، لان الحكومة اسقطت الجنسية بدون استشارتهم او اخبارهم بذلك، وكان اغلب السجناء اليهود الشيوعيين قد تم نقلهم الى سجن نقرة السلمان الذي اصبح سجنهم بصرف النظر عن التهم التي وجهت لهم.

في الفصل الثاني يستعرض الكاتب وضع اليهود في مدة البعث الثانية الممتدة للفترة من

1968 لغاية 1975، حيث بدأها حزب البعث باتخاذ اجراءات تساعد على كسب الرأي العام العراقي الى جانب النظام من جهة، ومن الجهة الثانية ممارسة القمع الشديد بما يرعب الخصوم ويسكت معارضي النظام او المتعاونين مع القوى المعارضة للنظام، وقد واصل استخدام هذا النهج المزدوج طيلة حكم البعث بالعراق مقترنا بسياسة التحالف مع طرف ضد طرف آخر، فكانت امامه فرصة بث الرعب عن طريق الممارسات القمعية ضد الفئة الاجتماعية الضعيفة بالبلاد وهم اليهود. مثلما بدأ العهد البعثي بتطهير الدوائر التي يبني سلطته عليها باشر المهمة ذاتها لتطهير الدوائر الواقعة خارجها والتي تثير شبهة المناورة، فلم يكد ينتهي عام 1968 حتى تم اعتقال مئات الضباط غير البعثيين ومعهم قرابة اربعين رجل اعمال يمثلون مصالح تجارية اجنبية في البلاد، والقي القبض على وزراء ومسؤولين كما اعلنت الحكومة عن وجود شبكات تجسس صهيونية كبرى تم اكتشافها في البصرة، وتم نقل المتهمين الى قاعدة عسكرية في بغداد، ومنها الى مركز تحقيق حزبي، ولم تكتف الحكومة بإثارة الرأي العام تجاه شبكات التجسس بل قامت بإجراء عملية مسح شامل لعدد اليهود العراقيين والذين يمثلون ثقلا اقتصاديا واجتماعيا.

كان نهج حكومة البعث الثانية مغايرا عن نهج حكومة الثامن من شباط 1963 بممارسة العنف واحاطة الاعمال بالكتمان والسرية الشديدين ضد القوى السياسية المناوئة او مع الشخصيات المطلوب تصفيتها. اشار ماكس فؤاد سوداني الى احوال اليهود في بداية وصول البعث قائلا: بدأت حملات الاعتقال في ايلول 1968 حيث اعتقل اربعة يهود واختفوا بدون اثر وبدأت الشائعات تدور حول انهم في قصر النهاية، بعد أسابيع سمعنا ان سبعة عشر يهوديا من البصرة قد تم القاء القبض عليهم وجلبهم الى بغداد بتهمة التجسس لصالح اسرائيل، عشرة منهم طلاب جامعيون، ووصل العدد بعد اسابيع لأكثر من ثلاثين شخصا. كان الاتهام بالصهيونية من الصنف السهل المريح لمطلقه فاكتشاف المؤامرة بعد هزيمة 1967 كفيل بأن يعطي الانقلاب معنى قوميا؛ فالحماسة اللفظية للقضايا العربية ولا سيما قضية فلسطين كانت تلح على تقديم براهين عملية والاهم في ذلك ان الحسابات السلطوية لا ترحم. اخذ مكتب العلاقات العامة التابع لحزب البعث على عاتقه فتح ملف التجسس واضاف اليه الكثير من الابرياء من معارضيه، الذين لا يرقى الشك اليهم، ولا سيما بعد الغارة الاسرائيلية على القوات العراقية المتمركزة في الاردن. وفي 9 تشرين الاول اذاعت الحكومة عن شبكة تجسسية في البصرة يقودها تاجر يهودي، وامتدت يد الاتهام لتشمل اسماء رجال اعمال وسياسيين منهم يهود وعراقيون، ومن بينهم عبد الرحمن البزاز وعبد العزيز العقيلي وصادق جعفر الحاوي. كانت اغلب التهم التي وجهت لليهود بانهم يعملون لحساب اسرائيل ويزودونها بالمعلومات الحساسة عن الجيش ومعداته العسكرية. ويشير احد اليهود العراقيين الى جلسات المحاكمة التي بثت بعض وقائع جلساتها الاولى بالتلفزيون والاذاعة العراقية حين قال: شاهدت ثمانية من المتهمين وجه لهم الادعاء العام تهما ملفقة واعترافات مزعومة، ومن ثم تلتها اربع جلسات اخرى لم تبث على الهواء، وسنحت لي الفرصة ان اقرأ مجددا بعض وقائع جلسات معظم المتهمين، وبسبب التعذيب اضطروا ان يتهموا واحدا الآخر بحسب التعليمات ما عدا اربعة منهم رفضوا الانصياع للتعليمات، واصروا على براءتهم

على الرغم من التعذيب الذي تعرضوا اليه بحسب شهادة سجناء كانوا معهم. حاولت الحكومة ان تضفي على المحاكمات بعدا آخر عن طريق توجيه الرأي العام الشعبي الى المخاطر التي تحيط بالأمن القومي العراقي، وهي مسألة حساسة بالنسبة للكثيرين، ولا يمكن النقاش حولها، وسمحت لبعض وفود المنظمات الدولية اللقاء باليهود لمعرفة اوضاع معيشتهم، وكانت نتيجة الضغط الدولي والسخط العالمي ضد ممارسات الحكومة العراقية تجاه اليهود ان هدأت الاوضاع قليلا، واخذ اليهود يحصلون على جوازات سفر ويغادرون العراق بصورة منتظمة، فلم يرق للحكومة العراقية ذلك لتبدأ صفحة جديدة من الاعتقالات والاغتيالات بحقهم مجددا، وفتحت ابواب الهجرة عام 1971 فكان خريجو عام 1967 من الطلبة اليهود اول من ترك البلاد لكي يسعوا لمستقبل افضل مما حصلوا عليه في وطنهم العراق، وبدأت موجة من الاستنكارات الداخلية والخارجية نتيجة لما تعرض له يهود العراق من اعتقالات واعدامات، فكان الاستنكار الداخلي اقل حدة، بسبب موقف الحكومة المتشددة ضد المعارضة لكن المعارضة والاستنكار الخارجي اخذ بعدا اشمل، ولا سيما بعد قتل عائلة كشكوش وقد خدم اجراء اسقاط الجنسية عن يهود العراق الحركة الصهيونية في حقيقة الامر، لأنه حرم العراق من فنيين متمرسين لا ينكر دورهم في اقتصاد البلاد، ولا يمكن في الوقت نفسه نكران حاجة البلاد لهم فضلا عن انه ادى الى تعزيز الكيان الصهيوني. في الوقت ذاته بدأت منظمة مهاجري العراق في اسرائيل بالتحضيرات لحملة قضائية للحصول على تعويضات من حكومة العراق عن ممتلكاتهم التي اخذت منهم قبل ان يهاجروا الى اسرائيل منذ عام 1950.

وحاولت الحكومة بعد ضغط الرأي العالمي ان تمنح المساواة للمواطنين اليهود في الحقوق والواجبات، وكانت الخطوة الاولى تطبيق قانون التجنيد الالزامي على الشبان اليهود، لكن دون تدريب على حمل السلاح وحاولت الحكومة العراقية ايضا تلافي بعض اخطاء قانون اسقاط الجنسية العراقية 1950 لينسجم مع قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بإدانة الصهيونية وعدها شكلا من اشكال العنصرية الصادر يوم 10 تشرين الثاني 1975 ذلك يفسح المجال امام اليهود العراقيين الذين غادروا العراق الى اسرائيل بشتى الصور للعودة الى وطنهم مع اعادة ممتلكاتهم. وكان من بين اسباب صدور هذا القانون هو محاولة تخفيف الضغط العالمي على الحكومة العراقية بعد موجة الاعتقالات والاعدامات التي طالت اليهود 1969. وبدأت الحكومة العراقية تسلط الاضواء على اليهود من اجل التخلص من الضغط العالمي ومن اجل تكميم افواه المطالب بتعويض اليهود المسقط عنهم الجنسية العراقية واخذ قانون اعادة الجنسية العراقية لليهود بعدا اعلاميا اكثر منه واقعيا، وكان قرارا سياسيا من اجل لجم اصوات الافواه العالمية التي نددت بنظام البعث وموجة الاعتقالات التي طالت يهود العراق.. ليقرروا في نهاية المطاف الهجرة الى الخارج او الى اسرائيل عبر المناطق الكردية خوفا من الاعتقال وزج اسمائهم في شبكات التجسس وعرضهم على شاشات التلفاز والصحف وتعد مدة حكم البعث الثانية 1968 من المدد الحرجة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وتعد النقطة الثالثة وهي الاجتماعية الأهم لكونها غيّرت الكثير من بنية المجتمع العراقي ولتمس في بداية حكمهم الطائفة اليهودية عن طريق ما شهدته من هجرة لما تبقى من يهود العراق.

نصوص قديمة

25 عاماً على استشهاد سلام عادل
قائد عراقي بارز وشيوعي فذ *

ذاع النبأ في آذار قبل ربع قرن ..!

بعد خمسة عشر يوما من اعتقاله، استشهد سلام عادل السكرتير الاول للحزب الشيوعي العراقي في سراديب "قصر النهاية"، بعد ان قاوم فاشيي انقلاب شباط بكلّ شموخ وبطولة.

خمسة عشر يوماً وست عشرة ليلة هي عمر امتحان الإرادة القاسي وجلجلة الشاب النحيل الصلب ذي الأربعين عاماً.

علقوه من ساقيه..!

قطعوا من لحمه وذروه بالملح ..!

كسروا عظامه ..!

طوّحوا به في أقبية قصر الرحاب المظلمة مقيدا ..!

تركوه عارياً في مياهها الباردة الآسنة ..!

حرموا عليه الأكل والماء والنوم ..!

لم يتركوا مكانا في جسده إلا وخرّبوه.

وامتدت أيديهم الآثمة الى عينيه: ضغطوها بالأصابع، وعصروها بآلات تعذيبهم حتى نزفت دماً، هو رؤيا وبصير مناضل كبير، كان يتطلع بهما الى مستقبل أفضل لبلاده وشعبه وأمّته.

فعلوا كل ذلك، لكن قلب سلام عادل ظلّ ينبض صامداً فعزموا – خائفين – على ان يسكتوا هذا القلب الذي أرعبهم.

إنها لنهاية مجيدة لصمود ثوري كبير تخطى زمانه الى عصره، وعصره الى المجد.

ولمجده نعود الى سيرته الملهمة.. الى لقطات من حياة سلام عادل المفعمة بالعمل والابداع والتضحية والبطولة.

البدايات: الشعر والمسرح

ولد الرفيق حسين أحمد الرضي (سلام عادل) عام 1922 في أسرة كادحة. أبوه كان يشتغل في مستهل حياته شريكا في حانوت صغير، ثم أصبح مراقب عمل في معمل للطحين، فلم تسعفه هذه المهنة من العسر.

أما أمّه فكانت امرأة طيبة متواضعة وكان لذكائها وحسن تدبيرها أثرٌ كبير في حياة العائلة.

كان حسين الابن الأول للأسرة بعد خمس بنات، ومن بعد عاش مع خمسة إخوة لم يستطيعوا إتمام التعليم، فاشتغلوا عمالا ثم في مهن متواضعة أخرى. أما حسين فقد أتم تعليمه الابتدائي والمتوسط في النجف، ثم انتقل إلى بغداد للدراسة في دار المعلمين الابتدائية، مستغلا العطل الدراسية للعمل بقصد إعانة عائلته، الأمر الذي ساعده على توثيق علاقاته بالناس والمامه بحياة الكادحين، والتعرف على ما يتطلبه الكدح من مثابرة وانضباط عرف بهما الشهيد في ما بعد على امتداد حياته النضالية وحتى استشهاده.

تميّز في حياته الطلابية بذكائه ومرحه وشفافيته وسعة صداقاته ما اكسبه ثقة واحترام أساتذته وأقرانه من الطلبة.

كان من رياضيي المعهد، وكان محبّاً لتنظيم المخيمات الكشفية والرحلات، وكانت له اهتمامات فنية وأدبية عُرف بها من صغره، وخصوصاً المسرح والرسم، حتى انه لُقّب في دار المعلمين بـ ''حسين الرسام''.

بيد انه كان يحب الشعر أيضاً ويحفظ منه الكثير، ويتمتع بتلاوة ما يحفظه من نصوص قمم الشعر العربي.

"مختار" في اللقاء الأول!

في دار المعلمين الابتدائية في بغداد سمع حسين، أول مرة، بوجود حزب شيوعي في العراق فانجذب إليه بحكم منشأه الكادح، ونزوعه الى العدالة وروحه الوطنية المتوقدة.

وذات مرة وزعت المنظمة الحزبية في المعهد بيانا للحزب فداهمت الشرطة المعهد واعتقلت عددا من الطلبة المعروفين بالشيوعية، بينهم شاكر الطالقاني، الصديق الحميم لحسين الرضي، الذي كان نصيبه الطرد من المعهد، مع طلبة آخرين. أما حسين فقد فصل لما تبقى من السنة عقابا على صداقته للحزب الذي جعل حسين يبحث عن الوسيلة التي تجعله مناضلا في صفوفه.

تحققت أمنية حسين كاملة حين تخرج عام 1943 من دار المعلين وعيّن مشرفاً على النشاط المسرحي للمدارس الابتدائية في ''الديوانية''؛ ففي هذه المدينة الفراتية وجد حسين سبيله الى قاعدة الحزب الذي سيتحمل عبء قيادته في ما بعد.

وسرعان ما كشف الشيوعي الشاب عن مواهب حزبية وتنظيمية مميزة لفتت انتباه قيادة الحزب، واكسبته الهيبة المقرونة بالمحبة لدى تلامذته ورفاقه والمحيطين به.

في صيف العام نفسه استدعي الرفيق حسين من قبل قيادة الحزب الى بغداد، من دون ان يعرف الغرض من استدعائه. وفي بغداد التقى بالرفيق زكي بسيم الذي قاده الى دار منزوية، ليقدمه الى رجل في حوالي الخامسة والاربعين من العمر، جعل يطرح عليه اسئلة كثيرة ودقيقة عن نشاط الحزب في الديوانية، مبدياً اقصى الاهتمام

بالاستفسار والتعرف على ادق مشاعر الناس وحاجاتهم، الأمر الذي قابله حسين الرضي في البدء بتحرج بدا في إجاباته الحذرة والتي كان سببها جهله بشخصية محدثه. غير ان الرفيق زكي بسيم طلب منه ان يتخلى عن حرجه وان يستجيب بحرية لتساؤلات ذلك الرجل. عندها حدس حسين الرضي ان محدثه هو سكرتير الحزب نفسه، الرفيق فهد. ولدهشته تساءل عمّا اذا كان الرفيق فهد يملك من الوقت ما يخصصه للتحدث مع رفيق لما يكسب بعد عضوية الحزب.

حدّثه الرفيق فهد عن سمات ومهمات القائد، وقدرته على ان يعيش ويتكيّف مع الناس والكادحين منهم بخاصة، ليتعرف على مشكلاتهم، ومطالبهم ومشاعرهم عن قرب. وفي اللقاء زف الرفيق فهد للرفيق حسين ان مدة ترشيحه قد انقضت، وانه قد اصبح عضواً في الحزب منذ شهر باسم حزبي اصطفاه له الرفيق زكي بسيم هو "مختار"، وهو الاسم الذي ظلّ أثيرا في نفس حسين الرضي حتى اضطر عام 1953 الى استبداله.

حسين الرضي كادحاً .. !

عاد الرفيق حسين بعد هذا اللقاء الى الديوانية بشحنة عالية من الحماس والتفاؤل، وساهم بنشاط في توسيع قاعدة الحزب ونفوذه بين الجماهير الكادحة. وبسبب ما أبداه من مواهب قيادية ونشاط دؤوب اصبح عضوا في اللجنة الحزبية لمدينة الديوانية في العام ذاته. واثبت، في ما بعد، انه جديرٌ بأول مسؤوليات القيادة تلك.

عام 1946 طغت على البلاد أول موجة ارهاب بعد الحرب العالمية الثانية شملت الرفيق حسين الذي كان مصيره الفصل في مقدمة معلمين كثيرين في الديوانية والعراق بعامة.

استدعاه مدير الشرطة ليقول له مهدداً وساخراً ان "فصل الموظف يعني موته جوعاً" فأجاب المعلم المناضل " لن أجوع، ولديّ ذراعان تعملان"!

وكان لحسين الرضي استدعاء ثانٍ ولكنه مختلف عن الاول، حين طُلب منه السفر الى بغداد، وملاقاة قيادة الحزب. فقابل الرفيق فهد للمرة الثانية، وكلّف منه شخصيا بقيادة وتنظيم احدى مناطق بغداد، والتفرغ للحزب تماماً..

تلقى الرفيق حسين هذه المهمة بحماس وتفهم، كعادته، غير انه اقترح ان يزاول عملا بسيطا يعتاش منه دون ان يشغله عن اداء عمله الحزبي، وارتأى ان تكون مبادرته امثولة لزملائه المفصولين في عدم التعفف عن ممارسة أية مهمة بسيطة ولكنها شريفة، لاحباط محاولات الحكام الرجعيين اركاع المعلمين والموظفين الصغار من الشيوعيين والوطنيين والتقدميين إزاء الجوع والعطالة، ومقاومة اعمال التعسف التي كانت تمارسها السلطة الرجعية لبعث القنوط والاستسلام في نفوس المثقفين الثوريين.

اختار الرفيق حسين مهنة بائع طعام شعبي على قارعة الطريق، ولكنه ما لبث ان عثر على وظيفة في ثانوية الفيلية الاهلية... وبعد اشهر الغي قرار فصله واعيد الى التعليم، فعين هذه المرة مشرفا على النشاط الفني والمسرحي في دار المعلمين الريفية في الرستمية حيث تمكن من بث الوعي

الثوري والافكار التقدمية، والهام الطلبة بروح التفاؤل والمبادأة الى مقاومة الحكم الرجعي، رغم قصر المدة التي قضاها في الدار، والتي لا تزيد على سنة دراسية واحدة أعادت بعدها السلطات قرار فصله من التعليم.

هذه المرة سلك حسين الرضي السبيل ذاته الذي سار عليه يوم أصبح عاطلا قبل سنة أو يزيد، وذلك حين افتتح حانوتا صغيرا للقرطاسية في أحد الشوارع المكتظة (شارع الوثبة فيما بعد).

أول اختبار للبطولة

في عام 1947 اعتقل الرفيق فهد ورفاقه من قادة الحزب وأودعوا السجون. شملت حملة البطش والإرهاب التي اعقبت وثبة الشعب عام 1948 الرفيق حسين الرضي الذي اعتقل في احدى التظاهرات. واصدرت المحكمة قرارا بسجنه، لمدة ثلاث سنوات، تلقاه الرفيق حسين بعزيمة صلبة، ففي تلك الايام العصيبة كتب في رسالة تحتفظ بها – حتى الآن – سجلات الشرطة "مهما أوغلوا في الطغيان والإرهاب فلن ينجيهم ذلك من هلاكهم المحتوم، يوم ينتفض الشعب ليلاحق الاستعمار وأذناب الاستعمار. إذ ذاك سيُطهر الشعب أرضنا من اوضارهم، ويشيد مستقبله السعيد".

داهمه مدير السجن واختطف الرسالة من يده وتلاها فامتلأ رعبا جعله يسوق الرفيق حسين الى المحاكمة مرة أخرى ليجيب هذه المرة عن "تهمة" كتابة رسالة اعتبرت "منشورا ثوريا"! وفي قاعة المحكمة وقف الرفيق حسين يفضح الاستعمار والحكام الرجعيين الذين تسلطوا على شعبنا يستغلونه وينهبون خيراته، ويحكمون على خيرة ابنائه بالاذلال والتجويع والحرمان والسجن. وفي هذه المرافعة اشاد حسين الرضي ببطولات التاريخ المجيد الحافل، وبانتفاضات وهبات شعبنا والشعوب العربية الشقيقة، منددا بمساعي الاستعمار لزج الصهيونية في قلب الوطن العربي وتسخيرها كقاعدة للعدوان على حقوق العرب ومصالحهم.

قاطعه الحاكم (القاضي) قائلا "عرفنا من هو الاستعمار، ومن هم اذناب الاستعمار، ولكن قل لنا ماذا تقصد بأذناب أذناب الاستعمار؟"، فأجابه "انهم أولئك المنفذين لإرادة أذناب الاستعمار في استغلال كدح الشعب وترويع أبنائه وتعذيب المناضلين من رجاله واختطاف اللقمة من افواه الجائعين... انهم كل هؤلاء وأولئك الذين يلفقون التهم ضد ابناء الشعب المخلصين، يطاردونهم ويسجنونهم ويقفون حراسا على نظام يحكم بالعبودية على شعب بأسره".

قاطعه الحاكم مرة اخرى وقال غاضبا:

-هل تعنينا نحن؟

أجاب الرفيق حسين:

-لستم انتم فقط، بل كل من على شاكلتكم ممن ارتضوا لأنفسهم ان يقفوا حراساً على هذا النظام.

حينئذٍ أصدر الحاكم حكمه الجائر الذي يقضي بسجن حسين الرضي سنتين إضافيتين، وبوضعه تحت مراقبة الشرطة عامين آخرين.

وحين لم يطفئ هذا الحكم حقد ورعب الحاكم الرجعي أضاف إليه مئة جلدة، على قدمي حسين.

وسرعان ما بدأ تنفيذ الحكم الأخير، فصدم

الجلادين موقف المناضل الشيوعي الشاب الذي اتخذ موقف الصلابة والحزم وهدوء الاعصاب، بل والسخرية من هذه الاساليب البشعة. وما كان هذا الموقف إلا ليستثير حقداً أكبر في نفوس الجلادين، وفي مقدمتهم مدير السجن الذي أمر باضافة خمسين جلدة اخرى، وصرخ بعد إيقاعها بوجه حسين الصامد.

-اهتف بحياة نوري السعيد.

أجابه حسين الرضي هاتفاً

-المجد والخلود لشهداء شعبنا ولقادة حزبنا: فهد وحازم وصارم والنصر الأكيد لشعبنا.

اندفع مدير السجن وهو يضطرم بالحقد مسدداً الى حسين ركلاته الرعناء، ولكن حسين نهض على قدميه شامخاً، وشق طريقه بين صفين من الحراس المسلحين الذين انهالوا عليه بضربات هراواتهم وقبضات أيديهم.

وما يروى عن تلك اللحظات ما يذكره احد رفاقه الذي التقاه بعد ساعات محلوق الرأس، مشوه الوجه، فاستفسر منه عما جرى له حتى اصبح على هذه الصورة.

اجاب حسين بروحه الفكهة "ألا يبدو شعري أجمل من السابق. انها مودة السجن".

في سجن بغداد و"نقرة السلمان"

في سجن بغداد المركزي كلف الرفيق حسين بادارة مكتبة السجناء السرية فاغتنم الفرصة لاغناء ثقافته النظرية. كان – كما يتحدث عنه رفاقه السجناء – يقضي الليالي الطوال بين ما كان يتوفر آنذاك من الكتب الماركسية اللينينية، ولا سيما كلاسيكيتها. ومع كل ما كان يجده نافعا لإغناء معارفه العامة إضافة الى الكتب الأدبية التي كانت تلقى هوىً خاصاً في نفسه.

وعدا عن ذلك كان الرفيق حسين الرضي يولي اهتماماً كبيراً لمطالعة رفاقه، فيوزع عليهم الكتب وفق مستوياتهم وقابلياتهم، ويناقشهم في ما يقرؤونه ويحاسب المقصرين حساباً رفاقياً تربوياً.

خلال سجنه كان للشهيد نشاط أدبي وفني حيث ساهم في نظم الأناشيد الثورية وتلحينها، وإخراج بعض التمثيليات، وكان يرى في هذه النشاطات وسيلة لإشاعة روح التفاؤل والأمل في نفوس السجناء.

بعد أربعة اعوام ونصف قضاها في سجن بغداد ثم في سجن "نقرة السلمان" الصحراوي الشهير، حل يوم خروج الرفيق حسين من سجنه إلى منفاه فودعه الرفاق بأغنيتهم الأثيرة:

يالرايح للحزب خذني...

الأب والزوج الصديق

لم يطِل حسين المكوث في المنفى، بل هرب بعد وصوله إليه بيومين والتحق بالحزب فورا. عائدا إليه بهمة وحماسة، وقدرات قيادة أكثر مراساً وجرأة فائقة. وقد أهلته كل هذه الصفات الى عضوية اللجنة المركزية عام 1953.

في ذلك العام تزوج من رفيقته في النظام ثمينة ناجي يوسف التي تقول في ذكرياتها:

"اربعة اعوام مضت على وعده لي بالزواج، امضاها في السجن وخرج. غير ان حسين الرجل لم يشأ ان يكبلني بوعده القديم، وهو العليم بما انتهى إليه من مطاردات وما ينتظره من اضطهادات. فكتب لي يقول: (مرة اخرى قبل ان اتزوج، أود ان تكوني على علم تام بأن طريقنا ليس ممهدا ولا مزروعا بالورود... ان في طريقنا تنبت الاشواك وتنهض العقبات

– شأن كل المناضلين... على هذا الطريق تنتظرنا الحرمانات والعوز والمتاعب. وفي اعقابنا تنتظر كلاب الحراسة المتوحشة... تترصدنا، مثل مئات المناضلين، تطوح بنا الى غياهب السجون مرة أخرى. وعند ذلك سأتركك وأطفالك دون مورد مالي، لأنني كما تعرفين لا أملك شيئاً. أما افراد اسرتي، فهم الآخرون لن يستطيعوا مدّ يد العون إليك... فهم مثل ملايين العمال لا يملكون إلا سواعدهم وسمعتهم الطيبة بين الناس... وإذا سقطتُ شهيدا مثل بقية شهداء حزبنا وشعبنا، فلن اترك لكِ غير الذكريات. إنني لا أملك كما تعلمين غير لقب الشيوعي المدافع عن مصالح طبقةٍ وحرية شعبٍ... ولكني استطيع أن أعدكِ، وأنا واثق كل الثقة، من ان حياتنا ستكون مترعة بالسعادة، لا تكدرها وضاعات أعدائنا الطبقيين).".

وتقيّم الرفيقة حياتها الزوجية مع سلام عادل، تقول:

"الآن، بعد عشر سنوات من حياتنا معاً، استطيع ان اقول ان سلام قد وهبني من السعادة أكثر مما وعد. فلقد منحني البيت الدافئ السعيد، والحياة المشرقة، والهمني من روحه الثقة بالعزم والتفاؤل ... ورغم انقضاء عشر سنين حافلة بالصعاب، والعوز والاضطهادات، لم تستطع ظلال السأم ولا الاكدار ان تطفئ نور السعادة التي كنا نحياها. لقد كان دوما أبا حنوناً وزوجاً باراً وصديقاً وفياً ومرشدا لي في الخطوب... وكان لأطفالي أبر الآباء وأكثرهم حناناً (...)".

قائد وطني وأممي ... !

بين عام 1953 – 1955 نهض الرفيق حسين بمسؤوليات حزبية مختلفة ومعقدة فقاد لجنة المنطقة الجنوبية في البصرة حيث بذل جهدا مضنيا لإصدار جريدة الحزب المنطقية، وثابر على توطيد منظمات الحزب في الجنوب، لاسيما بين عمال الميناء والسكك والنفط والكهرباء، أي كبرى التجمعات العمالية يومذاك.

وأثناء وجوده على رأس قيادة المنطقة الجنوبية، نظم العمال بقيادة الحزب وباشراف مباشر من الرفيق حسين إضراباً شاملاً هز البلاد كلها، فواجهته السلطات الرجعية بالرصاص والتنكيل، وأعلنت على اثره الأحكام العرفية في المنطقة الجنوبية، وأصدرت أحكاما جائرة بحق المئات من العمال.

وفي مستهل عام 1954 كلف الرفيق بقيادة منظمة الفرات الاوسط، فعمل بنفس الهمة التي عرف بها على تعميق نفوذه بين الجماهير الكادحة، وبادر الى تأسيس المنظمات الحزبية والجمعيات الثورية في اوساط الفلاحين.

في العام نفسه سافر الى بريطانيا سراً ليمثل حزبنا في اجتماع الاحزاب الشيوعية والعمالية لبلدان الكومنويلث البريطاني والبلدان المستعمرة والتابعة. وكان لنشاط حسين الرضي في ذلك اللقاء الأممي دوره البارز في لفت انتباه الأحزاب الشقيقة والعالم إلى قضايا شعبنا الوطنية ونضالات حزبنا.

وعبر الكثير من العراقيل والصعوبات عاد الى العراق وكلف الى جانب مسؤولياته في اللجنة المركزية بقيادة لجنة بغداد المحلية. فاستطاع بحكم تجربته التي أصبحت اكثر غنى، ومواهبه التنظيمية القيادية ان يشيد كيانا ممركزا لنشاط منظمة الحزب في

العاصمة وان يمكّن الحزب من تلافي الصعوبات والثغرات التي واجهت في وقت سابق هذه المنظمة.
وما كان لنشاط حسين الرضي التنظيمي ان يؤتي ثماره لولا إتقانه فنون العمل السري وبراعته في التنكر، حيث كان يجيد اختيار الازياء المناسبة لتحركه واداء مهماته دون ان يستلفت إليه أنظار الخصم.

على رأس قيادة الحزب، ومن أجل وحدته

ساهم الرفيق حسين بنشاط ووعي بارزين في اجتماعات اللجنة المركزية وفي توجيه ورسم سياسة الحزب الوطنية والطبقية، ومن ابرز مآثره في هذه الفترة كفاحه المثابر ضد قيادة حميد عثمان الانعزالية التي سيطرت على الحزب آنذاك، وضد النزعة "اليسارية" المغامرة في سياسة هذه القيادة.
كان حسين الرضي على رأس النضال المبدئي الذي خاضته اللجنة المركزية ضد هذا النهج الخاطئ، واسفر عن إقصاء حميد عثمان عن قيادة الحزب ووضع امانة الحزب واللجنة المركزية على عاتق الرفيق حسين، الذي اصبح اسمه منذ ذلك الوقت "سلام عادل"، وغدا السكرتير الاول للجنة المركزية.
عن تلك الفترة يشهد الرفاق الذين عملوا مع سلام عادل انه برغم نضاله العنيد لتطهير الحزب من القيادة المنحرفة، كان حريصا اشد الحرص على الالتزام بمبادئ المركزية الديمقراطية، ولم يعبر، خارج اللجنة المركزية، عن آرائه ومواقفه المعارضة للقيادة إلا بعد ان حازت على مواقف الأكثرية، وأصبحت هي النهج المقر للحزب.
لقد اقترن هذا الإنجاز الكبير بانعطاف جذري في سياسة الحزب ونشاطه الفكري والعملي، كما اقترن باتساع نفوذ الحزب الجماهيري وإعادة القواعد اللينينية الى حياته الداخلية، وساعد كل ذلك، بل واقتضى إنجاز مهمة من اعقد وأخطر المهمات التي كانت تجابه الحزب آنذاك، وهي تحقيق وحدة الحزب وتصفية الكتل المنشقة عنه والتي كان بعضها يستمد مبررات وجوده من أخطاء القيادة الانعزالية السابقة. وكان لسلام عادل الدور الأبرز في تحقيق الوحدة التنظيمية والفكرية للحزب على أسس ماركسية لينينية بعد نضال شاق طويل.
في أيلول عام 1956 انعقد الكونفرنس الثاني للحزب بمبادرة وقيادة الرفيق سلام عادل تحت شعار "من اجل سياسة وطنية ديمقراطية، وحزب شيوعي موحد يستلهم الروح التي اشاعها في الحركة الشيوعية العالمية المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي". واسفر الكونفرنس عن وثيقة تاريخية هامة احدثت انعطافا جديدا في نهج الحزب السياسي، واسهمت في توطيد وحدته الفكرية والتنظيمية والسياسية.
وكان للرفيق سلام عادل ولمجهوده الشخصي المميز الدور المؤثر الأكبر في وضع هذه الوثيقة وصياغتها، بيد ان السكرتير الاول لم يشأ الانفراد بهذا الانجاز، بل اراده خلاصة للرأي الجماعي لكل كوادر الحزب.
يروي احد رفاقه في تلك الحقبة ان "سلام" اعدّ قائمة طويلة بأسماء من ينبغي اخذ رأيهم بشأن الوثيقة ضمن مسؤولي اللجان المحلية في محافظات العراق كافة، وكل

كوادر الحزب القيادية في بغداد، وبعض المثقفين من اصدقاء وانصار الحزب، بل وحتى الرفاق الذي كانوا في السجون حينذاك والمغتربين في سوريا ولبنان.
يروي احد الرفاق عن هذا الانعطاف الهام في حياة الحزب قائلاً: "انعقد الكونفرنس الحزبي وفق تدابير محكمة للصيانة والسرية اشرف الرفيق سلام عادل عليها بنفسه، وقاد ذلك الاجتماع المرهق ثلاثة ايام بلياليها، وبعد انتهاء أعمال الكونفرنس واصل سلام عادل الجهد المضني لإعداد الصيغة النهائية للتقرير الذي اقره الكونفرنس في ضوء مقترحات وتعديلات وإضافات الرفاق الذين ساهموا في إغنائه، حتى ان الرفيق سلام بدا كشبحٍ ذاوٍ من شدة الأعياء".
لقد أصبحت الوثيقة التي أقرها الكونفرنس الثاني مرشدا لنشاط الحزب وعاملاً من عوامل انتصاراته اللاحقة. وأسهمت اسهاماً عظيماً في توطيد وتمرير مكانته ودوره في صفوف الشعب والحركة الوطنية والقوات المسلحة. وبذلك تهيأت الظروف الملائمة لشن نضالات جماهيرية حازمة ضد حلف بغداد والمعاهدات الاستعمارية، ومن أجل الإطاحة بالحكم الرجعي ومساندة مصر ضد العدوان الثلاثي.

موعد مع الثورة

الثورة تطرق باب العراق، فماذا على الحزب الشيوعي العراقي ان يفعل لانضاج الظروف المواتية وإنجاحها..؟
هذا السؤال كان الشغل الأول لسلام عادل الذي راح يرسم خطة لانتصار الثورة. ومن اجل تطبيق هذه الخطة غامر، يوم كانت هذه المغامرة تحتاج الى قائد ثوري من طراز خاص، بالاتصال بالضباط الوطنيين، وعمل من خلال الرفاق الذين كلفوا بأداء هذه المهمة فيما بعد، على توحيد جهودهم وبث الثقة والعزيمة في أوساطهم.
في خريف 1956 كتب سلام عادل رسالة الى عدد من كوادر الحزب في السجون تنبئهم، من طرف خفي، بأن يوم تحررهم غير بعيد، وتخبرهم بالمنجزات التي حققها حزبهم. عن ذلك يقول احد رفاق سلام عادل:
"كان يدرك بسبب تجربته في السجون أي بشارة تعنيها مثل هذه الرسالة، وأي دور لها في تصعيد روح المقاومة والبسالة لدى السجناء، وخاصة أولئك الذين طالت بهم أعوام السجن".
اعترضت طريق الثورة عقبات أدت الى تأجيل ميعادها ثلاث مرات، بيد ان الحزب بقيادة سلام عادل واصل جهده لتوحيد القوى الوطنية، حتى انبثقت "جبهة الاتحاد الوطني" عام 1957 التي ضمت حزبنا والأحزاب الوطنية الرئيسية، والتي كان يعززها تحالف الحزب الثنائي مع الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي كان بمثابة الجسر الذي ربط جبهة الاتحاد الوطني بالحركة القومية الكردية.
كان لسلام عادل الجهد الابرز في تحقيق تحالف الاحزاب الوطنية في اطار جبهة الاتحاد الوطني، وكان لنهج التحالفات الذي اختطه ابلغ الأثر في توحيد تنظيمات الضباط الوطنيين في الجيش، أي في توفير العوامل الذاتية لانتصار ثورة 14 تموز 1958. يؤكد احد الرفاق الذين شهدوا تلك الفترة من موقع المسؤولية في الحزب،

ويقول:"قبل الحدث اتصل رشيد مطلق مبعوث عبد الكريم قاسم بقيادة الحزب هاتفيا واسرَّ بالإشارة المتفق عليها مع الحزب وهي "العمّالة جاهزين". وعلى الفور اصدر الحزب يوم 12 تموز "توجيه عام الى كافة منظماته الحزبية" المح فيه الى احتمالات حدوث تغيير كبير في وطننا، وأكد على "ضرورة ضمان وحدة النشاط السياسي لمنظماتنا في الظروف الطارئة أو المعقدة"، فأكد على شعاراتنا الاساسية بتحقيق الاستقلال السياسي، واطلاق الحريات الديمقراطية، وحماية الاقتصاد الوطني مع حل المشاكل المعيشية للجماهير، واقامة حكومة وطنية تنتهج سياسة عربية ودولية تخدم السلم والنضال ضد الاستعمار والصهيونية، وتعمل من اجل "اتحاد فيدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة". وجاء في ختام التوجيه: "ونرى من المناسب التأكيد على: -1 ضرورة تجنب ابراز شعارات مبهمة أو متطرفة أو تلك التي تمجد هذا الزعيم او ذاك من قادة الحركة الوطنية أو العربية على حساب طمس شعاراتنا الاساسية. -2 ضرورة ابداء اليقظة السياسية العالية تجاه مختلف المناورات والمؤامرات وتجاه نشاط عملاء الاستعمار، والعمل بحزم وبأمانة تامة لسياسة الحزب، واعتبار واجبنا الاساس في كل الظروف هو تعبئة أوسع الجماهير الشعبية، ولفّها حول الشعارات الصائبة في اللحظة المعنية، وحول الشعارات الكبرى لحركتنا الوطنية الديمقراطية".

أول خطوة في العلن

صبيحة يوم الثورة كان عدد من أعضاء اللجنة في احد البيوت الحزبية قد اعدوا مسوّدة برقية الى حكومة الجمهورية تتضمن تأييد حزبنا التام للثورة. وهنا خرج الرفيق سلام عادل عمّا عرف عنه في العمل السري، مقترحا ان يذهب بنفسه إلى دائرة البريد لتسليم البرقية تدشيناً لعلنية الحزب.

فيما بعد روى الرفيق سلام عادل كيف ان الموظف تسلم منه الورقة وشرع يعد كلماتها، لكن اصبعه توقف فجأة، ثم رفع يده الى نظارته يثبتها على عينيه، وانتقل ببصره نحو التوقيع، ثم رفع رأسه لينظر إلى رفيقنا... ثم اخذ يقرأ نص البرقية ثانية، وعاد ينظر إليه ثم تلعثم:

-يعني انت ... العفو... أعني حضرتكم... هو...؟ وأشار باصبعه نحو التوقيع. فأجابه رفيقنا: نعم ... وأرجو إبراقها بسرعة. فنهض الموظف من مكانه بسرعة وهو ينظر إليه، وخف الى زملائه الملتهين في احد اركان دائرته، فأخذوا يتدافعون وهم يقرأون نص البرقية وينظرون الى رفيقنا متهامسين، وفجأة هتف احدهم يعيش الحزب الشيوعي البطل .. فردد البقية هتافه.

لم تصرف نشوة النصر ذهن الرفيق سلام عن التفكير بمهام صيانة وتطوير الثورة. وكانت احدى مآثره الكبرى في تلك الفترة مبادرته الى جمع الكادر الحزبي كله، سواء الذين تحرروا من السجون أو المنافي أو الذين عادوا من ديار الغربة خارج الوطن، وقيادة نشاطهم والاستفادة من طاقاتهم وإمكانياتهم.

وفي أيلول 1958 قاد الرفيق سلام عادل اكبر اجتماع موسع للجنة المركزية في تاريخ حزبنا. كانت قدرات حزبنا ومسؤولياته التاريخية قد تعاظمت، فالأشهر

العاصفة التي أعقبت الإطاحة بالنظام الملكي الرجعي ضاعفت الحاجة إلى التشخيص الصائب للمهام والحلول والشعارات، وصيانة وتطوير الموقف الطبقي المستقل للحزب إزاء ضغوط وتأثيرات القوى الطبقية الأخرى، ولا سيما الحليفة. وكان لا بدّ للأوضاع المعقدة ان تجد صدىً لها في الصراع الفكري الذي لا تقدم للحزب بغيابه. فكان الرفيق سلام الحريص على طاقات وكوادر الحزب صارما في الأمانة لمبادئ المركزية الديمقراطية، الاطار اللينيني الوحيد لإدارة الصراع الفكري في الحزب الشيوعي.

لقد تميّز الرفيق سلام بسعة أفقه الفكري، بشمولية نظراته، بتمسكه الدقيق بمبادئ الضبط والنظام في الحزب بروحه التربوية العالية إزاء رفاقه، وكفاحه العنيد ضد كل مظاهر الانقسام والتكتل المخلة بوحدة الحزب. والى جانب كفاحه المثابر ضد مظاهر القومية الضيّقة، كان مناضلاً عنيداً من اجل الحقوق القومية للشعب الكردي.

كان أمميا مثابرا وصديقا أمينا للاتحاد السوفييتي. وقد برز نشاطه الاممي منذ تولى قيادة الحزب. ففي عام 1957 قاد وفد حزبنا الى احتفالات الذكرى الاربعين لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ثم في اجتماعات الأحزاب الشيوعية والعمالية في خريف العام نفسه. وفي أواخر 1958 قاد وفد حزبنا الى المؤتمر 21 للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، ومن بعده المؤتمر 22. وفي كل المنابر التي حضرها دعا باسم حزبنا الى التمسك بمبادئ الماركسية اللينينية، وبوحدة الحركة الشيوعية العالمية.

ضد الدكتاتورية... من أجل كردستان

عام 1961 أوفد الرفيق سلام عادل الى الخارج للدراسة الحزبية. وقد أثبتت الحياة ان ساحة الوطن كانت أحوج الى حضوره كقائد تميز بحسّه الطبقي إزاء مسألة السلطة وضرورة إدامة وتعزيز قوى الحزب الضاربة في الجيش إزاء تذبذب السلطة البرجوازية وتفاقم المؤامرات على مسيرة الثورة.

وفي أواسط 1962 عاد الى الوطن سراً وزاول مهامه كسكرتير أول للحزب فور وصوله. وفي النضال من اجل تعميق وتثبيت خط الحزب الأممي والجماهيري والوطني، خاض، مع رفاقه الآخرين، نضالا مبدئياً باسلاً ومفعماً بشعور المسؤولية تجاه مصلحة الحزب والحركة الوطنية والأممية البروليتارية، ضد الاتجاه الانتهازي اليميني، والقومي الضيق، الذي أراد حرف سياسة الحزب الأممية الثابتة وتوجيهه باتجاه برجوازي استسلامي. وفي الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب في أيلول 1962، الذي قاده الرفيق سلام عادل، تمت تصفية آثار هذا الاتجاه.

ورافق وأعقب هذا الانتصار انعطاف جماهيري واسع نحو الحزب. وفي طليعة الجماهير الشعبية خاض الحزب بقيادة سلام عادل نضالاً دائباً ضد السياسة الدكتاتورية الفردية، وضد الحرب على الشعب الكردي المطالب بحقه المشروع في الحكم الذاتي والحل السلمي الديمقراطي لقضية كردستان، محذرا في الوقت ذاته القوى الوطنية والسلطة في آن من خطر التآمر الذي لاحت بوادره بوضوح في تلك الأيام.

خاتمة بطولية

وهو يتهيأ للعودة للوطن ناشده رفاقه ان يحتاط للمخاطر، وان يحرص على سلامته ولا يفرط بحياته، قال:

"أعرف ان حياتي يحتاجها الحزب، وسأعمل من أجل سلامتي في الحدود الضرورية، التي لا تعرقل عملي. ولكنني شأن أي جندي ذهب الى ميدان القتال لا أستطيع ان اقطع لكم عهدا بسلامتي، ولكني أستطيع ان أؤكد لكم بأنني لن أبخل بجهد من أجل مصلحة حزبي وسعادة شعبي".

ليل التاسع عشر من شباط 1963 امتدت يد الفاشية الى سلام عادل فانتزعته من موقعه الأثير - كما لم يكن من قبل -، ومن بين حرص وحذر ما بقي من قادة وكوادر ورفاق الحزب، فسجل التاريخ الوطني اياما طويلة لـ "جلجلة" المناضل الباسل، والقائد الفذ:

-ماذا تأمل....؟

قال له الجلاد وأضاف:

-"وها أنت وصحبك اسرى بين أيدينا، ونحن عازمون على أن نبيد آخر شيوعي يعيش على ارض هذه البلاد خيرٌ لك ان تستسلم. صن حياتك، وهات ما عندك من اسرار الحزب التي تعرفها أكثر من غيرك لأنك السكرتير الاول".

أجاب سلام عادل بهدوء:

-أجل... كنت سكرتيرا أولا للحزب، وما أزال.. ولكن لتعلم أنك تسعى نحو المحال. ان ابادة الشيوعيين امر مستحيل. ولست أملك ردا على تهديداتك افضل من الكلمات التي هتف بها قائد حزبنا فهد.

"الشيوعية أقوى من الموت واعلى من اعواد المشانق"

خمسة عشر يوما قاسية وست عشرة ليلة من التعذيب بكل فنونه وبشاعته، وقلب سلام عادل ينبض.

تعبت أيدي الجلادين بعد ان نزعوا البصر عنه، ولكنه صمد متمسكا ببصيرته.

طرحوا الجسد النحيف المهشم ارضا، سحقوه بمدحلة حديدية ضخمة ففاضت روح ذلك الانسان الذي بقي فذاً يلهم العزيمة والصمود لرفاقه ويهب بسخاء المثل العراقي للبطل الذي يلهم الناس جميعاً.

---

*(الثقافة الجديدة)،العدد 195/آذار 1988، ص 11-24

نصوص مترجمة

تأثير الديمقراطية وعدم الاستقرار السياسي والاستقطاب على النمو الاقتصادي: رؤى نظرية

جاكوب دي هان
كليمنس سيرمان
ترجمة: د. هاشم نعمة

ما دفعني لترجمة هذه الرؤى النظرية هو أنها تلامس الوضع في العراق على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي خصوصا بعد عام 2003، حيث تتحدث الحكومات المتعاقبة منذ عشرين سنة عن التنمية والاستثمار، ولكنها تخلق في الوقت نفسه بيئة طاردة للتنمية والاستثمار الداخلي فما بالك بالاستثمار الخارجي، نتيجة عدم وضوح سياستها التنموية وتبني نهج المحاصصة الطائفية ـ الإثنية المولد للفساد المالي والإداري والمعيق الأكبر للتنمية بأبعادها الشاملة.

1 - الديمقراطية

طُرحت العديد من وجهات النظر بشأن العلاقة بين الحريات الديمقراطية والنمو الاقتصادي. فبعد سيروي وإنكيليس نحن نصف المواقف النظرية المختلفة مثل رؤى ''الصراع''، و''التوافق'' و ''الشك'' على النحو الاتي.

الشيء الأساسي بالنسبة إلى رؤية الصراع هو الادعاء بأن النمو الاقتصادي يُعاق من قبل المؤسسات الديمقراطية للدولة. بكلمات أخرى، تعد الديمقراطية والنمو الاقتصادي ذات اهتمامات متضاربة. وعلى حد تعبير بهاجواتي: ''يطرح الاقتصاد السياسي للتنمية اختيارا قاسيا بين التطوير السريع (الذاتي) والعملية الديمقراطية''. من وجهة النظر هذه، يتطلب النمو الاقتصادي السريع نظاما سلطويا يقمع الحقوق المدنية والسياسية الأساسية. إن الحجج التي تم طرحها لدعم وجهة النظر هذه تتلخص بالاتي:

يجادل هنتنغتون أن المؤسسات السياسية في البلدان النامية تكون ضعيفة وهشة. أضف إلى ذلك، الضغط الهائل على الحكومة التي أنشأها نظام ديمقراطي وتضخم مصادر عدم الاستقرار الحالية. وبسبب توفر قدر أكبر من القنوات التي من خلالها يمكن لمجموعات الضغط أن تعبر عن مطالبها، وبسبب أن السياسيين يجب أن يلبوا هذه المطالب للبقاء في السلطة، لذلك يذهب الجدل الى أن النظام الديمقراطي يصبح بسرعة مثقلا بالأعباء. إضافة إلى ذلك، أن كثيرا من المجتمعات النامية محاصرة بالصراعات الداخلية الناتجة من عدم التجانس المناطقي والديني والإثني والطبقي والتي سوف تظهر إلى العلن في الديمقراطيات. النظم السلطوية هي

أكثر قدرة على كبح المعارضة والصراع التخريبي.

ليست الحجة الأولى موجهة حقا ضد الحريات الديمقراطية، لكنها مجرد دعوة إلى الاستقرار السياسي. في الواقع، هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن عدم الاستقرار السياسي قد يُعيق النمو الاقتصادي. فقط إذا كان من الممكن إثبات أن الدول الديمقراطية هي أكثر عدم استقرار من الناحية السياسية. ليست الحجج الأخرى ضد الديمقراطية هي بالضرورة قاطعة. أولا، قد يُجبر الطغاة أيضا على اتباع سياسات انتهازية إذا كان بقاؤهم في المنصب مهددا. ثانيا، لا تكون النظم السلطوية متجانسة. في حين أن الارتباط الواضح للنمو الاقتصادي المرتفع بنظم سلطوية قد اقترح من تجربة عدد من النظم غير الديمقراطية "تكنوقراطية" (مثل كوريا الجنوبية وتايوان)، من الواضح أن هناك الكثير من الأمثلة المعاكسة مثل "كلبتوقراطية"* و| أو نظم سلطوية غير كفوءة قاد حكمها إلى انخفاض معدلات النمو الاقتصادي. ثالثا، يمكن أن يعني الاستبداد الحكم التعسفي والتدخل غير المبرر، مما قد يعوق النمو الاقتصادي. أخيرا، من الملاحظ في ما يتعلق بالحجة الأخيرة، قد يتم الرد عليها، بأن الدولة القوية والدولة السلطوية لا تكون بالضرورة الشيء نفسه.

لا يتوقف بعض مؤيدي رؤية التوافق عند مجرد مناقشة رؤى أتباع منظور الصراع، ولكن على العكس من ذلك يجادلون بأن الحكومة الديمقراطية هي الأنسب لتعزيز التنمية الاقتصادية المستدامة والمنصفة. ومن وجهة نظرهم، أن العمليات الديمقراطية ووجود الحريات المدنية والحقوق السياسية تولد ظروفا أكثر ملاءمة للنمو الاقتصادي. وتكون التعددية الاقتصادية ضرورية للنمو الاقتصادي، وتكون التعددية السياسية شديدة الأهمية لبقاء التعددية الاقتصادية وقابلية نموها. على الرغم من أن (بعض) أنصار وجهة نظر التوافق يدركون بأن الحكم الاستبدادي يمكن أن يُحدث في بعض الحالات معدلا أعلى للنمو الاقتصادي في المدى القصير، لكن يُنظر إلى الحكم الديمقراطي على أنه أكثر ملاءمة للنمو المستدام والمنصف على المدى البعيد.

أخيرا، يشك المؤلفون الذين يشتركون في ما يمكن تسميته بالرؤية المتشككة، في وجود أي علاقة نظامية بين الديمقراطية والتنمية الاقتصادية. وبكلمات أخرى، أن السياسة وحدها لا تهم كثيرا. الأهم من ذلك، ربما، نوع السياسات المتبعة والترتيبات المؤسسية مثل طبيعة النظام السياسي الحزبي (حزبين إزاء التعددية الحزبية) والاستقرار السياسي الذي قد لا يكون مرتبطا بمسألة الديمقراطية في حد ذاتها.

2 - عدم الاستقرار السياسي والاستقطاب

حديثا، جرى إثراء الأدب الاقتصادي بدراسات فحصت التأثيرات السلبية لعدم الاستقرار السياسي على النمو الاقتصادي. هناك العديد من التفسيرات النظرية التي تفترض وجود علاقة سلبية بين عدم الاستقرار السياسي ونمو الناتج الوطني. ويمكن تقسيم هذه النظريات أساسا إلى مجموعتين رئيستين: تسمى الأولى برؤية "السياسات المعاكسة"، وتتميز الثانية ببرهان "الاضطرابات الاجتماعية".

يتمثل الجانب المركزي في دراسات

المجموعة الأولى في الادعاء بأن سياسات اقتصادية معينة يمكن أن تضر النمو الاقتصادي. وفي ما يتعلق بأصل السياسات المعاكسة هذه، يمكن تمييز مدرستين فكريتين. تشدد المدرسة الأولى على الأفق الزمني للسياسيين ودرجة الاستقطاب في المجتمع (رؤية قصر النظر والاستقطاب)، بينما تركز المدرسة الأخرى على الخلافات داخل الحكومة (ضعف المنهاج الحكومي). وفقا للدراسات القائمة على "رؤية قصر النظر والاستقطاب" يكون السياسيون على استعداد لتعزيز السياسات التي تخدم مصالحهم أو مصالح مؤيديهم، والتي قد تكون أقل فائدة لرفاهية مواطنيهم. وتعتمد أرجحية هذه السياسات السلبية على الأفق الزمني للسياسيين ودرجة الاستقطاب في المجتمع. ويمكن ذكر العديد من الأمثلة.

عرض أليسينا وتابيليني نموذجا من حزبين مفاده أن عدم اليقين بشأن السياسات المالية للحكومات العمالية والرأسمالية المتعاقبة يؤدي إلى هروب رأس المال الخاص مما يقلل من الاستثمار المحلي، وبالتالي النمو الاقتصادي في البلدان النامية. ويؤدي عدم اليقين هذا إلى تصاعد أرجحية تغيير الحكومات ودرجة عالية من الاستقطاب بين الأحزاب السياسية.

بصورة مماثلة، عرض أليسينا وتابيليني في نموذج الحزبين ما يتعلق بقرارات الموازنة الحكومية، حيث يكون مستوى عجز الميزانية مرتفعا في حالة سرعة تغير الحكومة وفي المجتمعات شديدة الاستقطاب. وفي نموذج مماثل بشأن الدَّين العام، عرض بيرسون وسيفنسون كيف أن الحكومة المحافظة التي تفضل تقليل الإنفاق العام لكن تعرف أنه من المحتمل أن يتم استبدالها من قبل حكومة عمالية مع أولويات مختلفة، سوف تزيد من الاقتراض العام، وبالتالي الحد من مساحة المناورة لخليفتها. وقد أشار بلانشارد وفيشر الى أن التخفيضات الضريبية خلال إدارة ريغن في الثمانينيات كانت أيضا مدفوعة من قبل هذه الاعتبارات. مهما كان السبب، قد يؤدي العجز المرتفع والدائم إلى إعاقة النمو الاقتصادي. كما أشار فيشر، من المحتمل أن يكون عجز الميزانية المرتفع مرتبطا بشكل سلبي مع التراكم الرأسمالي، وبالتالي النمو الاقتصادي، لسببين؛ الأول هو المزاحمة. والثاني هو أنه، مثل معدل التضخم، يشير العجز إلى أن الحكومة تفقد السيطرة على اجراءاتها. في الواقع، ذكر ايسترلي وريبيلو أن هناك علاقة متينة بين فائض الميزانية الحكومي والاستثمار الخاص والنمو الاقتصادي.

قد تعود جذور مستويات التضخم المرتفعة أيضًا إلى عدم الاستقرار السياسي والاستقطاب. فقد قال إدواردز وتابيليني: "ليس هناك شك في أن السلطات الأرجنتينية، على سبيل المثال، لديها فكرة واضحة عن عواقب تسريع نمو الائتمان المحلي على التضخم وميزان المدفوعات وهروب رأس المال وهلم جرا. فهم ما زالوا يعرفون هذه العواقب واختاروا المضي قدما. لماذا؟" يعتمد جوابهم على نموذج الشهرة العائد إلى بيرسون وتابيليني وكما يأتي: أولا، تواجه الحكومات في المجتمعات المستقطبة صعوبات كبيرة في تخفيض التضخم من خلال زيادة مكافحته المقرون بسمعتها. ثانيا، سيكون التضخم أعلى عندما يكون احتمال إعادة انتخاب الحكومة الحالية

قليلا. لماذا ينتهج السياسي بعد كل ذلك سياسات مؤلمة إذا كانت فرصة جني الثمار ضئيلة؟ على نفس المنال، عرض كوكيرمان وإدواردز وتابيليني أن كثرة تكرار تغير الحكومة مقرونا بالاستقطاب السياسي لهما تأثير سلبي على فعالية الحكومة في رفع الضرائب. وجادل هؤلاء الكتّاب أن إصلاح النظام الضريبي غير الفعال يحتاج إلى الوقت والجهد. سوف لا تحاول الحكومة الحالية تنفيذ هذا الإصلاح إذ هي تعرف بأن منافسيها السياسيين سيستفيدون من تحسن جمع الضرائب في المستقبل القريب. ومع ذلك، تعتمد الحكومة بشدة على "ضريبة التضخم" لتمويل نفقاتها. وفيما إذا تكون المستويات العالية للتضخم ضارة بالنمو الاقتصادي، هذا الأمر ليس مؤكدا في المرحلة الحالية من النقاش. لكن ما زال فيشر يجال بقوة بأن النمو الاقتصادي يرتبط بعلاقة سلبية مع التضخم.

المدرسة الثانية، تؤيد ما يعرف في الأدب بفرضية "الحكومة الضعيفة"، إذ تختلف عن المدرسة الأولى بناحيتين؛ الأولى، تركز هذه الدراسات على التأثير السلبي للصراعات داخل الحكومة بدلا من التركيز على العواقب السلبية للصراع السياسي بين الحكومات المتعاقبة. الثانية، تعتبر معرفة الترتيب المؤسسي للتمثيل الانتخابي أساسية في تفسير جزء من السلوك السلبي للسياسيين. ويجادل بوبر أن النظام الانتخابي التمثيلي النسبي يقود إلى حكومات ضعيفة هي أكثر عرضة لتقديم التنازلات أمام الضغط السياسي لجماعات المصالح الخاصة. وهو يجادل بأن هذا النظام يُمَّكن العديد من الأحزاب الصغيرة أو جماعات المصالح من أن تتمثل في البرلمان، حيث "يمكنها أن تمارس تأثيرا كبيرا - وحاسمًا في كثير من الأحيان - بصورة غير مناسبة على تشكيل الحكومة واستقالتها وهكذا على كل قراراتها". وجادل روبيني وساكس أن ارتفاع عدد الأحزاب المؤتلفة في الحكومة يجعل المفاوضات على نحو متزايد أكثر صعوبة للتوصل إلى قرارات سياسية، وسينتج هذا سياسات تكون بشكل متزايد دون المستوى الأمثل. علاوة على ذلك، يذهب الجدل، الى أن هذه السياسات ستواجه مخاطر أكبر لتكون دون المستوى الأمثل في فترة الصعوبات الاقتصادية. وفقا لروبيني وساكس، يمكن أن يفسر هذا لماذا استغرق الأمر من معظم دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية التي لديها حكومات ائتلافية متعددة الأحزاب وقتا أطول بكثير لتقليل عجز الميزانية الحكومية في الثمانينيات مقارنة بالبلدان ذات أغلبية الحزب الواحد أو الحكومة الرئاسية.

الحجر الأساس في رؤية "الاضطرابات الاجتماعية" هو الادعاء أن النمو الاقتصادي يتأثر سلبا نتيجة الاضطرابات الاجتماعية - السياسية. ويشير الجدل النظري في هذه الدراسات إلى أن الاضطرابات الاجتماعية - السياسية تخلق حالة من عدم اليقين والتي يفترض أن يكون تأثيرها سلبيا على النمو الاقتصادي المستدام. وفي أوقات الحروب الأهلية والثورات والانقلابات العنيفة يمكن للمرء أن يتوقع خسارة الممتلكات. علاوة على ذلك، من المحتمل أن يكون هناك نزوح سكاني. وفي مناقشة كواسي فوسو لتأثيرات الانقلابات العسكرية في أفريقيا جنوب الصحراء، ذكر: "من المعتاد أيضا

أن تتولى حكومة جديدة السلطة من خلال الوسائل القسرية لإخضاع أعضاء النظام القديم أو حتى أولئك المرتبطين به عن بُعد، للتحقيق باسم القضاء على الفساد، أو مصادرة الكثير من ممتلكاتهم أو سجنهم لفترة وجيزة أو ربما إعدامهم. وبالتالي، فإن غياب سيادة القانون والحريات وحماية الممتلكات الخاصة والتبادل السوقي من المرجح أن تصاحب عدم الاستقرار السياسي''. وتجدر الإشارة أيضا إلى أنه عند انتهاء الحرب الأهلية و/ أو الملاحقات القضائية، ستكون هناك حاجة إلى الوقت لبناء الثقة في الحكومة بحيث لن تتكرر أشكال مماثلة من الانتهاكات في المستقبل. ومع ذلك، فإن الاضطرابات الاجتماعية والسياسية الأقل عنفا مثل الإضرابات وأعمال الشغب والمظاهرات السياسية يتم تنفيذها للإضرار بأداء النمو، لأنها تخلق حالة من عدم اليقين. وعلى الرغم من أن الأدب المتعلق بالاضطرابات الاجتماعية-السياسية اجمع على الادعاء بأن الاضطرابات يكون لها تأثير سلبي، لكن لا توجد نظرية متفق عليها تشرح لماذا وكيف يقلل عدم اليقين من اتجاهات الإنتاج الوطني.

يناقش كواسي فوسو بأن الاضطرابات الاجتماعية وانتهاكات ''الحقوق المدنية'' تجعل الناس ومعظمهم من المثقفين يقررون مغادرة البلد، مما يتسبب في حدوث ما يسمى ''نزيف الأدمغة''. وتجدر الإشارة إلى أنه وفقا لنظرية النمو الكلاسيكية الجديدة القياسية (المعيارية) سيكون لهذا الأمر تأثير مهم على النمو فقط إذا غادر عدد كبير من العمال أو نزحوا داخل البلد. ومع هذا، وفقا لنظرية النمو الجديدة فإن أعدادا قليلة ولكنها ذات نوعية مهمة، فقد يكون لنزيف الأدمغة تأثيرات سلبية مهمة على النمو.

لا يزال يركز معظم الأدب المتعلق بعواقب الاضطرابات الاجتماعية - السياسية على التأثيرات السلبية في تكوين رأس المال. يجادل بارو بأن الزيادة في تعزيز حقوق الملكية، من وجهة نظر المستثمرين، تبدو مثل تخفيض معدلات الضرائب الهامشية. إذ يؤدي هذا التخفيض في معدلات الضرائب الهامشية إلى زيادة في معدلات النمو والتوفير. وبطريقة مماثلة، يجادل فينيريس وجوبتا بأن عدم اليقين بشأن الحق في التمتع بالدخل المستقبلي المتأتي من الادخار يقلل الحافز لدى الجمهور لادخار الدخل الحالي. وبالتالي، فإن الاضطرابات الاجتماعية - السياسية التي تزيد من عدم اليقين بشأن حقوق الملكية المستقبلية لديها تأثير سلبي على الادخار ومن ثم الاستثمار.

وفقا لنظريات تمويل الشركات المعيارية المتعلقة بالاستثمار، فإن مزيدا من عدم اليقين بشأن صافي العائدات المستقبلية، الذي ينتج في هذه الحالة من الاضطرابات الاجتماعية، يجعل المستثمرين يطلبون عائدات أعلى على استثماراتهم. وإذا افترض المرء في الوقت الحالي أن العدد الإجمالي لفرص الاستثمار سيكون ثابتا مع مرور الوقت، فإن الطلب على عائدات أعلى يعني ضمنا عددا أقل من المشاريع الاستثمارية المجدية اقتصاديا. في الواقع، يذكر شنايدر وفراي بأن الاضطرابات السياسية تقلل بشكل كبير من تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة. وتكون التأثيرات السلبية للاضطرابات الاجتماعية

على الاستثمار مهمة، بسبب أن الارتباط بين النمو والاستثمار هو على الأرجح أقوى علاقة ارتباط تم اكتشافها في أدبيات النمو التجريبية. يقول بلومستروم وليبسي وزجان: "يمكن أن يتفق بشكل عام الاقتصاديون والمؤرخون الاقتصاديون على افتراض أنه على المدى البعيد، لا يحدث نمو اقتصادي سريع دون استثمارات كبيرة في رأس المال الثابت". ويقود مباشرة الافتراض القائل إن الاضطرابات الاجتماعية-السياسية تكون ضارة بالنسبة إلى الاستثمار، إلى الافتراض بأن ذلك يكون أيضا ضارا بالنسبة إلى النمو. مع ذلك، قد لا يزال يجري التقليل من شأن تأثير الاضطرابات الاجتماعية - السياسية على الاستثمار ومن ثم على النمو، من قبل الأدبيات المعيارية. وفقا لبيندیك وسوليمانو يكون الاستثمار الكلي حساسا جدا لحالة عدم اليقين، بسبب عدم تناسق رد فعل الاستثمار على الصدمات. ويجادل هؤلاء الكتّاب أن الصدمة الإيجابية يتبعها دخول شركات جديدة إلى السوق، ومشاركة الأرباح بين جميع الشركات، ولكن في الصدمات السلبية تعاني فقط الشركات القائمة. وبالنظر إلى أن الاستثمار في الغالب لا رجوع فيه، ينبغي للمرء أن يستنتج أن دخول السوق يكون فقط مجديا اقتصاديا عندما تكون العائدات المتوقعة إيجابية. وعلى المستوى الإجمالي، من شأن ذلك أن يؤدي إلى حساسية عالية للغاية للاستثمار في ما يتعلق بحالة عدم اليقين، يتضمن ذلك عدم اليقين الناشئ من الاضطرابات الاجتماعية ـ السياسية.

---

* كلبتوقراطية، مصطلح يوناني يقصد به الحكومة التي يستخدم قادتها الفاسدون السلطة السياسية لمصادرة ثروة الناس والأراضي التي يحكمونها، عادة عن طريق اختلاس الأموال الحكومية أو اختلاسها على حساب أوسع السكان. وتعني الثيفوقراطية حرفيا حكم السرقة وهو مصطلح يستخدم بشكل مرادف للكلبتوقراطية. وتتمثل إحدى سمات السرقة الاجتماعية والاقتصادية السياسية في أنه لا يوجد في كثير من الأحيان إعلان عام يشرح أو يعتذر عن الاختلاس، ولا يجري توجيه أي تهم أو عقوبات قانونية ضد الجناة. (المترجم) عن
Kleptocracy - Wikipedia

الترجمة عن كتاب:
Jakob de Haan and Clemens Siermann, The Impact of Democracy and Political Instability on Economic Growth: a Review (Holland: University of Groningen, 1994).

حوارات

رائد فهمي يراجع 90 عاماً من مسيرة الحزب:

موقف فهد من الطبقة الوسطى في الحزب
أهمية أن يكون القائد جامعاً للمختلفين
الجبهة مع البعث والانسحاب منها

حاوره: زهير الجزائري وسوران قحطان

من عضو بسيط في اتحاد الطلبة حتى وصوله للمركز الأول في الحزب يروي الرفيق (رائد فهمي) سيرته في هذا اللقاء بمناسبة الذكرى التسعين لتأسيس الحزب. قبل ذلك نراجع معه، في الجزء الأول من هذا الحوار، فترات الصعود والانتكاس في وقفات مراجعة نقدية للتاريخ والحاضر *.

الثقافة الجديدة: بحسب حنا بطاطو، لعبت العلاقات القرابية، بالإضافة الى الثقافة، دوراً هاماً في الانتماء الى الحزب الشيوعي العراقي. انت كما نعرف انحدرت من أعالي الطبقة الوسطى، كيف لعبت علاقاتك العائلية دورا في انضمامك الى الحزب الشيوعي العراقي؟

رائد فهمي: نعم، من وجهة نظري، لعبت العلاقات القرابية والروابط العائلية دوراً مؤثراً في الانتماء لصفوف الحزب الشيوعي العراقي. ويعتمد هذا على قوة وطبيعة العلاقات داخل العائلة او العائلة الكبيرة الواحدة او البيئة القرابية المعينة. خصوصا إذا كان الشخص المؤثر ذا سلوك مقبول اجتماعيا واطلالة جيدة، ومستوى معلوماتي،

وله تأثير في العائلة. فبمثل هذه البيئات غالبا ما تكون قنوات الاتصال والاطلالة الفكرية شفاهية. وبالتالي تلعب اللباقة والمستوى الثقافي دوراً مهماً. ولكن مثل هذه التأثيرات القرابية تخفُّ تدريجيا مع التطور الفكري وغنى التجارب. الدور الذي تلعبه العلاقات القرابية في مسألة الانتماء بدأ يخف، ربما بسبب الفجوة الجيلية ان جاز التعبير، وغيرها.

والدي وأنا...

بالنسبة لي، البيئة هي السبب الرئيس لانتمائي لصفوف الحزب الشيوعي. حيث درس والدي في فرنسا عام 1936 . وفي هذا العام كانت "الجبهة الشعبية" في السلطة. وكان هناك قتال بين النازية والثورة في اسبانيا. خلال وجوده في فرنسا التقى بالرفاق الذين التحقوا بالثورة الاسبانية. فتأثر والدي بالأجواء اليسارية في فرنسا. وفي عام 1939، عاد والدي الى العراق وأكمل الحقوق. وعلى خلاف علاقات العائلة مع شخصيات من العهد الملكي كانت لدى والدي أثناء دراسة الحقوق دائرة معارف من الشيوعيين. من بينهم الشخصية المعروفة في أنصار السلام (موسى الشيخ راضي) و(خلوق امين زكي)، و(زكي خيري) .. كلاهما يسكنان في نفس المنطقة. إذاً بشكل عام كان والدي شخصية ديمقراطية وقريبة للشيوعيين. دون ان أنسى ان اختي الكبرى كانت في اتحاد الطلبة، وهي صديقة ليلى الرومي، وأخي أيضا كان ذا فكر تقدمي وصديقا للشيوعيين.
لاحقا ذهبنا الى بيروت وبعدها الى جنيف، وعندما عدنا الى العراق في عام 1964، كانت الكتب اليسارية قد بدأت في الدخول الى البلد. وقد كنت في ذلك الوقت متحفزا لمتابعة هذه الكتب. عمليا انا تشربت بالفكر التقدمي والماركسي قبل ان ادخل للحزب. أي في الفترة من 1964 لغاية انضمامي للحزب عام 1969.
اما في ما يخص شعوري بمعاناة الكادحين، فلم يكن عندي تماس مباشر بهذه الطبقات والفئات. كما اننا لم نعانِ من ضنك العيش. ولكن نحن عموما كعائلة كنا نتحسس هذه القضايا. خصوصا بعد ان أصبحت اختي طبيبة وفتحت عيادة لها في منطقة بغداد الجديدة، وكانت تعمل معها ممرضة شيوعية مناضلة، اسمها (مكية). توفيت في حادث سيارة – ربما استهدفت لأنها كانت نشطة جدا. وكان يرتاد العيادة الكثير من الكادحين والشيوعيين.

فهد والمثقفون

الثقافة الجديدة: في مرحلة تأسيسه ولاحقا، انتمى كثيرون مثلك إلى الحزب على الرغم من انهم ينحدرون من "الطبقة الوسطى". دخلوا الحزب عن طريق الثقافة. في حين حذّر (فهد)، خصوصا في مرحلة التأسيس، من دخول هذه العناصر الى الحزب، وسماهم "طلاب وظائف". ما هي وجهة نظرك بشأن تصورات (فهد) حول هذا الموضوع؟

رائد فهمي: ينبغي أن نضع رؤية (فهد) في زمانها. ضمن الجو العام السائد بالحركة الشيوعية آنذاك، تبدو هذه الفكرة مفهومة. طبعا هناك من يعتبر ذلك تشدداً، ومن يعتبره

تخوفاً من هذه الأوساط، بل وموقف مسبق إزاءهم. لكن أيضا في مرحلة التأسيس يجب ان تكون هناك معايير لضمان تماسك القاعدة. خصوصا وان هناك من لا يمتلك واقعاً اجتماعياً ينسجم مع برنامج واهداف الحزب، ومن بينهم المثقفون، ربما سيكون معرضاً الى أنواع مختلفة من المؤثرات والضغوطات. وهذا لا يعني أنك لا تملك رفاقا من المثقفين جاهدوا بحياتهم في سبيل الحزب وأهدافه.

لننظر الى البلدان الرأسمالية المتطورة، وعلى سبيل المثال الحزب الشيوعي الفرنسي، وفرنسا هي بلد المثقفين. والحزب الشيوعي الفرنسي هو أكثر حزب يستقطب المثقفين ونادرا ما نجد مثقفا في فترة الاربعينات والخمسينات وربما الستينات من القرن العشرين لم يمر بالحزب الشيوعي. لكننا نجد ان الكثير منهم انسحبوا من صفوفه. بل ان الشخوص الرئيسة لما بعد الحداثة اكثرهم كان في الحزب الشيوعي. لذلك فإن قلق وحذر الرفيق (فهد) إزاء هذه الشريحة اراه وارداً، كما ارى ان التشدد كان مرتبطاً بالأجواء والظروف السائدة آنذاك. كانت الشعارات التي يرفعها الحزب الشيوعي العراقي، بعلاقاته وامتداداته الأممية، والهالة الكبيرة التي كان يمتلكها خصوصا في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، كانت عنصرا جاذبا لبعض العناصر من المثقفين ممن لديهم نزعات ذاتية. ولا أقصد هنا انهم جاءوا بصيغة نفعية مباشرة. ولكن كانت هناك تطلعات شخصية لهم. لذا يمكننا ان نلاحظ ان هناك العديد من العناصر دخلت الحزب، وقدمت ما قدمت، ثم غادرت صفوفه.

لكن، دعونا لا نبالغ في هذا الموضوع. فعندما يكون هناك انتماء فكري، فإن هذا سيشكل رابطة قوية، وهذا يعني ان العضو ليس منتمياً بالتسجيل فقط. خصوصا عندما يحدث هذا الانتماء الفكري في سن مبكرة. حيث سيأخذ الفكر منحى يكرس باستمرار من خلال الفعل والمشاركة في الحياة السياسية. وبعدها تأتي مواجهة التحديات لتساهم في ترسيخ الانتماء. لنلاحظ، ان قسماً غير قليل من الذين ابتعدوا عن الحزب تنظيمياً، لكن أنماط تفكيرهم ليست بعيدة عن الفكر الماركسي او التقدمي. وبعضهم قد يختلف مع الحزب تنظيميا وسياسيا، لكنه بقي ضمن هذا الفضاء القريب من رؤية الحزب وفكر الحزب. ولذلك نحن نتحدث اليوم عن القوى الديمقراطية وغيرها.

ينبغي أن لا ننسى ان العمل الثقافي في بلداننا يلعب دوراً كبيراً. خصوصا في تلك البلدان التي لم يكتمل فيها بعدُ التبلور الطبقي. علما ان الصراع حول خيارات واتجاه فعل الثقافة والميدان الثقافي ودور المثقفين، سيساهم في حسم العديد من الخيارات.

الشخصية الكارزمية

الثقافة الجديدة: لو عدنا الى تاريخ الحزب ولحظات التأسيس نجد دائما ان الشخصيات الكارزمية لعبت أدوارا في قيادة الحزب، خصوصا في مراحل العمل السري. ما هو تقديرك للأسباب التي جعلت (فهد) يلعب هذا الدور المركزي في بناء والمحافظة على الحزب؟

رائد فهمي: دون أدنى شك، لعب الرفيق فهد

دورا كبيرا في تأسيس وبناء الحزب وفي المحافظة عليه. لقد كان (فهد) يتميز بجهادية عالية، ووعي متقدم، ليس بين الشيوعيين فقط، وانما على المستوى الاجتماعي. حيث كان وعيه وثقافته ومداركه وتجربته الشخصية أوسع بكثير من الآخرين. لقد كان بحق متكونا فكريا وسياسيا، خصوصا بعد دراسته في جامعة الشرق، حيث صار المامه أكبر بالفكر الماركسي. وقد انعكس كل هذا على خطابه وقدرته على الإقناع.

قبل فهد، لم يكن لقيادة الحزب (عاصم فليح وآخرون)، القدرة او الاستعداد للمواصلة. وربما لم يكن لديهم التكوين السياسي والتنظيمي الذي من خلاله يقدرون على مواجهة الضغوطات التي يتعرضون لها، كما انهم طرحوا على أنفسهم صيغاً نضالية وشعارات لا تتوافق لا مع امكانياتهم ولا مع الواقع. ولذلك عندما عاد الرفيق فهد الى الوطن كان دوره حاسما في ان يعيد تماسك الحزب ويعززه، وان يضعه على قواعد وأسس متينة جدا من خلال قدرات تنظيمية عالية، تطورت كثيرا خلال دراسته في موسكو، حاسماً الصراعات بدون هوادة، لكن أيضا بروح مبدأية عالية. وأيضا من خلال النضج الذي يجمع ما بين الوعي السياسي العالي والروح الثورية الكبيرة وأيضا إدراك الواقع وامكانياته، والتقدير السليم لموازين القوى. الانتماء الفكري لدى (فهد) وان كان عميقا جدا، الا انه لم يكن متشرباً بالفكر فقط، وانما بما يعبر عنه هذا الفكر من مصالح الشغيلة. فالفكر الماركسي بمنهجيته وبشموليته أعطاه زاداً سياسياً وثقافياً موجهاً لعمله ونشاطه. كما ان لديه تلك السجايا الشخصية المتميزة. فهو منضبط انضباطاً عالياً، ولديه استعداد كبير للعمل الدؤوب. و(فهد) مترو جدا في أحكامه، قليل الحديث، وشديد التركيز، مع قدرة كبيرة على الإمساك بالحلقة الرئيسية لاي موقف. يضاف الى ذلك، انه كان شخصاً كريماً بالعطاء، ولا اعتقد ان لديه ذاتيات. فهو منصهر بالحزب وذاته مندمجة كليا بالحزب. اما من ناحية المهارات فكانت لديه مهارات تنظيمية عالية لوضع أسس الحزب بصورة سليمة. كما كان قادراً على ان يوفر مقومات استمرار التأسيس. حيث نلاحظ ان لديه رؤية واضحة، تتعدى الفكر الشيوعي السائد آنذاك، وهو الفكر الستاليني المتشدد. لقد كان تطبيقه خلاقاً، حيث انفتح على المجتمع بفئاته المختلفة. فهو من جهة منفتح على المثقفين، لكنه من جهة اخرى يؤكد على دور العمال والفلاحين والنقابات. لقد كانت الاشكال التنظيمية في زمانه فيها الكثير من الابداع.

الرئيسي والثانوي

بالإضافة الى ذلك، كان (فهد) قادرا، من خلال إدراكه الكبير لطبيعة المجتمع، بتضاريسه المختلفة، على التمييز بين التناقض الرئيسي والثانوي، وبين الجوهري والتفاصيل. وكانت لديه رؤية استراتيجية، وقدرة ممتازة على تقدير الموقف، واختيار الشكل الأنسب للتعامل معه، سواء من ناحية تكتيكية ام من ناحية تنظيمية ام سياسية ..هذا ما مكّنه من تأسيس حزب متين ويواجه كل هذه التحديات بل وان ينتشر ويتوسع ويصبح اقوى قوة سياسية في حركة المعارضة والحركة الوطنية في العراق.

لقد كانت عند (فهد) قدرة كبيرة على الابتكار. فقد كان قادراً في مرحلة التأسيس،

من خلال الشكل التنظيمي الذي رسخه، ومن خلال التوجهات التي رسمها، من التغلغل في أوساط المجتمع المختلفة. وخطابه كان متميزاً، فبقدر ما هو متشدد تجاه الانتهازيين، لكن هذا الخطاب استطاع ان يجتذب الكثير من العناصر الديمقراطية.. بهذه الخصال والسجايا، والصلابة الشخصية، بهذا التفاني في مواجهة القضايا الشائكة بعقل بارد وهادئ بلا ارتباك، استطاع الرفيق فهد ان يضع الأسس العميقة لبناء الحزب الشيوعي العراقي.

باني الحزب

زرع (فهد) في الحزب ذلك الإحساس العالي بمشاعر ومزاج وأحاسيس وتقاليد الشعب، بأطيافه المختلفة، لكن دون ان يخضع لها. كان قادراً بفكره الشيوعي المتقدم ان يتغلغل بين الجماهير، دون ان يستثير الاتهامات، التي كان من الممكن ان يتعرض لها الحزب. وبالتالي، استمر دور الشيوعيين الطليعي في مواجهة الأفكار البالية والتقاليد المحافظة التي كانت تكبح وتعطل قدرات الشعب وتحافظ على عناصر التخلف وعدم التطور. كما استقطب الشيوعيون المثقفين والشرائح الأكثر تقدما في المجتمع، وشكلوا تياراً فكرياً نهضوياً، تحديثياً. كانوا في طليعة هذا العمل وكانوا متقدمين على المجتمع في هذا الجانب. اعتقد ان للرفيق فهد بصمة كبيرة جدا في هذا الجانب، اما بشكل مباشر واما من خلال تعبئة طاقات الحزب والتوجه في اتجاه ان ينسج العلاقات مع هذه الأوساط الحداثية في المجتمع وينشر أيضا الأفكار الرئيسية التقدمية، وان يقيم علاقات جيدة مع كل هذه الأوساط التقديمة والوطنية بأنواعها. لذا، عندما نقول إن (فهد) هو باني الحزب فإن هذه التسمية ليست اعتباطية. فدوره كان حاسماً في تثبيت أركان الحزب من ناحيتين: الأولى، الفكرية والأيديولوجية وأيضا ترجمتها السياسية حسب ظروف العراق. والثانية، هي تثبيت قواعد الحزب التنظيمية. سياسيا على سبيل المثال، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، استطاع فهد مواكبة تحالفات الاتحاد السوفيتي وانعكاساتها على الوضع الداخلي وتطوراته، متبنياً قضية التحالف الدولي ضد النازية بثبات كبير وبروح اممية عالية جداً. لكنه أيضا، كان قادرا رغم كل ذلك ان يجمع ما بينها وبين النضال الوطني. لم يكن هذا عملا بسيطا أبداً، خصوصا وان القوى الاستعمارية في العراق كانت بريطانيا، وطوال السنوات التي سبقت كان الحزب الشيوعي يخوض النضال ضد السلطة الاستعمارية وضد الهيمنة البريطانية. بالتأكيد لم يكن قادرا على ان يحقق هذه النقلات وهذه التكتيكات بمضامينها السياسية والاستراتيجية بدون ان تكون لديه مقدرة كبيرة جدا، فكريا وتنظيميا. يضاف لها القدرة على الجمع ما بين المرونة والصلابة.

لاحقا، وفي الفترة 1947 - 1954 حيث كانت هناك درجة معينة من الانفتاح خفّت فيها قبضة السلطة فعزز الحزب خلالها مكانته. لكن، ومع بداية الحرب الباردة، بدأ الحزب يشكل تهديداً للنظام، خصوصا بسبب مواقفه السياسية وقدرته التعبوية المتزايدة. فتم استهداف قيادته. وكما هو معروف، أعدم فهد ورفاقه. لقد كانت السلطة تعتقد انه بغياب قياداته فإن الحزب لن يستطيع ان ينهض

مجددا.
وبالفعل واجه الحزب سنوات مضطربة. وكانت قيادات الحزب شابة وعديمة الخبرة. ومع مواقفهم التي فيها من الجرأة والتحدي الكثير، كانت هناك أيضا مواقف فيها قفز على الواقع وانعزالية. وبقي وضع الحزب غير مستقر داخليا، لكن دون ان ينعكس ذلك أيضا على قيامه ببعض المبادرات الجماهيرية وبعض الفعاليات الجماهيرية سواء بالحركات الاحتجاجية في المدينة او في الريف. وكذلك تحالفات عام 1954، والتي كانت أيضا تحالفات ذات درجة متميزة نسبيا من حيث النضج والمرونة.
على الرغم من النجاحات النسبية، فإن وجود قيادات ذات تجربة محدودة، وربما نضج سياسي غير متكامل، تسبب في النهاية في ظهور الانقسامات.

الحزبي والوطني

الثقافة الجديدة: رفع (فهد) شعاراً مهماً، وهو)قووا تنظيم حزبكم.. قووا تنظيم الحركة الوطنية)، وهنا جمع بين الوطنية والشيوعية، ماهي رؤيتك لهذا الشعار؟ وهل يمكن استلهامه في عراق اليوم؟

رائد فهمي: هذه النظرة الجدلية كبيرة ومتقدمة جدا، ذلك ان تاريخ الحزب الشيوعي العراقي مرتبط بالبعد الوطني للعراق. حيث كان الحزب موضوعيا، وبتأثير (فهد) أيضا، أحد أبرز القنوات الفاعلة في تجسيد المصلحة الوطنية والمجتمعية المرتبطة بالهوية الوطنية الكبيرة، والعابرة للانتماءات الضيقة. الحركة الوطنية والشيوعية العراقية دفعت باتجاه بناء الهوية الوطنية العراقية. هذه الهوية لم تكن جاهزة، بل كانت عمليا في طور التشكل. والحركة الوطنية بنضالاتها ساهمت في تشكيل هذا الانتماء الوطني والهوية الوطنية، واعتقد ان (فهد) والحزب الشيوعي العراقي يعود لهما الجزء الكبير من هذا الفضل.
وقد كان (فهد) ينظر الى الأوضاع وتعقيداتها ويتعامل معها جدليا، خصوصا مع البعدين الطبقي والوطني، مدركا الترابط المتبادل بين تقوية صفوف الحزب وتعبئة القوى الوطنية الحقيقية. عمليا أحدهما يعزز الاخر. كما انه كان بعيدا عن النظرة الحزبية والتنافسية الضيّقة التي ربما تكون سائدة لدى بعض المثقفين، وحتى بعض المناضلين.
هل هذه المقولة تنطبق اليوم؟ بصراحة القضية ليست بهذه السهولة. ففي السابق من ينغمر في النضال الوطني هم اما شخصيات لهم عمق اجتماعي او تيارات فكرية جذورها ضاربة في المجتمع. وكانت في الغالب تعبر عن مصالح طبقات وفئات اجتماعية تلعب دوراً تقدمياً. على سبيل المثال: الحزب الوطني الديمقراطي، وأيضا الكثير من العناصر والشخصيات الديمقراطية في تلك الفترة. يبدو المشهد السياسي اليوم أكثر تعقيدا، فعملية تحديد الحركة الوطنية أصعب. فخلاف الشيوعيين والديمقراطيين، نجد هناك أحزابا وحركات ذات أبعاد مناطقية ومحلية وطائفية تنطلق من الهويات الثانوية. اما الأحزاب، خصوصا تلك التي نشأت بعد انتفاضة تشرين 2019، فليس لديها حاليا، ذلك العمق المجتمعي بحيث نستطيع القول انهم معبرون عن حركة وطنية راسخة في المجتمع. على الرغم من ان الأحزاب

الأخيرة - ما بعد تشرين- كانت، بهذا المعنى او ذاك، نتاج لفعل وطني عام وجارف، وبالتالي، عندما نقول نقوّي تنظيم الحركة الوطنية اليوم، من نقوي؟! على الرغم من أننا سنظل نستلهم هذه المقولة، ونسعى الى تطبيقها في ظروفنا الراهنة، لكن تطبيقها أصعب، وفيه خصوصيات لم تكن موجودة سابقاً. في كل مراحل تطور العراق الحديث نلاحظ ان الفترات التي ينتعش فيها الحزب الشيوعي يكون فيه العراق كله منتعشا. وهذا الامر لم يأت عبثا وانما جاء حصيلة وشائج الشيوعيين بالمجتمع وتعبيرهم عن المصالح الطبقية الاجتماعية، بل وأيضا عن مصالح واسعة. كما عبّروا عن ثقافة عامة، ثقافة الحداثة والتنوير.

الثقافة الجديدة: ننتقل الى مرحلة الشهيد سلام عادل، ونركز على شخصيته. شاب في مطلع الثلاثينيات يصير عضوا في المكتب السياسي، ولاحقا سكرتيرا للجنة المركزية للحزب، بينما هناك رفاق مخضرمون أمثال زكي خيري وبهاء الدين نوري وعامر عبد الله يتقدمون عليه في العمر والثقافة والخبرة التنظيمية. كيف وما هي الميزات التي أهلته لهذا الدور؟

الجامع بين المختلفين

رائد فهمي: ان تولي المواقع القيادية في تلك الفترة وفي ظروف الحزب، وهو حزب سري، استندت على الخيارات والعوامل الداخلية للحزب. واحدة من أهم الصفات المهمة والتي تؤهل الرفيق أن يحتل هذا الموقع القيادي هي القدرة على ان يكون جامعا. سلام عادل يتميز بهذه الصفة. طبعا، بالإضافة الى كونه يمتلك الكثير من السجايا الأخرى المهمة. نجح الرفيق سلام عادل في الكثير من الميادين النضالية، في البصرة قاد إضراباً عمالياً وكان له حضور حقيقي في الميدان الجماهيري. وفي الميدان التنظيمي، كما ذكرت سابقا، كانت لديه مواهب تنظيمية شخصها الحزب مبكرا. ولكن كل هذه الأمور ليست كافية. بمعنى يجب ان تتوفر في الرفيق القيادي المزايا الفكرية والتنظيمية والجماهرية. بالإضافة الى المزايا الشخصية الأخرى من قبيل التفاني، ونكران الذات، والعطاء غير المحدود. كل هذه موجودة ربما عند عدد غير قليل في قيادات الحزب، لكن على مختلف المستويات. الميزة الإضافية الأكثر أهمية لمن يتصدر الموقع القيادي، كما ذكرت سابقا، هي ان يكون عنصراً موحِداً وجامعاً في الحزب، ويكون قادراً على التعامل مع الحزب وتنوعه. فالحزب يمثل انعكاسا للمجتمع العراقي، من قوميات مختلفة، وديانات ومذاهب مختلفة، ومن مناطق مختلفة. بالإضافة الى تفاوت بين الريف والمدينة ودرجة التحضر... كل هذا ينعكس على السيكولوجيات وسلوكيات الرفاق. وربما ينعكس في خلافات سياسية، مع شيء من الصراع الفكري داخل الحزب. القدرة على التوحيد والجمع مهمة جدا، وقد مهدت ومكنت ان يتولى رفيقنا سلام عادل قيادة الحزب.

غير ان للشخصية الجامعة شروطها. فهناك واقع سياسي يفرز وجهات نظر مختلفة، مهما كانت الشخصية بارعة في جمع الرفاق، لكن ربما الواقع السياسي يفرض عليك قرارات حاسمة. وبالتالي، يصعب ان تجمع بين

اتجاهين متعارضين. وقد برزت إشكاليات مع الرفاق الأكبر سنا والأكثر خبرة، خصوصا بعد ثورة 1958 وإطلاق سراح الكثيرين منهم وضمهم الى قيادة الحزب. البعض منهم يعتبر نفسه أقدم، وربما أقدر فكريا. ولكن، ما هو اهم من ذلك، كان التفاوت في تحليل الأوضاع، خصوصا السياسية. وكذلك تقدير المواقف في ظرف غير طبيعي. عندما انتقل الحزب بعد عام 1958 الى ان يكون قوة رئيسية في البلاد، وتوجهت اليه مئات الآلاف من الناس، امتلك الحزب، في تلك المرحلة، إمكانيات كبيرة، ليس جماهيرياً فقط، بل كان له حضور في السلطة ومؤسساتها. وكانت قضايا دفع العملية الثورية وتجذيرها، مثل دفع عملية التحول المجتمعي باتجاه تقدمي، وكذلك تجذير العمليات الاجتماعية في الريف والمدينة سواء على صعيد الإصلاح الزراعي او عملية التصنيع او عملية استكمال الاستقلال الاقتصادي والتحالفات ودور الحزب في هذه التحالفات، كلها كانت مواضيع راهنة.

الردة والاقتحام

كان الصراع حول الوجهة، والموقف من السلطة وكيفية التعامل معها، في ظل أوضاع دولية متوترة خاصة بالنسبة للعراق الذي كسر سلسلة الهيمنة الاستعمارية بالمنطقة، وكان من الممكن ان يشكل موقعا متقدما في الحركة الشيوعية بالعالم، وعلاقته بالاتحاد السوفيتي. وبالتالي أصبح لمثل هذه القضايا أبعاد تتعدى العراق، حيث اعتبر العراق أحد الأهداف وأحد البلدان التي لا بد ان تخمد فيها الحركة الثورية. وهذا هو سبب محاربة نظام ثورة 14 تموز. وكان لكل هذا بالتأكيد انعكاس على موقف الاتحاد السوفيتي الدولي. فدخل وضع العراق بمعادلة إقليمية ومعادلة دولية أيضا. كل هذه المعادلات والحلقات وكيفية التعامل معها تؤثر على الوضع الداخلي في العراق، خصوصا في ظل وجود قيادة عسكرية ذات بعد وطني وشعبي لكنها غير ديمقراطية بل وتخشى الديمقراطية، قيادة تعمل على التوازنات، وتخشى من البعد الجماهيري وامكانيات الحزب.. كل هذه القضايا واجهتها قيادة سلام عادل الشابة. واعتقد ان بوصلته كانت سليمة ولديه روح اقتحامية أكثر من رفاقه الآخرين. وهنا يدخل عنصر تقدير موازين القوى. نعم، لقد كان للحزب وأصدقائه مواقع مهمة بالجيش والسلطة، ولكن على الصعيد الجماهيري كانت هناك إشكالية في الفصل بين جمهور الحزب وجمهور عبد الكريم قاسم.

والسؤال الآن: هل كان للعمر دور في المصاعب التي واجهها الرفيق سلام عادل في قيادة الحزب؟ وكذا الحال بالنسبة للمستوى الفكري والثقافي؟ فهل كان لهذه المسائل دور في المسار الذي أخذته علاقاته داخل الحزب؟ أو في القرارات التي اتخذها أو لم يتخذها؟ ربما لعبت هذه المسائل)العمر، المستوى الفكري والثقافي) ... دورا، لكن العوامل الأخرى كانت أكبر. ان المواقف التي حصلت، ناجمة إما عن تباينات فكرية على مستوى القدرة على قراءة الواقع واستخلاص المهمات الرئيسية، أو كانت ناجمة عن ميول مختلفة إزاء مدى الاستعداد في تعميق العمل النضالي وتعميق المسيرة. إلى أي حد نحن قادرون ان نمضي بها. يجب ألا ننسى ان الموقع الطبقي أو الموقع الاجتماعي للرفاق

وخلفياتهم تلعب دوراً وحتى خياراتهم الفكرية. البلد يواجه أسئلة مهمة جدا وخيارات لها ثمن باهض. بأي اتجاه تذهب الثورة وكيف يكون موقف الحزب؟

الثقافة الجديدة: إلى أي مدى كان للصراع او للتباينات، التي حصلت في فترة ثورة 14 تموز بين قيادة الحزب، دور في حجم خسارة الحزب في لحظة انقلاب1963 وما بعدها؟ بمعنى، ليست فقط هي وحشية الانقلابيين، وإنما الوضع التنظيمي الداخلي كان له دور أيضا؟

رائد فهمي: عندما سافر (سلام عادل) الى الاتحاد السوفيتي، بقي الرفاق الأكبر عمرا، وكان لهم دور في سفره. طرح السؤال: ما هي الإجراءات التي اتخذوها، خصوصا وان عبد الكريم قاسم بدأ تقريب العناصر المعادية للحزب والبعيدة عن نهج الثورة في هذه الفترة؟ كيف تفاعلوا وما هي الإجراءات التي اتخذوها؟! هل ضغطوا على عبد الكريم قاسم كي يتخذ الإجراءات الاحترازية الضرورية؟ لقد ابقوا القضية سائبة إلى حد ما، من وجهة نظري. التباينات والانقسامات التي حصلت في قيادة الحزب لعبت دورا مهما في المآسي التي حصلت لاحقاً. ففي فترة 14 تموز لم تعد قضية الحزب بمعزل عما تواجهه البلاد من تحديات وخيارات كبيرة وصراع محتدم ببعده السياسي والطبقي والاجتماعي. الصراع الآن ما عاد على خلافات نظرية بل هناك تطبيقات عملية وبأي اتجاه علينا ان ندفع العملية وهي عملية فيها بُعد ثوري. وحدة القيادة وانسجامها عامل مهم جدا في قدرة أي حزب على ان يصمد أمام المخاطر ويحقق نجاحات. كما ان قدرة الحزب على رصد التطورات واتخاذ ما يلزم في ظل التخلخل الحاصل في قيادة الحزب وفي العمل الجماعي، لم يكن بالدرجة المطلوبة. كان هناك تفاوت كبير في تقدير الخطر، خصوصاً حين بدأ عبد الكريم قاسم تقريب المعادين للشيوعيين والمعادين للثورة وغيرهم من عناصر الثورة المضادة. ما هي الاجراءات التي تم اتخاذها على الاقل لحماية الحزب؟ وما هي المواقف الأخرى الاكثر جذرية التي كان ممكن اتخاذها في تلك الظروف؟ كانت عند الحزب خطة طوارئ، ولكن ما هي إمكانية تنفيذ هذه الخطة؟ وكم كان الحزب قادرا ان يعبّئ نفسه ويرفع درجة يقظته إزاء نشاطات تآمرية وصراع محتدم داخليا وخارجيا؟ والصراع الداخلي كان دمويا بكل المعاني، فعمليات الاغتيال التي طالت الحزب كبيرة جدا.

وفي النهاية، لقد دفع الحزب ثمنا فادحا. وهنا لا أريد وانا أتحدث عن تلك الفترة ان احمل أحدا المسؤولية أو ان ألقي اللوم على أحد. فالحديث سهل الآن، عن السلبيات، بعد ان وقعت الأحداث بعشرات السنين.

عندما نتحدث عن الكاريزما فإن الشهيد سلام عادل رمز يجسد البطولة الفائقة وغير الطبيعية. وهي قيمة رمزية بطولية دخلت في رصيد الحزب، وضعت محددات لطبيعة القيادة للحزب الشيوعي العراقي؛ إلا انها أيضا كانت قوة مهمة ساهمت في ان يتمكن الحزب من تجاوز الصعاب وحملات التصفية. الحزب يتحرك أيضا من خلال الرصيد الرمزي، الذي كان يلعب دور التعبوي ودور الملهم ودور الجاذب خاصة الأجيال الشابة. كان سلام عادل وسيبقى مجسدا لروح التحدي، وروح المقاومة

ورفض الظلم.
اعتقد ان الطريقة التي استشهد فيها الرفيق سلام عادل ومن قبله الرفيق فهد خلقت هالة مهمة وركيزة مهمة لمكانة الحزب الشيوعي وكانت عنصراً مهماً جدا، ومكنت الحزب ولا تزال تمكنه من ان يتجاوز الصعاب، وان يستمر وان يصمد ويتجاوز كل المعوقات التي تستهدف وجوده الجسدي والمادي وليس فقط فكرا وتنظيما.

طالب في بريطانيا

الثقافة الجديدة: عندما نعود إلى سيرتك الحزبية، أنت سافرت الى الخارج للدراسة. وكان لديك هناك نشاط طلابي واضح. حدثنا قليلاً عن ذلك!

رائد فهمي: في تشرين الأول عام 1970، ذهبت ببعثة الى بريطانيا عن طريق وزارة النفط. وفي تلك الفترة كان الحزب يتعرض الى ضربات ضد تنظيماته في بغداد بدأت تقريبا في أيّار 1970. كنت مختفيا عندما بدأت الامتحانات الوزارية. وبقيت كذلك حتى خروجي من العراق. أتذكر ان عدد الشيوعيين في البعثة هو ثلاثة فقط من بين 36 مبتعثاً. كان معي عادل خصباك، وكذلك المرحوم هاشم بنيان. وكنا مرتبطين بالحزب. في تلك الفترة قدمت طلب الانتماء، وهاشم أيضا، كان نشطاً في اتحاد الطلبة في الحلة. لكن، كل العدد المتبقي لم ينتم أحد منهم الى صفوف حزب البعث لاحقاً.
ذهبنا كطلبة بكالوريوس، ثم طلبنا بعدها التمديد للماجستير وحصلنا على التمديد، لكننا فوجئنا بعد شهرين بتبليغ من وزارة النفط بقطع البعثة والعودة فورا لحاجة البلد الماسة لنا. انا شخصيا بقيت واكملت على حسابي الخاص وهذا الكلام عام 1975. لاحقاً عرفت ان السبب هو ان الاتحاد الوطني في بريطانيا أطلع على أسماء المبعوثين وأبلغ قيادة الاتحاد بأن كل البعثة من الشيوعيين. أتذكر أن ثلثي البعثة كانت في جمعية الطلبة العراقيين في بريطانيا لذلك هم يعتبرون ان كل من في الجمعية شيوعيون.
في بريطانيا، كانت هناك جمعية الطلبة العراقيين. وهي جمعية راسخة، نشأت منذ الخمسينات ولديها فروع في مختلف مناطق بريطانيا. وكانت تضم الشيوعيين واصدقاءهم، وكذلك عناصر لبرالية، لذا يمكن اعتبارها تنظيماً طلابياً واسعاً واوسع من تركيبة اتحاد الطلبة الموجود في الداخل. وكان هناك صراع بين الحزب (اللجنة المركزية) والقيادة المركزية. وكان الطلبة المنتمون للقيادة المركزية نشطين.
عقدت الجمعية في مدينة مارغيت مؤتمرها الأول في اذار ونيسان 1971. وكان بالفعل حدثا مهيبا آنذاك. ومن الموجودين في المؤتمر اذكر عزيز عليان وسعيد سطيفان ولبيد عباوي.. كل هؤلاء كانوا في اللجنة التنفيذية في الجمعية. واذكر ان النقاش كان حول الجبهة. وكان موقف القيادة المركزية رافضا لها.
كانت الجمعية مدرسةً سياسية بحق، لأنه كان فيها عمل سياسي مكثف على صعيد كل ما يتعلق بالعراق، وتنظيم الطلبة العراقيين. وكذلك كان لها تنظيمات حزبية وتنظيمات ديمقراطية، وأيضا علاقات خارجية قوية. وبحكم تركيبتها وتنوع الأفكار التي في داخلها كانت هناك حاجة مستدامة للنقاش

والتبادل والحوار. وكانت الجمعية تصدر نشرات منتظمة ومجلات تطور القدرات الكتابية والقدرات على صياغة المواقف وغيرها من الأمور. وهذا يشترط تعمقاً في الفهم السياسي وقاعدة فكرية معينة. وكانت العلاقة آنذاك بين الحزب والجمعية على مستوى عال.

ولهذا نلاحظ ان غالبية من انتمى الى الجمعية في بريطانيا كان لهم دور كبير حزبياً، وحتى بالحياة السياسية داخل البلد. من ضمنهم الراحل د.رحيم عجينة ونوري عبد الرزاق بالخمسينات، والشهيد خالد احمد زكي كان رئيساً للجمعية لغاية عام 1967.

الجمعية ساهمت بشكل كبير في ترسيخ وتطوير النواحي الحزبية فكراً وممارسةً؛ ففيها صراع مستمر في ظل مجتمع وبيئة برجوازية ورأسمالية، وفي بلد يعد ركيزة من ركائز الفكر الاقتصادي البرجوازي الكلاسيكي والنيوكلاسيكي.

كنا في مؤتمرات الجمعية نستقبل وفوداً طلابية من البلدان الاشتراكية، فنلاحظ أن غالبية طلبة بريطانيا أكثر حماساً واندفاعاً. ربما يكون طلبة الدول الاشتراكية أرسخ من ناحية القضايا الأيديولوجية، بحكم دراستهم لها والأجواء المحيطة بهم، ولكن البيئة في بريطانيا كانت محفزة ودافعة لتطور الرفاق والاصدقاء. كان كل هذا، بالنسبة لي، وربما لكل الرفاق الاخرين، تجربة غنية جدا من مختلف النواحي. وبعد فترة من وصولي، دخلت التنظيم الحزبي. وكنت في لجنة بريطانيا وكان على رأسها رفيقنا سعيد سطيفان، وهو مقيم الآن في أستراليا، ولاحقا جاء المرحوم سعد علي الذي توفي عام 1987.

الجبهة مع البعث

الثقافة الجديدة: وصلنا الآن الى الجبهة مع البعث، ترى، كيف تنظر للجبهة بعد انصرام أربعة عقود؟ وبعد التداعيات والمآسي التي حدثت مع انفراطها؟

رائد فهمي: بعد انقلاب 1968، كان البعث كسلطة جديدة تحاول تحسين صورتها عالميا. فعمل على الاعتراف بألمانيا الديمقراطية، وطور علاقته بالاتحاد السوفيتي وصولا الى عقد الاتفاقية عام 1972وأيضا، إقرار قانون الإصلاح الزراعي لعام 1970، وكذلك بيان 11 آذار. من ناحية أخرى، كان لدى البعث وجه اخر، بالإضافة الى الوجه السابق المنفتح، وهو الوجه القمعي. فهو لم يتخل عن عملية التضييق على الشيوعيين وملاحقتهم واستهداف عناصرهم، خصوصا النشطة. واستمرت حملته ضد الحزب عامي 1970 و1971. وقد وجهت ضربات قوية الى تنظيمات الحزب خصوصا ضمن تنظيمات بغداد، استشهد فيها العديد من الرفاق. استطاع البعث الاستفادة من الصورة المنفتحة والمرنة تجاه المعسكر الاشتراكي في تحييد البعد العالمي لأي حملة تضامنية ممكن ان تشن ضده بسبب ملاحقة الشيوعيين.

وفي تحليلات الحزب لتلك المرحلة كان هذان الوجهان حاضرين. هناك إجراءات ذات طابع تقدمي تجري في البلد، لكن البعد الديمقراطي والسياسي بقي متراجعا. وفي ظل هذه الأجواء ومع واستمرار الحملة القوية ضد الحزب، فتح البعث الحوار مجددا مع الحزب. ولاحقا، أصدر الحزب الشيوعي على أساس الميثاق الذي طرحه

البعث، وجهة نظره عن الجبهة. وقد وجّه بيان الحزب ملاحظات انتقادية كثيرة على الميثاق، لكنه مع ذلك اعتبره أساساً مناسباً يمكن الاعتماد عليه للحوار.

فهل كان الحوار اساسا، انعكاسا للثقة ومراهنة على البعث ام كان نتاجا لتقدير وضع سياسي معين محمل بإمكانيات لتحقيق تقدم على المستوى الاقتصادي والاجتماعي وعلى مستوى التوجهات التي اعتبرها الحزب تقدمية، لكنها لم تترافق مع توجهات أخرى على صعيدي الحريات والسياسة. وكان التقدير الغالب وقتها، من وجهة نظري، ان التقدم على صعيد محتوى التطور سيقود لاحقا الى مواصلة النضال السياسي نحو الحريات والديمقراطية. فهل كانت هذه تقديرات واقعية ام أوهام؟! عندما نحلل كل هذه القضايا بعمقها المطلوب، يجب ان ننطلق بالتلازم مع واقع الحزب آنذاك، وهو الذي كان يحتاج أيضا الى فسحة لالتقاط الانفاس ولترتيب وضعه وإعادة بناء تنظيماته، وخاصة في بغداد.

في مجرى الأحداث، حصلت الاتفاقية مع الاتحاد السوفيتي، ولاحقا تأميم النفط، الذي يعتبر وقتها إنجازاً كبيراً يناضل من اجله الشيوعيون والديمقراطيون منذ عقود. وعندما جمع هذا مع سياسة خارجية إيجابية نسبيا، وإجراءات اقتصادية واجتماعية تقدمية، فإنها جميعا كانت عوامل ضاغطة مهدت واستند عليها الحزب للمضي قدماً في توقيع الجبهة.

طبعا، كان لشروع البعث في محاولة لإيجاد حل للقضية الكردية، وطبيعة ما قدمه من حل، خصوصا في البداية، دورٌ اضافي في دفع الحزب الشيوعي نحو الجبهة. طبعا، لا يمكن تحديد حجم هذا الدور ضمن ملابسات تناقضات وصراعات تلك المرحلة. ولكن، يرى الكثيرون، شيوعيون وغيرهم، ان الجزء الأكبر من بيان آذار مستوحى من أفكار وطروحات وبيانات الحزب الشيوعي العراقي. واذكر أن المرحوم (عبد الرزاق الصافي) قال ذات مرة، ما معناه، انه يقرأ بيانات الحزب الشيوعي لكن بتوقيع حزب البعث العربي الاشتراكي. طبعا لا ننسى أيضا انه خلال تلك المرحلة كان الحزب ما زال تحت الضغط والملاحقة، واستهداف عناصره النشطة. حيث قمع البعثيون وقواهم الأمنية بقوة المظاهرة التي أقيمت للاحتفاء بهذا الإنجاز. كنت حاضرا في المظاهرة. ولاحقا استشهد الرفيق محمد الخضري.

والآن، هناك سؤال مهم، ماذا كان سيحدث لو أن الحزب لم يقدم على توقيع الجبهة؟ هل كان هناك خيار ثالث، جنب الخيار الأول، وهو المضي بالجبهة، والخيار الثاني، وهو رفض الجبهة. بكل ما يتضمنه خيار الرفض من ردود فعل، ومن إطلاق قوى النظام القمعية والشرسة، وما سيتسبب به من اثمان وآلام. هل كانت هناك إمكانية ان لا يدخل الحزب للجبهة وان يكون في موقع معارضة ديمقراطية، مع المحافظة على سلامة الحزب وقدرته على الحركة؟!

بالطبع، كان على الحزب، حتى وهو يعلم ان قرار الجبهة عراقي وهو في النهاية قرار الحزب، يحسب دور موازين القوى والوضع الدولي، خاصة البلدان التقدمية والاشتراكية، التي كانت تفضل او تحبذ إنْ لم تدفع بتجاه التوصل الى اتفاق. بمعنى، ان المناخ العام ضمن البلدان الاشتراكية يحبذ الاتفاق.

كل التعقيدات والملابسات التي ذكرتها، تفسر

الآلية التي تم بها اتخاذ قرار الجبهة، وكذلك تفسر الانقسام الكبير حوله.

وعندما نحاول دراسة هكذا قرار بمنطق اليوم، وليس بمنطق آنذاك، سيكون من المشروع التساؤل: هل كان من الصحيح ان يمضي الحزب بقرار بغاية الأهمية، وبمثل هذه الابعاد الخطرة، مثل قرار دخول الجبهة، مع درجة الانقسام الكبيرة داخل المكتب السياسي وداخل اللجنة المركزية، بحيث يكون التصويت لصالح القرار بفارق صوت او صوتين! كان يمكن ان يكون هناك تروٍ، ومراجعة لآلية صنع مثل هكذا قرار. وربما اجراء المزيد من المشاورات، بغية الحصول على أوسع درجة من الاجماع والقناعة داخل الحزب، وليس القيادة فقط.

من ناحية أخرى، نستطيع ان نشير الى ان الحزب استفاد كثيرا من اجواء السنوات الأولى للجبهة التي تمتد من 1973 ولغاية 1975 والى حد كبير 1976. على الرغم من ان البعث لم يكف عن مراقبة التنظيمات الحزبية، والجهات الأمنية لا تحاول رصدها فحسب وانما تعمل بكل الوسائل على اختراقها.

خلال فترة الجبهة توسعت تنظيمات الحزب بشكل كبير، وازداد تأثيره الفكري والسياسي والجماهيري بشكل مضطرد. وصار حجم اتحاد الطلبة كبيرا جدا. وازداد حضور الحزب في الأوساط الثقافية والصحفية، حيث استقطبت صحافته الشخصيات الديمقراطية، بل وأفضل الأقلام العراقية. أثارت مرحلة انتعاش الحزب هذه خشية البعثيين، وكانت مصدر قلق حقيقي عندهم. في جانب البعث تطورت أجهزته، وصار ممسكا ومتحكما بمفاصل الدولة المختلفة. وبالتالي، تغيرت المعادلة الداخلية للتحالف. وإذا أضفنا إلى ذلك الطفرة النفطية التي حصلت بعد عام1973 وتدفق الأموال التي أصبحت تحت تصرف الدولة، التي اعتمدت على القطاع الخاص وقطاع المقاولات في الكثير من المجالات. وما رافق ذلك من نشوء فئات وشرائح اجتماعية جديدة قسم منها لصيق بالسلطة او بالبعث او على الأقل قريبة منه. كما ان المشاريع والعقود أدت الى انفتاح على الشركات العالمية سواء الغربية او من الدول الاشتراكية. وبالتالي، نشأت مراكز اقتصادية تزداد قوة وتأثيرا بعموم الحياة السياسية. وكان تأثيرها حتى داخل البعث. هذه الفئات لم تعد منسجمة مع قرارات مؤتمراته والوجهة نحو الاشتراكية او تعميق دور القطاع العام وغيرها من التوجهات التقدمية. انعكس كل ذلك على الجبهة. فمن جهة، كان البعث لا يتوانى عن توجيه ضرباته للحزب الشيوعي بشكل انتقائي، بسبب تنامي نفوذه وقوته وجماهيريته. حيث كانت هناك عناصر مدسوسة داخل الحزب، وكذلك اعتقالات للناشطين. وقد بقي قسم منهم في السجن واستشهد آخرون. وكان الحزب يسعى الى حل هذا الجانب من الصراع داخل الجبهة، بغض النظر عن مستوى نجاحاته. ومن جهة اخرى، كان هناك صراع من نوع آخر، صراع على وجهة التطور، وعلى هذا الانفتاح في تطور العلاقات الرأسمالية، ونمو البرجوازية.

وبدأت الممهدات لرفع وتيرة الحملة ضد الحزب الشيوعي مع حملة جريدة (الراصد)، ثم اعدام الشهداء الـ 31 بتهمة ملفقة، هي انشاء تنظيم عسكري داخل الجيش. وصولا الى الحملة الشاملة نهاية1977 والتي

اشتدت في عام 1978 وأخيرا عام 1979 وانفراط عقد الجبهة بقرار من الحزب مع كل التداعيات. عند الحديث عن هذه المرحلة، وفي محاولة لتقييمها اثيرت العديد من التساؤلات، من قبيل: هل كان دخول الجبهة خاطئا من أساسه؟ ام ان إدارة التحالف كانت هي الخاطئة؟ وهل كانت اليقظة الحزبية غير كافية؟

سؤال آخر مهم، هل كانت الجبهة مجرد تكتيك من البعث يحاول من خلالها عزل خصومه؟ أولا استطاع اضعاف الحركة القومية الكردية، خصوصا وان الحزب الديمقراطي الكردستاني انسحب من الجبهة ما تسبب في اضعافها. وبالتالي استفرد البعث بالحركة القومية الكردية. ولاحقا، بعد اتفاقية الجزائر، استطاع البعث انهاء الحركة الانصارية الكردستانية الى حد كبير. ومن ثم انتقل البعث مكرسا جهوده لمواجهة الحزب الشيوعي.

ومن ناحية الحزب الشيوعي، ما عدا الاعتبارات الموضوعية والتعامل مع موازين القوى، ألم يكن هناك شيء من قبيل المراهنة او الأوهام الفكرية التي ترتبط بموضوعة الطريق اللارأسمالي؟

وبخصوص قيادة الحزب، كان التمايز واضحا بعد 1979 فالبعض يدعو الى عدم التفريط كليا بالجبهة، حتى بعد كل الذي حدث. وكان آخرون غير متحمسين للموقف الذي اتخذه الحزب لاحقا، من الانتقال الكلي الى المعارضة ومن الكفاح المسلح وحركة الأنصار. ولاحظنا خروج قسم من قيادة الحزب، البعض منهم قبل المؤتمر الوطني الرابع والتطورات اللاحقة.

لقد كانت الجبهة تجربة صعبة جدا على الحزب، لكنها كانت غنية أيضا. وفي تقييمه لاحقا، أشار الحزب الى ان قرار الجبهة في ظروفه لم يكن خاطئا، لكن الخلل الأساسي يكمن في إدارة الجبهة، وانه لم يتحل بالدرجة الكافية من اليقظة الحزبية خلال التحولات المختلفة. كان من المفترض به ان يبادر الى القيام بالإجراءات المناسبة، وان يتهيّأ ويتحسب للارتداد، وان لا يسمح للبعث ان يكون هو المبادر، فتوقيتات الإجراءات التي اتخذها الحزب، والتي لم تكن أساسا بالمستوى المطلوب، كانت متأخرة جدا. واهم تحذير، او النقطة الفاصلة، من وجهة نظري، هو مطالبة البعث بحل المنظمات الجماهيرية التي تمثل أحد اهم الوسائل التي يعبر بها الحزب عن قوته وقدرته التعبوية. أي كان من المفترض بالحزب ان يعد العدة، ويشرع بإجراءاته وبالانسحاب المنظم منذ عام 1975.

الثقافة الجديدة: ما هو دور الاتحاد السوفيتي الفعلي في اقامة الجبهة؟ وكيف كان موقفه عندما انتهت الجبهة وبدأت حركة الأنصار؟

رائد فهمي: بالإضافة الى ما ذكرته اعلاه، كان للاتحاد السوفيتي أيضا وبعض منظريه دور في الترويج والاقناع مع الطرح النظري بوجهة الطريق اللارأسمالي والتوجه الاشتراكي.. الخ. وهي أطروحة لم تزكها الحياة. وكان هذا الطرح يشجع على المرونة في التعامل مع السلبيات والاخطاء والممارسات التي يقوم بها البعث. وكان التقدير ينطلق من موقفهم من الرأسمالية ومن التطور الرأسمالي. وعلى هذه الاطروحة كان يستند من يدعو الى عدم قطع الصلة مع

البعث ويدعو الى عدم اتخاذ قرارات حاسمة لفرط التحالف. وان على الحزب ان يسكت على جراحاته.. الخ.
اما بخصوص فضّ الجبهة، فالاتحاد السوفيتي كان يدفع باتجاه الحفاظ على الجبهة. وبقي على موقفه حتى بعد انتقال الحزب الى المعارضة والكفاح المسلح. لكن موقفه هذا لم يمنع الحزب من اتخاذ قراره والاستمرار فيه. ومع ملاحظات السوفيت وتحفظاتهم، الا انهم احترموا قرار الحزب.

بداية الارتداد الشامل

الثقافة الجديدة: لماذا في رأيك لم يشرع الحزب، عندما استشعر ان الخطر أصبح أكبر، بعملية انسحاب أكثر تنظيما، حتى وان كانت متأخرة، بدل الصورة العشوائية التي حدثت؟

رائد فهمي: يمكن ان نقول ان حملة النظام بدأت في منتصف السبعينات، لكن بشكل محدود الى حد ما، وانتقائي أيضا. ثم اخذت في التصاعد تدريجيا وبصورة مبرمجة الى حد كبير عام1977 ، وقد بدأت في الأساس في المحافظات الجنوبية. بدأت اولا في البصرة ولاحقاً وصلت الى الناصرية وثم باقي المحافظات.
في تلك الفترة كان جزءا غير قليل من تنظيمات الحزب هم من موظفي الدولة. ومع تصاعد الحملة، عندما كانت الأجهزة الأمنية تستدعيهم، كان التوجه العام ان يكون الرفيق امام خيارين؛ الأول، عدم الذهاب. خصوصا للرفاق وهذا يعني التخفي، والانتقال الى العمل السري. وكان هذا الخيار أساسا للرفاق المعروفين جدا! الخيار الثاني، ان تترك للرفيق المعني القرار، وهو من يقدر خطورة الموقف. وإذا قرر الذهاب عليه ان لا يذهب باتجاه مطالبهم. وعندما كان الرفيق يستدعى، او يؤخذ عنوة من قبل قوات الامن يحاول الحزب الاتصال به لاحقا. فإذا أجاب الرفيق فهذا يعني عادة انه خرج بسلام. اما إذا لم يجب، فهذا معناه انه ارغم على توقيع التعهد بالتوقف عن العمل السياسي.
اتذكر في تلك الفترة ان عدداً غير قليل من الرفاق، والكوادر الحزبية بدأوا يأتون من الجنوب الى بغداد، هربا من الملاحقة. وربما في تلك الفترة شرع الحزب في اتخاذ بعض الإجراءات، ولاحقا عام1978 بشكل خاص، مثلا، إحداث تغيير على مستوى الهيئات الحزبية، واستحداث هيئات أخرى لضم الرفاق الذين تركوا تنظيماتهم في الجنوب، في محاولة لاحتوائهم. وكان الكثير من أعضاء الهيئات الحزبية يفقدون، وقسم آخر منهم يلاحقون مرة أخرى وتستدعيهم قوات النظام الأمنية. وفقد الحزب الاتصال بالكثيرين. حيث اعتقل بعضهم بينما اجبر آخرون على توقيع تعهدات امنية. وفي تلك الفترة حاول قسم قليل من الرفاق الاختفاء في مناطق غير مناطق سكنهم، او بدأوا في مغادرة البلد. وقد نجح قسم منهم، الا ان القليلين جدا هم من غادروا عن طريق الحزب.
فبحكم حجم الحملة واتساعها المتزايد باضطراد، وكذلك بسبب حجم الحزب التنظيمي، فإن لم يكن الحزب قادرا على ان يستوعب كل هذا العدد الكبير من الرفاق بشكل منظم، او ان يحافظ عليهم، وان يؤمن لهم وسائل للخروج وان يرتب وضعهم في

الخارج، لذلك كان التوجه هو حث الرفاق على ان يخرجوا بإمكانياتهم الخاصة.
لكن، من وجهة نظري، كان من الممكن ان تكون الإجراءات الحزبية أعمق من مجرد احداث تغييرات في اشكال العمل الحزبي، بل وكان من الممكن ان يكون الانسحاب أكثر تنظيما، لو كانت عند الحزب مبكرا، التقديرات السليمة لتحولات مواقف البعث، وقراءة وتحليل مواقفه، ليس الاعتقالات والاغتيالات فقط، وانما منذ تجميد المنظمات الديمقراطية، وكذلك لو كان عند الحزب دراسة مبكرة لإمكانيات وخيارات احتواء حملة البعث. بل، ربما كان من الضروري الادراك مبكرا، منذ خطوات البعث الأولى، انها بداية للارتداد الكامل. بعض القيادات الحزبية يفكرون بطريقة قريبة مما ذكرت انفا، لكنها لم تكن الرؤية الغالبة. والدليل انها لم تترجم عمليا بشكل خطوات.
هناك ملاحظة مهمة، بخصوص التخفي، يجب ذكرها ضمن هذا السياق. في العهد الملكي او العهود الأخرى، كان بإمكان الرفاق الذهاب والتخفي في الريف او أي أماكن أخرى. لكن في زمن حكم البعث الثاني كان الامر مختلفا. حيث كان البعثيون في كل مكان، في الريف والمدينة. وبالتالي، صارت امكانية التخفي وخوض النضال السري صعبة جدا. لا أقول زالت، وانما تحجمت الى حد كبير. ولم يكن من الممكن ان حزبا بهذا الحجم آنذاك كان قادراً على ان ينتقل الى العمل السري بنفس الحجم لذلك حدثت الهجرة الى الخارج.
في النهاية، نعم نحن تأخرنا، أعنى تأخر الحزب، بعملية الانسحاب. وحصل ذلك بصورة متأخرة. ولاحقا حدث ما حدث من مآسٍ. اتذكر حين وصلتنا الحملة الى بغداد. وحينها كنت موظفا في وزارة التجارة، حيث رُفض تعييني في وزارة النفط بعد ان تسلمت السلطة تقارير عن نشاطاتي في بريطانيا.
وفي الهيئة الحزبية التي كنت اقودها أتذكر ان هناك رفيقين تم استدعاؤهما من قبل الامن. اما الآخرون فقد فقدنا الاتصال بهم. وهم اما اعتقلوا، او أطلق سراحهم بعد ان وقّعوا على قرار بعدم الرجوع الى العمل الحزبي، او خرجوا من البلد. من ناحيتي اختفيت داخل بغداد، بعد ان غيرت مكان سكني، وهذه مسألة لها اولوية. فالملاحظ بشكل عام ان الامن لا يذهب الى الدوائر الرسمية وأماكن العمل، لاعتبارات خاصة بهم وبطريقتهم في إدارة هذه المسائل. الا أني في كثير الأحيان كنت اتحفظ من الذهاب الى وزارة التجارة. في تلك الفترة بدأت التفكير في الخروج من البلد، وذلك لأن الامن عن طريق المعلومات والاعترافات قادر على الوصول لأي منا في أي وقت.
في تلك الفترة كان الموظفون العراقيون يستطيعون الذهاب الى الكويت بدون استحصال فيزا. وفعلا استطعت الوصول الى الكويت. وكان لدي أقارب هناك وبقيت عندهم لعدة أشهر. ووجدت عملا واستمر وجودي في العمل هناك لغاية عام 1983 ، وكنت ألاحظ الكم الكبير الذي يأتي من العراقيين، سواء من الرفاق ام الأصدقاء. وكان قسم غير قليل منهم يصل بطريقة غير شرعية، عن طريق الصحراء.
وفي الكويت كان للحزب تنظيم. وكان رفاقنا يحاولون، من خلال شبكة العلاقات والمعارف والأصدقاء ان يوفروا سكناً او

عملا مؤقتا للواصلين. فتأمين وسائل العيش كانت ضرورة ملحة، ونسبة غير قليلة ممن استطاعوا الوصول الى الكويت تركوها. قسم منهم ذهب باتجاه سوريا، التي كانت مكان تجمع رئيس. وكان فيها الكثير من الرفاق بمستويات حزبية مختلفة. والبعض الآخر ذهب الى لبنان. ومن سوريا ولبنان بدأ الرفاق بالتوزع في البلدان المختلفة. ومن ثم التحقت اعداد كبيرة بحركة الأنصار.

عموما، كانت تلك الفترة صعبة جدا. فقسم غير قليل من الرفاق ترك عائلته. والبعض الآخر جاء ومعه عائلته. لا سيما إذا كان كل من الزوج والزوجة أعضاء في الحزب. وبالرغم من كل ذلك كانت هناك حالة راقية من التضامن واستطاع الحزب نسبيا ان يستوعب العديد من الحالات.

التذمر والخروج

الثقافة الجديدة: كيف كانت ردود فعل الرفاق بعد انهيار الجبهة ومغادرتهم البلد؟

رائد فهمي: بالتأكيد هناك أنواع من مختلف الانتقادات. منها: ان الحزب لم يكن متحسبا لكل هذه التطورات، او لم يكن متهيئا لهذه الضربة، او ان الانسحاب كان سريعاً وغير منظم، او ان الحزب لم يقدم الدعم الكافي للرفاق. القسط الأكبر من الانتقاد واللوم تسلط على القيادة. من جهة انها سارعت الى الخروج ولم تؤمن ظروفا أفضل لتخليص الرفاق. في الكويت حيث كنت مستقرا في تلك الفترة، كان هناك تذمر واضح. علما ان الأوضاع في الكويت كانت أفضل نسبيا من سوريا ولبنان. وبالتالي كان التذمر هناك أكبر وأشد. قسم غير قليل من الرفاق خرجوا من العراق بإمكانياتهم الشخصية، كما ذكرت سابقا. وهؤلاء كانوا في الغالب محبطين ومتذمرين. وقسم منهم انعكست هذه القضية على صلتهم بالحزب. وعلى وجه الخصوص الشباب والطلبة. ولكن، الأهم ان الغالبية كانت لديهم رغبة في العمل. فمثلا في الكويت شُكلت تنظيمات، وكنا نعمل بشكل منتظم. لاحقا، بدأ الحزب يستطلع آراء الرفاق، بشأن الجبهة والموقف منها وبشأن كل ما حدث. وشرع جميع الرفاق والرفيقات في طرح ملاحظاتهم ومواقفهم وانتقاداتهم. وقد انعكست هذه الملاحظات والمواقف والانتقادات في التقييم الذي قدمه الحزب لاحقا. ويمكن تقسيم النقد الذي وجه الرفاق للجبهة الى قسمين: الأول، يعارض الجبهة مبدئياً، ومنهم من يرى، خصوصا الشباب والطلبة، ان طلب البعث تجميد عمل المنظمات الديمقراطية كان من أبرز المؤشرات على طبيعة الجبهة. القسم الآخر، هم الرفاق الذين يوجهون النقد الى آلية إدارة الجبهة. وهم مدركون لظروف المرحلة، ويشخّصون أيضا ان الجبهة خلقت للحزب ظروفا مناسبة لاستعادة أوضاعه وانتعاشه واقامة صلات افضل مع الجماهير. وان ما كان غائبا في المطاف الأخير، هو الإدارة السليمة، والإجراءات الاحترازية لمنع كشف الخطوط التنظيمية للحزب، وكذلك التحسب الدائم من مخططات البعث الخبيثة ومحاولاته للالتفاف على الحزب.

---

* الجزء الثاني من الحوار سيصدر في العدد القادم، 445 ، أيار 2024، لذا اقتضى التنويه (المحرر)

أدب وفن

آذار.. بصمات تاريخية

حسب الله يحيى

تعذرت علينا الأزمنة السعيدة، وصار من الصعب علينا الاحتفاء بالحياة في أمنها وهنائها وابتسامتها الرغيدة.

بات عصياً علينا.. ذاك الألق الذي كناه في الأيام العصية.. عندما كنا نقطر تلك الأيام تقطيراً، ونكون سعداء مع هذه القطرات على ندرتها وبساطتها..

ولأننا مدججون بالأمل.. الذي يفتح أمامنا شهية الاحتفاء بكل صباح، أخذنا عهداً على أنفسنا، ان نستنطق الصعوبات، نتجاوز ونصرّ على تجاوزها.

من هنا وجدنا في آذار، شهر المناسبات البهية، والتي نحتفي بها، ونتفاءل بوجودها في بصمات حياتنا.

فالمرأة في عيدها الأممي، تشكل عندنا الجمال الأنيق والمضحي النبيل، ونوروز الربيع، يجعلنا نحتفي بخضرة الحياة وبهجتها وألقها.

وفي آذار المجد، هناك تاريخ ناصع، حفر مناسباته الخالدة في الصخور.

حتى تجاوز عمر هذه البصمات الحية تسعة عقود، هي صفحات ميلاد الحزب الشيوعي العراقي.

وما بين: المرأة ونوروز والشيوعي.. وشائج عميقة وثابتة، ومن الصعب قطع أواصرها الخالدة.

الشيوعيون، هم أول تنظيم سياسي، يشرع الأبواب أمام المرأة وحقوقها التي اغتصبتها السلطات الظالمة.

والشيوعيون، هم من وجد في الربيع عيداً خالداً، بوصفه رمز الحياة وانطلاق وجودها الخالد فيما كان مناسبة فولكلورية عابرة.

إذن.. آذار كل السنوات، كان إرادة الشعوب التي تتفاءل وتبحث عن كون سعيد يمنح الحرية والتآخي والمسرات للجميع، وعلى العكس من أولئك الظلاميين الذين كانوا يخشون وعي المرأة وإرادتها الحية.. لذلك عملوا على ابتكار يوم خاص للمرأة العراقية بمعزل عن نساء الكون وذلك بهدف إيقاف امتداد أممية النساء في كل مكان في العالم.

بوصف الامتداد يشكل تهديداً لكراس مفرغة من المحبة، ومعتدة بالظلم والعنف والكراهية.

وكذا الربيع، كانوا يريدون ان لا يحصروا وجهه ولا يحضنوا نسائمه وألا تنمو براعمه.. لكن سلام الربيع لوّح لهم بالحياة في أبهى وجهها السلمي الفرح والمخزن بالآمال.

وغدا الشيوعيون حزباً لا قدرة لأحد على استئصاله من وعي الناس وعقولهم المضيئة.. مهما كتموا الأنفاس ولوثوا الأجواء وملأوا الزمان والمكان بالسجون والبطش والطغيان.

الشيوعيون ... بناة حضارة.

من هنا.. سيظلُّ آذار شهر المحبة والخير والعطاءات المشرقة.

تجليات النسق الثقافي المكاني في رواية (آخر المدن) لزهير الجزائري

د. زينة إبراهيم الخرسان*

بدءاً من عتبة العنوان تضعنا رواية آخر المدن للروائي زهير الجزائري إزاء عالم مكتظ وملتبس بتعدّدية المعنى وعمق التجسيد ويحتل المكان البؤرة المركزيّة والمسار السردي الكلّي، فالعنوان دال على نسق مكاني، وتكشف الدلالة التركيبيّة والإيحائية للعنوان بوصفه النص الموازي عن إشارات وإحالات وتجلّيات لمفهوم المكان ودلالاته، وبما يجعله المحرّك الأساس للأحداث والوقائع ويتعدّى المعنى الجغرافي أو الحيز الفيزيائي باتّجاه إحالات ومعانٍ سيميائية تدلّ على معنى فكري يتأطر ويعبّر عن آخر الخيارات والرهان على أقصى حدود المغامرة عن طريق التصدّي للنظام الشمولي الدكتاتوري واتّخاذ الجبال والوديان مكاناً لانطلاق هذا الاشتباك الحاد والدموي.

تتجلى معانٍ أخرى لنسق دلالة المكان حين تندفع المجاميع المعارضة للنظام المستبد باتّجاه البحث عن ملاذ آمن عن صيرورة المكان المثالي والأليف متمثلاً بالوطن الذي يتمركز سعيهم وسياستهم للوصول إليه وإعادة تشكيله وعلى رؤى وتوجّهات جديدة ومتقدّمة، على وفق هذا المنظور حرص الكاتب على التوكيد أو الاستشراف المكاني وتعدّد دلالاته، وهو ما يطابق الطاقة الإيحائية وتعدّد المعنى انطلاقاً من مقولة إنَّ العنوان هو المفتاح التأويلي والإضاءة الكاشفة لمجمل البنية الأفقية والعمودية للنص الذي يزيح الدلالة وخروج المعنى داخل النص إلى تشكيل جوهر الخطاب الإنساني والدلالي الذي تتمركز حوله الرواية بشكل عام، وبدلالات أكثر اتّساعاً وتوليداً وإحالة، مما يفعّل طاقة الاكتشاف عند المتلقّي ويصبح المكان مرتبطاً كلّياً بصيرورة منتجة بتحوّيل التضاريس والحيّز والإطار الفيزيقي والجغرافي إلى سؤال وكينونة يكشفان عن علاقة الإنسان بالمكان روحياً وثقافياً بوصفه كينونة

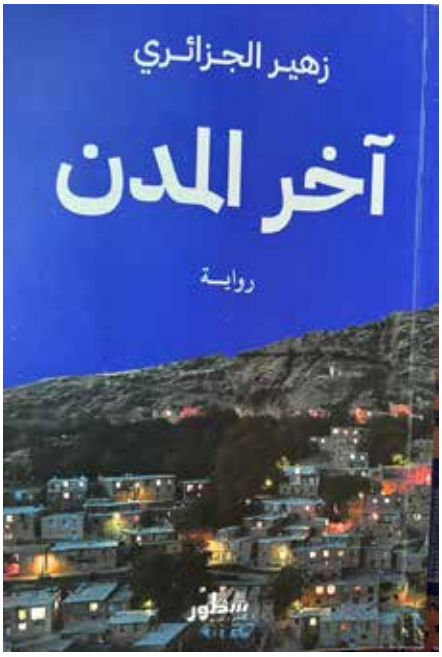

وهوية وحلم وغاية، ولا يمكن تحقيق هذا النسق من المعاني والدلالات إلاّ بالاقتران والتماهي مع مكنونات الإنتماء الثقافي إلى الهوية المكانية بوصفها أحد أشكال التعبير عن الهوية الإنسانية والثقافية والمنظومة القيمية.

تحوّل المكان في الرواية إلى فضاء متّسع يعبّر عن سعي الإنسان إلى المقاومة لجعله الركيزة الأساسية للفعل الناجز وتأسيس شفرات إشارية لتمجيد المكان بوصفه مرجعاً ورمزاً وصيرورة مبتغاة عبر هذه الدلالات بتأسس مفهوم العلاقة الوجودية بين الذات والموضوع، والذات والآخر، والضياع والهوية بما يكشف عن تعميق الحس الشعوري بين الذات والمكان ويتحوّل بذلك معنى المكان من منحاه الواقعي الفيزيقي إلى منحاه الدلالي والتأويلي، ويتحول إلى بنية مفاهيمية تكشف عن ضرورة الألفة والبحث عن الذات، والبحث عن الحريّة والخلاص، ولهذا يمكن الاستنتاج أنَّ البطل الحقيقي والمعنى المحوري هو ما عبرت وتشكّلت به أبعاد رواية (آخر المدن) بوصفها سؤالاً ثقافياً في المكان وأنساقه، إذ اتخذ مفهوم المكان نوعاً من الجدل الداخلي وخلق ثنائيات مكانية للتعبير عن عمق الفكرة الكلّية، فهناك الجبل والأرض المستوية، وهناك الوطن والمنفى، وهناك الانفتاح والانغلاق، وهناك (مدنية المكان) وتناظرها (عسكرة المكان)، وهناك حلمية المكان وهناك كابوسيّته، ونلحظ التضاد يكمن كليّاً بين الصراع على مستوى المعنى بين المكان (الديستوبي) و(المكان اليوتوبي) لاسيما أن مصطلح (المدينة الفاضلة) قد تكرّر وجوده على لسان كثير من الشخصيات، بل أن المسعى الحقيقي لمجاميع تجربة الأنصار بوصفها حركة

معارضة سياسية مسلحة كانت تنطلق من صراع الأمكنة، وتحديداً ثنائية المكان السلطوي والمكان الذي يرمز للتصدّي أي مكان الحريّة.

فالرواية في جوهرها تجسّد وتوثّق تجربة الصراع السياسي والعسكري بين سلطة الاستبداد وإرادة المجاميع الحرّة ذات النزعة اليسارية لتحقيق فعل المواجهة والاشتباك الذي يؤشّر التضاد في المنحى والرهان على القيم التي يؤمن بها كل من الطرفين المتصارعين، وتتحول الرواية إلى حرب خطابات وحرب أمكنة وأن مجاميع الأنصار اختاروا التجربة الأكثر شراسة واندفاعاً ويقيناً من خلال الرهان على البيئة الجبلية القاسية من دون التفكير بالاختلاف، وحجم الاستعداد اللّوجستي والعسكري من حيث العدّة والعدد ومستلزمات التسليح، لكن هذا الخيار لم يصل إلى المغامرة العدميّة بل كان فعالية منتجة ومغلقة للنظام، ولعلّ الدلالة الأولى تكمن في عتبة (المقدّمة) التي تشير إلى أكثر من معنى للمكان، بل إنَّ الروائي يشير إلى القرية التي شهدت المجازر والحرب العنيفة وفيها بدأت بواكير كتابة الرواية برمّتها وهذه الإشارة الاستهلالية تكشف عن تأثير ودور المكان وجعله المرتكز والمسعى، ولتعميق الدلالات المترشّحة عن هذا التوظيف يقول الروائي: «بدأت بكتابة هذه الرواية في موقع المجزرة في قرية (بشتاشان) الواقعة في السفح العراقي من جبل (قنديل).. من يومياتي ومن شهادات من عاشوا الحدث تشكّلت الرواية وطبعت في عام 1992، أغلقت دار النشر في دمشق ورحل صاحبها عن دنيانا . ابتعدت مكاناً وزماناً فتغرّبت الأحداث والشخصيات لكن الحدث نفسه، ومن فقدت فيه لا يزال يسكن روحي وكوابيسي « (الرواية: 5)، وبذلك يعبّر الكاتب عن مفهوم ودلالة المكان بوصفه نوعاً من وعي الذات وثقافة المكان، وتجاوز معناه الإطاري المجرّد إلى تجلّيات فكرية وتعبيرية وتأويلية، وهو يشير ضمناً أنَّ ثقافة الحريّة والثورة تتطلّب المكان بوصفه الأرض أو المساحة الحرّة التي تتسع باستمرار لإزاحة المكان بمعناه التسلّطي، وبمعناه القيمي، وطبقاً لذلك يحيل المفهوم الدلالي إلى فكرة الوطن وفكرة الخلاص وفكرة الانتماء، وبما يشكّل زخماً ووجوداً مكانياً مضادّاً قادراً على توفير منطق التصدّي والاشتباك وإزاحة النظرة النفعية الامتلاكية لمفهوم المكان، فالثوار يتّخذون من المكان وسيلة ومساحة للحراك وليس فضاءً تملّكياً.

ويمثل استهلال الرواية دلالة بيّنة على الخيار المكاني ومنه تنطلق أحداث الرواية : «بعد أيام من الانتظار على حافة الأرض الحرام جاء الرسول ليبلّغنا: -(البختيار) أعطاكم الأمان في أرضه وأمر بالحماية والزاد حتى تستقرّوا وتدبّروا أموركم . كنّا أول الجماعات التي افلتت من الهزيمة والحصار وتسلّلت عبر الحواجز وحقول الألغام، مع قافلة المهربين حتى وصلت حافة الجبل الذي تسيطر عليه قبائل البختيار» (الرواية: 7).

فالمشهد الأول في الرواية هو مشهد مكاني كما نرى وهو الغاية أو الأمل الذي حصل عليه رفاق الرحلة القاسية من وجود هذا المكان الآمن التابع لقبائل (البختيار) الكردية ونجد أكثر من دلالة على أمكنة

مختلفة، فأرض البختيار تحولت إلى مكان أليف بعد الإفلات من أماكن معادية أماكن الحصار والهزيمة والحواجز وحقول الألغام إلى جانب الأمكنة التي يتحرّك فيها المهربون، ضمناً هناك إشارة إلى تنوع المكان، مكان السهول المفتوحة ومكان الجبال الشاهقة والصخور الحادّة.

إنَّ هناك اهتماماً وتعمّقاً في كلّ فصول الرواية بوصف الأمكنة والبيئة، وبما يجسّد حجم الصراع بين الذات والمكان، وبما يجعل المكان تجسيداً لفكرة وماهية (الموضوع) باعتبار أن الذات تبحث عن المكان الذي يضاهي كينونتها ومطالبها الوجوديّة وليس مجرّد فضاء فيزيقي، ويتّسع المعنى ليكون المكان هويّة المكين فالحواجز والمعسكرات وحقول الألغام هي أمكنة ترمز وتعبّر عن هوية العنف والتسلّط، بينما تعبّر مساحات الجبل والوديان وأماكن أخرى عن هويّة الباحثين عن الحريّة التي تتحوّل عندهم أية أرض إلى فضاء للذات لأنّها أمكنة الخيار ووعي الكينونة.

تجسّد معنى المكان الهوية الثقافية والفعل ووعي الذات ووعي التحدّي بوجود الأمكنة والربايا والمخيمات التي يشيدها أفراد حركة الأنصار لكي تتحوّل إلى مساحات لاحتواء المنطلق والتوق إلى تحقيق الوجود الأبهى على الرغم من المغامرة وقسوة المخاطر، ويمكن الاستدلال على هذا النوع من الأمكنة وهو ما يتجلّى بإقامة وتشييد المستشفى الذي قامت بإنشائه الدكتورة (عشتار) وزوجها الدكتور (مالك) الذي تحول إلى مكان للشفاء واستقبال الحالات الخطيرة وتوفير العلاج للمقاتلين والمتصدّين، بل إنَّ كثيراً من سكان القرى القريبة والنساء اللّواتي يعانين الأمراض وجدن في هذا المكان ملاذاً ينقذ حياة المرضى ويديم منطق البقاء على الرغم من الصعوبات وقلّة المستلزمات والمشفى مكان أشاع ثقافة صحية للمنطقة ، «خلال أشهر اكتمل المستشفى، افتتاحه كان عيداً انتظره أهالي القرى منذ عقود ليتحرّروا من غيمة الكآبة التي تهيمن على أرواحهم،.. زهور البابونج فرشت على طول المدخل، ولبست نساء القرية ملابس العرس المنسيّة، ودبك الرجال أمام البناء وطاروا حدّ الجنون وتكدّست الهدايا، جرار عسل وأكياس جوز» (الرواية: 28).

فالدلالة القيمية لمكان يشفي سكان القرى الذي قام بإنشائه أفراد من الأنصار يعكس دلالة تمجيد للحياة وديمومتها ويعكس إدانة للسلطة واهتمامها بالقتل وتوفير كلّ أنواع الأسلحة التي تفتك بالإنسان وتستهدف المعارضين، وتخلو المدن والقرى جنوباً وشمالاً من أمكنة تحتفي بالإنسان وتقوم على تمجيده وبقائه وديمومته، وتتّسع دلالة الفكرة من أنّ مجاميع الأنصار يملكون مشروعاً للحياة ومتطلباتها وصناعة يوتوبيا إنسانية، وهم إذ لجأوا إلى حمل السلاح واختيار (الأماكن) البعيدة والبيئة الشرسة إنما هو تعبير اضطراري وخيار ملجئ وضرورة تعكسها حتمية الصدام مع الآخر الذي ساق كلّ مقدرات الواقع واحتمالاته إلى منطق الإقصاء والمحو لتوفير أجواء التضخّم والأنويّة والتوحّش السلطوي.

وطبقاً لهذا الفهم يمكن دراسة دلالة المكان وما يعكسه ضمناً وهو الذي جعل من تعدّديّة المعنى للمفهوم المكاني يتّخذ هذا الأفق من التجلّي والإحالة، وذكراً لأماكن كثيرة وأسماء الجبال مثل (قنديل) و(العاشق)

و(فم الذئب)، وتحفل الرواية بجعل دلالة المكان محوراً لتقديم الواقع المأزوم، فالسلطة تشوّه الأمكنة بما يعكس ثقافة التدمير والقضاء على جمال الطبيعة وتحويل كل الأماكن إلى معسكرات وبقايا المعارك وحقول ألغام وتصف الرواية حركة أحد الشخصيات (بهاء) في فضاء المكان «تجوّل بهاء في ذلك الشق الجبلي الذي تسكنه قبائله وسمع قصصاً مؤلمة عمّا تعرضت له العوائل من قصف السلطة، وحرق البيوت وأخذ الرجال رهائن سجّل كل ذلك في دفاتر يوميات ووصل في النهاية إلى قرار تثبّت في أعماقه : « ليس من مصلحته أن يحاربنا ونحن في أراضيه.. ويسمع من جانب آخر عن صلات ابنه الخلفيّة بالحكومة وأرباحه الخيالية جراء تهريب النفط» (الرواية: 33)، المقطع السردي يكشف عن التوجّه لتشويه المكان وما يناظره من تشويه الإنسان، ويعكس أيضاً المأزق الخطر الذي يمثّله المكان بالنسبة لمجاميع الأنصار وتوجّسهم من الذين يتعاونون مع السلطة لأغراض براغماتية وفكرة تهريب النفط، تعكس توجّهاً سلبياً وسطواً على ثروات الأرض التي تبيحها الحكومة لكسب العناصر المتعاونة معها، والمشهد يعبّر عن حجم الخطورة التي تحيط بالمقاتلين من الأمكنة التي يعيشون أو يلوذون فيها، وبين الخطر الداهم والعنيف من السلطة متمثّلة بالقوات العسكريّة المدربة، ويمثل وجود الكمائن تقديم إحدى تجلّيات المكان الديستوبي أو المعادي، «سرتْ بيننا دمدمة تتناقل، يقيناً خائراً: - كمين ! كمين ! كمين ! لكنّ أحداً لم يسحب أقسام بندقيته .. لن نطلق النار فنحن أعجز من أن ندافع أو نشتبك، وقد نقتل بعضنا في هذه المتاهة» (الرواية: 107).

وفي الفصل الأخير القصير والمختزل تقدّم الرواية رؤية بانورامية للمكان وقد تحوّل إلى زوال دائم وترحال مقيم حتّى أنهم ينسون اسم المدن والقرى، وهو مقطع يحمل دلالة المكان في تحريك بنية السرد والتمركز حوله :

« – ما اسمها ؟

أقصد المدينة التي تركناها؟!

الغريب أنّه قبل هذه اللعبة كأنّها لعبته وبقي هو نفسه لا يعرف المدينة» (الرواية: 219)

الرواية في مجملها تعبر عن جانب مهم من سيرة الكاتب نفسه ممزوجة بشهادات ويوميّات ورصد لوقائع الجمر فوق أمكنة قلقة للبحث عن الأفق والذات والحرية والفكر، لذا نجد الإحساس بالمكان إحدى المهيمنات الدالّة في هذه الرواية المتقدمة شكلاً ومضموناً .

• باحثة عراقية في الدراسات الثقافية والنقد الثقافي

التناغم الإيقاعي في فلسفة هيغل.. من المجرد إلى ظاهريات الفكر

أوس حسن

كانت الفلسفة قبل هيغل خاضعة لمبدأ عدم التناقض؛ وهو مبدأ دأبت عليه الفلسفة منذ أرسطو إلى كانط؛ فلا يصح أن نقول إنّ الشمس تشرق ولا تشرق في الوقت نفسه. لكن جاء هيغل ليؤكد التناقض في عالم الظواهر، وانعكاس هذا التناقض على الفكر في عملية جدلية، لتنتج لنا مركباً جديداً تنصهر فيه التناقضات وتتوحد في شمولية، وهكذا تستمر هذه العملية الديالكتيكية لتشمل كل جوانب الحياة من سياسة وتاريخ ودين وفن.

كان هيغل ثالث أقطاب الفلسفة الألمانية المثالية التي ظهرت كرد فعل لمشروع إيمانويل كانط في نقد العقل الخالص، والتي كانت ممثلة بفيخته وشيلنغ. وتتخذ المثالية الألمانية من العقل مركزاً لإدراك الأشياء في العالم الخارجي، وتكون خواص هذه الأشياء مظهراً من مظاهر العقل، وليست خصائص وصفات للشيء المراد إدراكه في الخارج.

إنّ النسق الفلسفي الهيغلي هو نسق محكم البنيان وله هندسة متينة، لا تقبل الجزئيات دون النظر إلى الكل ككل متناغم في وحدة إيقاعية لا يعتورها النشاز أو الخطأ.

فمن خلال المثالية الذاتية عند فيخته التي تعتبر أنّ (الأنا) هو مصدر المعرفة المطلقة بوصفها وسيلة للوعي الأصيل، وتكون هذه الأنا منفردة ومنفصلة وتجري بداخلها كل عمليات الوعي ومقولات الوجود، إلى فلسفة الهوية عند شيلنغ التي تقوم بالوحدة المطلقة بين الذاتي والموضوعي، سيقوم هيغل بصياغة فلسفية مركبة بين هذين المفهومين مع تجديده لبعض المفاهيم القديمة، ليرسم لنا فسيسفاء معقدة ودقيقة ستكون مفتاحاً لمعرفة الوجود وصيرورة تطور الفكر منذ نشأته الأولى.

لقد رفض هيغل فكرة كانط عن العالم النوميني الذي لا يمكن أن يدرك بالحواس البشرية، وجعل هذا العالم متضمناً ومشاركاً في عوالم الظواهر.

فالفلسفة الهيغلية هي رفض لكل علو؛ فلا

يمكن بطبيعة الحال أن يقبل هيغل الشيء في ذاته، والذي عّده امتداداً للتوكيدية أو الدوغماطيقية؛ فالحقيقة في نظره لا يمكن أن تكون مزدوجة، ولا يمكن أن تكون ذات وجهين بدون أي اتصال بين تلك الأوجه.
فيستبدل هيغل مفهوم النومين عند كانط بالمطلق الذي لا يوجد بصورة ذهنية ولا يعلو على التجربة، فالفلسفة الهيغلية هي رفض لكل علو، ولكل شيء مفارق عن عالمنا.
فكانط في نظر هيغل ظل حائراً في إيجاد معبَر أو جسر بين عالم الظاهر وعالم الشيء في ذاته.

هيغل

الوجود والمعرفة

يرى هيغل أنّ المعرفة لا تبدأ بالمحسوسات المباشرة كحقيقة موضوعية ومستقلة، ولا بمبادئ العقل والإدراك الشخصي، لكن بالموقف المُركّب بين الذات والموضوع والذي يجد الإنسان نفسه فيه منذ بداية الوعي الذاتي، فنحن نوجد في هذا العالم بفضل ما نعرفه عن العالم الخارجي، كما أنّ العالم الخارجي موجود فقط بحكم معرفتنا به، فما هو معقول حقيقي، وما هو حقيقي معقول؛ لذا لا يوجد انفصال بين الفكر والحقيقة، وفلسفة هيغل ليست فلسفة مكثفة من التجريدات، وإنما فلسفة تنطبق على الأشياء العينية في الواقع والحياة، ويُعد هيغل أول من عالج الفكر في حركته الخارجية نحو الطبيعة وانعكاسه مرة أخرى نحو الداخل لينتج لنا تمظهرات تطور العقل في مجال المعرفة على سير خط التاريخ.
إذن، فالطبيعة أو العالم الخارجي تكون معطيات للوعي للذاتي، وتقوّل نفسها داخل الإنسان بكامل تناقضاتها وتجلياتها.

يبدأ هيغل من الوجود المباشر المعطى للإنسان والمكتفي بذاته، فوصف الشيء بالوجود سابق على أي وصف ومتقدم وعليه، مهما بلغنا في تجريد هذا الشيء، فمن المستحيل تجريده من الوجود، فالوجود هو أشد المقولات تجريداً وعدم تعيّن، لذا فهو يحوي اللاوجود أيضاً.
والمقولات الخاصة بالفكر هي نفسها مقولات الوجود. وهذا لا يعني أننا يمكننا استنباط موجودات من الأفكار المجردة؛ فلا يمكن استنباط شيء من الأفكار سوى بعض الأفكار الأخرى، لكن المقولات المجردة هي أساس كل وعي؛ فالأشياء التي تتكون من كليات كالمنضدة مثلاً التي تتكون من صلابة وامتداد وارتفاع، يدركها الذهن كفكرة وهذه الأشياء بأفكارها هي التي تعبّر عن وجودها داخل الإنسان.
لذا يعد هيغل أنّ الفكرة هي التصور طالما كان متحققاً بالفعل، ولا يمكن أن تكون الفكرة شيئاً ما خارج ما هو عيني، أو خارج الفكر الذي

يفكر فيها، ولا يمكن استبعاد اي شيء ممّا ليس عينياً أو ما هو خارج الفكر.

الجدل الهيغلي

يمثل الجدل أعمق رؤية للأشياء، فضلاً عن أنه المنهج الفلسفي الأصيل المميز عن مناهج العلوم الأخرى والمعبر عن حركة الفكر والطبيعة إزاء موضوعات التفكير، وهذا من شأنه أن يحفظ الفكر من عيوب الاعتماد على الحدس الباطن، أو الاستدلال المبني على التأمل الخارجي.

ينطلق هيغل في جدله من مقولة الوجود كصفة أكثر عمومية، ويعتبر هيغل أنّ كل تصور من التصورات يضم نقيضه؛ لذا مقولة الوجود تضم اللاوجود؛ لأن مقولة الوجود لا تحتوي على أي مضمون ينقلها إلى النوعية أو التخصيص، وهذا الغياب المطلق لأي شيء هو اللاشيء نفسه، لذلك يحتوي التصور المحض عن الوجود على فكرة اللاشيء، وهذا هو السلب المحرك الذي يؤدي إلى الوحدة بين الموضوع ونقيضه في الصيرورة.

إنّ الفهم في نظر هيغل هو الذي يفصل بين الأشياء ويحقق بينها التعارض، في حين يوحد بينها العقل في شمول عيني، فالعقل يحل التعارض في تركيبة أعلى ويفض التناقضات في صورة مركب الموضوع ونقيضه، ويخلق الهوية والاختلافات، أو يرد الاختلافات إلى الهوية، وليست هذه الهوية مجردة، لكنها هوية عينية تحتوي على اختلافاتها ومفارقاتها الداخلية التي تضمها وتنميها في ذاتها، لذلك فمبدأ الجدل عند هيغل هو مبدأ عقلي يميز الاختلافات ويُرجع الأشياء إلى هويتها، عكس الفهم الذي يحوي التناقض بلا وحدة.

يمكن تفسير اللحظات الجدلية عند هيغل: -1 الموضوع وهو شكل العالم كمعطى أولي للوعي الذاتي. -2 نقيض الموضوع كشيء غريب وعدائي. -3 يصبح العالم مضمونا ذهنيا تملكه الذات هو مركب الموضوع ونقيضه. الموضوع نقيض الموضوع.

مركب الموضوع ونقيضه

وهذا سيقودنا إلى الثالوث الجدلي الهيغلي؛ وهو الفكرة التي تتبدى في الطبيعة عن طريق القوانين التي تتحكم فيها ..ثم الطبيعة وهي نقيض الفكرة ... والروح وهي مركب الموضوع ونقيضه، تنتقل الفكرة الخالصة إلى الطبيعة فتصبح في حالة اغتراب أو استلاب إزاء نفسها ثم ترتد الفكرة الخالصة بعد اغترابها في الطبيعة إلى نفسها لتقوّل نفسها من خلال الإنسان الذي هو في نفس الوقت جزء من الطبيعة لأنه حيوان يخضع لقوانينها، وفي الوقت نفسه كائن روحي، وهكذا تتجلى كل مظاهر الفكر والمعرفة في صيرورة مستمرة ويكون مسرحها التاريخ البشري في جدل مستمر وصاعد هدفه نمو الروح ذاتياً نحو اللامتناهي من خلال الغزو المعرفي للعالم.

لم ينفِ هيغل تماماً مبدأ الجدل في الطبيعة، لكنه اعتبره جدلاً ناقصاً؛ لأنّ الطبيعة لا تدرك نفسها، ولا تفكر بذاتها وإنما تتجه نحو الإنسان كفكر، لذلك فالجدل المثالي أو الفكري هو انعكاس للجدل الحقيقي لأنّ الوجود نفسه مثالي.

إلا أن ماركس في ما بعد قد رفض مثالية الوجود عند هيغل عندما أخضع الديالكتيك للمنهج العلمي في المادية الديالكتيكية، فالمادة والطبيعة والكون في حالة تغير وتحول دائم. أما الفكر عند الإنسان فهو انعكاس للعالم

الموضوعي أو الواقع الاجتماعي. ومن هنا تأتي وظيفة الفكر عند ماركس بأنه قوة فاعلة ومؤثرة في الوجود وقادرة على التغيير عن طريق الوعي.

تعريف المطلق وصفاته

علينا أن نسلم بوجود فكرة رئيسة في البناء الاستراتيجي لفلسفة هيغل، وهو وحدة الفكر والوجود؛ فالعالم عند هيغل هو نتيجة للفكر ونحن نتحرك ضمن هذا الوسط الفكري، لذلك فالعقل الموضوعي المتمثل بعالم الظواهر والطبيعة لا يمكن أن يكون عقلاً إلا باتحاده مع عقلنا الذاتي. إذن فليس هناك إلا عقل واحد فينا وفي العالم؛ وهو عقل مؤثر في العالم وهو علة الأشياء، وهو ليس علة مفارقة ولا يوجد وراء الوجود، لكنه الأصل والهوية التي تعطي لهذا الوجود وحدة الأضداد.

إذن فالمطلق هو فكر ونوع من الوجود الذي ينسب له الوجود المنطقي، وهو الفكر الداخلي الذي يتحكم بصيرورة الأشياء وموقعها من عملية الوجود. وبناء عليه يمكننا أن نعد أنّ الفكرة التي يرجع فيها التصور إلى نفسه عن طريق اتحاد الذاتية بالموضوعية هي أرفع تعريف للمطلق.

يفترض هيغل في كتاب ظاهريات الروح أو الفكر ثلاثة أنواع من الموجودات، تتداخل مع بعضها وتتجلى لتكون المطلق وهي:

1 - المطلق 2 - الطبيعة 3 - المعرفة البشرية وتتم العلاقة بين المطلق والطبيعة من خلال المعرفة البشرية، وتلك المعرفة هي العنصر الكاشف للدلالة بين المطلق والطبيعة، ولا يكون المطلق مطلقاً إلا من خلال التشظي والانقسام والتجلي في الطبيعة والمعرفة البشرية، فالمطلق يعتمد على التجلي بقدر ما تعتمد تجلياته عليه.

يقول هيغل: "إنّ الله من دون العالم ليس الله" والمطلق عند هيغل ليس وجوداً معطى مرة واحدة وإلى الأبد، ولا تكون معرفتنا به حدسية مباشرة، وإنما نتيجة صراع نقدي وعملية جدلية تحقق نفسها تدريجياً، فيصير آخر غير ذاته، لكنه يظل ذاته في هذه الآخرية.

يصف هيغل المطلق بأنه منقسم وبسيط ومتشظٍ، والتجلي هو ميزة أصيلة في المطلق الذي يحركه السلب والتناقض والصيرورة، والتجلي في المطلق هو حركة باتجاهين متداخلين؛ الأول هو تجلي الأشياء كلها والإنسان بضمنها تجلياً أنطولوجياً. والثاني تجلياً أبستمولوجياً، وهو تجلي المعرفة ابتداء من اللوغوس إلى الإنسان.

وتتم تجليات المطلق وفقاً لعملية ديالكتية تطورية يقسمها هيغل إلى نوعين من الجدل: الجدل الهابط والجدل الصاعد.

الجدل الهابط: وهو أصل الجدل عند هيغل؛ إذ يمثل انفعال الله إزاء العالم الذي خلقه في حالة استلابه فيه، ولا يرفع غضب الله إلا بالجدل الصاعد الذي تتطلع فيه الإنسانية والمجتمع والتاريخ نحو الله وتفنى في أبديته الحية.

الروح المطلقة

إنّ الروح المطلقة عند هيغل تتألف من اتحاد الروح الذاتية وهذه الروح عبارة عن العقل البشري منظوراً إليه ذاتياً كفعل خاص بالذات الفردية، وتشمل الإدراك الحسي والخيال والذاكرة وكل الملكات والدرجات الوظيفية في العقل البشري مع الروح الموضوعية؛ وهي انتقال الحياة الجوانية إلى نقيضها في الحياة البرانية وموضوعاتها الخارجية، ولكن العالم

الخارجي هنا ليس مادياً وإنما هو عالم روحي يشمل الأنظمة والقوانين كالعدالة والخير والأخلاق والدولة، وهذا يتجلى في الروح الكلية التي تنظم الحياة العامة في المجتمع والدولة والأسرة؛ لذا تعد هذه الأنظمة بوصفها مظاهر للعقل والذكاء والغاية.

أمّا الروح المطلقة التي تتكون من اتحاد الروحين فإنها تدرك وحدة وجودها الباطن فتبلغ حقيقتها الكاملة في الفن والدين والسياسة وهنا تبلغ الروح حرية مطلقة لا متناهية.

التاريخ وظاهرية الفكر

يعتبر هيغل أنّ المنطق داخل في طبيعة الإنسان الخاصة، والعقل نفسه، لذلك فهو يصبح وجوداً ومعنى في آن واحد، وعليه فإنّ الفلسفة الهيغلية تأخذ شكل المنطق وتستعيره لتبدو كعلم بين العلوم، لكن الأصل في فلسفة هيغل هو التاريخ وجاء المنطق لتدعيم هذه الفلسفة ومساندتها.

يكون المنطق هو المعبر عن حركة التاريخ في إطارها ومسيرتها من خلال الانتقال من اللامحدود إلى المحدود، وكذلك من الصورة إلى المادة، فالفكرة تظل مجردة إلى أن تجد مضموناً عينياً وتتحقق فيه وهو التاريخ، والتاريخ لا يوجد وراءه سوى الفكرة، والفكرة مجردة.

ظاهرية الفكر ليست تاريخاً للفردي، وليست مجرد تاريخ للعملية الذهنية الخاصة بتطور الجنس البشري، بل هي عبارة عن الأمرين معاً، لذلك لا يمكن أن يكون التاريخ كتاريخ هو عنصر الاهتمام الرئيس لهيغل، ولكن التاريخ هو معنى التجربة وهو مصداق التوافق بين عالم الفكر وعالم الحقيقة، واستمرار معنى العقل في الواقع الفعلي، فالتاريخ من شأنه أن يحفظ تجارب العقل والمعرفة، ومن شأنه أن يعكس كل أوجه التاريخ التي تنتاب الحقيقة، لذا يمكننا تعريف ظاهرية الفكر بأنها موضوع علم الوعي، وإنّ فلسفة هيغل بأكملها هي تطلع نحو الوعي الإنساني الحقيقي، وإنّ نظرته الثاقبة إلى تاريخ الفلسفة جعلته يربط هذا التاريخ ربطاً بحركة التاريخ العام، لأنّ التاريخ بوصفه صيرورة الإنسان، ليس سوى وعي الروح بذاتها في مختلف ضروب الصراع والاختلاف، وهو عبارة عن مجموع الظواهر الجدلية للفكرة التي تستقر في حاضرها السرمدي.

تدرس ظاهرية الفكر مرحلة متقدمة من مراحل الروح يسميها هيغل الوعي؛ وتتميز هذه المرحلة الجديدة بطابع عام يتمثل في واقعة الانتباه إلى وجود شيء خارجي بالنسبة إلى الوعي، ويكون الوعي متقدما شيئاً فشيئاً، اعتماداً على التغيير الذي يترتب على الشيء الخارجي. لذا يظل تحديد الوعي مرتبطاً بتحديد الشيء الخارجي الذي يصبح مضموناً بداخله، ولكن دون أي اعتبار خارجي أو تجريبي يكون خاصا بالشيء الذي هو موضوع الوعي.

لقد أدمج هيغل المعرفة المفكرة في المعرفة الموضوعية، وأثبت أنّ المعرفة إذا تعلقت بالشيء الخارجي ارتدت إلى نفسها، لذلك فهو يشمل العقل النظري إلى جانب كل العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الوعي والواقع الحقيقي. وانعكاس الوعي على ذاته عند هيغل هو تركيب مؤلف بين الحرية والضرورة، تتحقق فيه الذات تحققاً تاماً أثناء حركة العودة إلى نفسها.

الوعي الذاتي والرغبة

تتجه الذات عند هيغل إلى العالم الخارجي ليس كمعرفة، ولكن كرغبة فالرغبة هي عامل رد الإنسان لذاته كوعي ذاتي، وهي التي تنشىء هذا الكائن الإنساني (كأنا) وتكشف عنه بهذه الصورة.

ولمّا كان الوعي الذاتي يتلقى مضمونه من الشيء المرغوب فيه، فإنه يتشرب بوجود هذا الشيء، ولو انصبت الرغبة على شيء صارت تحمل كل خواص الوجود الطبيعي الشيئي، لكن هذه الخواص المرتبطة بالشيء متعارضة مع الوعي الذاتي، لأنه في حد ذاته نفي للموجود الشيئي، ولكي يحتفظ الوعي الذاتي بنفسه لا بدّ أن يتموضع كعملية إعدام، ولا بد لهذا أيضاً أن يؤكد الوعي الذاتي وجوده كرغبة في الرغبة وكفراغ يريد ذاته وينشدها، ومن هنا يتعرض الإنسان للالتقاء بإنسان آخر يناشده أن يتقبله كموضوع لرغبته.

فالأنا لا تتجلى لذاتها إلا بقدر ما يحدها وجود الغير، ولا يدرك الغير ذاته في أناه إلا بقدر ما يدفع أنا سواه ويستعبدها ويردها إلى داخلها. ويؤدي اشتباك كل طرف من أطراف الوعي الذاتي بطرف سواه يعارضه إلى الصراع حتى الفناء، فتسعى الأنا لفرض نفسها على الأنا الأخرى كموضوع لرغبتها، وينشأ عن صدام رغبات كل من الإنسانين أو الوعيين الذاتيين اختفاء الخصمين من المجال، وهنا لا بد من تعريف الغير على الأنا كقيمته الخاصة به كطريق للخلاص أو النجاة من هذا الصراع. ومن هنا نشأت مقولة السيد والعبد الشهيرة عند هيغل في كتابه ظاهريات الروح أو الفكر مفادها أنّ كل شيء يكون موضع سيادة وتملك يكون خاضعاً للتفكير.

الحرية

تُعرّف الروح نفسها كروح لمجرد تعرفها على ذاتها كوحدة بين الوعي الذاتي الخاص بها والحقيقة الموضوعية. وهنا تقوم روح كلية هي روح الزمن وروح الشعب، فالروح عند هيغل هي المظهر الذي يحتوي على عقل كامن في الأفراد التي تتألف منها الجماعات البشرية، والفكر هو الأساس الذي تتبلور حوله الظاهرية والروح العامة هي مظهر الفكر.

إنّ ماهية الروح عند هيغل هي الحرية، وهي مرحلة انتقالية في تطور العقل، ولا يبلغ الإنسان هذه الحرية الحقيقية، إلا عندما يفارق الحرية المجردة وينفد بوعيه الكامل إلى العالم بوصفه عالمه الخاص والحقيقي الذي يتمثل في بقائه واستمرار مصلحته وموضع اهتمامه، لذلك فالوعي الذاتي لا يبلغ حريته في صورة أنا وإنما في صورة (نحن) عندها تكتمل الحقيقة التاريخية وتتحقق في حياة الأمة.

على الرغم من تحررنا من هيمنة العقل الهيغلي وشموليته المركزية لِما فيها من تذويب للفردانية، حيث ينصهر الإنسان انصهاراً تاماً في الجماعة وفي تمظهرات الفكر الإنساني وأنساقه؛ إلا أنه يحسب لتلك الفلسفة بأنها ساهمت بربط الفكر بالوجود بالمعرفة عن طريق مبدأ الجدل والدراسة الفاحصة والكاشفة لأهم مراحل تطور العقل منذ اللحظات الأولى لبزوغ الوعي الذي ساهم في نشأة الحضارات والمدنية، وكل ما أنتجته المخيلة من أدب وفن وموسيقى، ومن ابتكار للمفاهيم والنظريات العلمية والقوانين، وبكل ما من شأنه أن يساهم في دفع عجلة هذا التطور في مسرح التاريخ حتى تحققه الكامل من المحدود إلى اللامحدود.

الليالي العربية: الجذور والقيمة

د. صالح الصحن

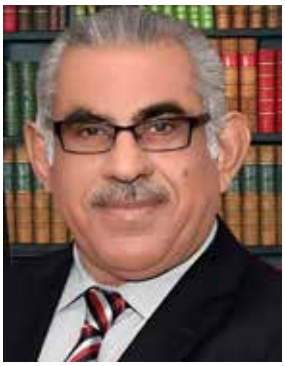

حين تلجأ اغلب الأوساط المعرفية الباحثة عن التحقق في مصائر الأشياء والوقائع الثقافية إلى أصول مكوناتها وعناصرها، عبر الامتداد الزمني والمكاني وتأثيراتهما الفاعلة في تكوين ما يتعلق بها من ظاهرة أو أثر أو منجز ابداعي، ولياليا العربية كيان ثقافي أدبي فني جمالي اكتسب شرعيته وجذوره من أصول حكاياته التي اثبتت قيمتها الحضارية بفعل الوحدة البنائية للحكي ومضامين القص عبر متونها الممتعة. فقد بقي كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي تضمن الحكايات الخرافية والعجائبية، يحتفظ بهذه الصفة المميزة، لأنها نسجت بقصدية واضحة، تستهدف المألوف وتتجاوزه، وأن المؤلف المجهول هو جزء من هذه الصفة، أما الاختيار الذكي لأسم جميل مثل "ألف ليلة وليلة" فقد ظل إلى الآن في مدار التكهن والاحتمالات. وأن الألف ليلة وليلة رقماً ليس له علاقة بعدد الحكايات التي رويت ولا بأي رقم أو حال تم تناوله في القصص والأسفار، ونعتقد أن هذا الاسم لا يخرج عن الإطار العجائبي المرسوم للحكايات. فمثلاً رأى به ليتمان الزيادة المطلقة المفتوحة عندما يقول: "وإما أن يكون كذلك عدد الألف في الأصل إنما أريد به التكثير لا التحديد، وأخر به أن يكون كذلك". وليتمان هنا يدفعه اعتقاده بان رقم "الألف" يدل على ما لا يحصى، وعلى المبالغة، وهناك من يعتقد أن لهذا الرقم الألف وواحد جذورا تركية "تدل كلمة (بن بر) في اللغة التركية ومعناها ألف وواحد على الذي لا يحصى لكثرته، ويشيع استخدامها في التركية المعاصرة مثل (ميدان بن بر عمود) أي ألف عمود وعمود في إستانبول وكذلك بن طرز أي ألف طراز وطراز في الدلالة على كثرة الأشكال"[1]. ولا غرابة في إطلاق مثل هذه الاحتمالات لاسيما ونحن ما زلنا في أجواء شرقية بحتة، أما الاحتمال المليء بالغرابة فهو أن العرب لا يتفاءلون بالرقم الزوجي، ولذلك أضافوا "الواحد" تخلصاً مما لا يحمد عقباه، ولكن من ينسى ألفية ابن مالك وألفية ابن معطي، كما يقول ليتمان[2] "وكان الجهشياري يريد أن يسمي كتابه ألف سمر"[3]. ويمكن التأكيد أن ألف ليلة

وليلة، حكايات لا مؤلف لها سميت باسمه أو نسبت إليه، وقد كتبت في عصور مختلفة، ما أثارت جدلاً في الكشف عن أصول هذه الحكايات وموطن انتمائها، إذ إن "الحديث عن أصل ألف ليلة وليلة استند بعضه إلى أقوال للقدماء مثل المسعودي وابن النديم عن كتاب أو مجموعة من القصص ولم يتأكد أحد من الصلة بينها وبين ما تحويه النسخ الخطية الموجودة اليوم"[4]. وقد سعى كثير من الكتاب والمؤلفين بعد كشف الباحث الماهر الدكتور محسن مهدي لإيضاح وتحقيق شرقية الليالي العربية وأصولها[5]. فتاريخ العرب الواضح تحمل جيرة الأقوام الهندية والفارسية والإغريقية. وبما يسجل الآثار المعروفة من فتوحات وغزو وتجارة ورحلات وعلاقات، ولكن لم تصل إلى حد فقدان السيطرة والتمييز بين ماهية هذه الآثار وجزئياتها الدقيقة التي تنعكس هي الأخرى على صور الحياة الاجتماعية والثقافية وغيرها من الميادين. ولا ننكر أن حالات الاضطراب والحروب التي تمر بها الأقوام والشعوب تفقدها أحياناً بعض الأرقام والنسب والوثائق، ولكنها لا تتجاوز حدود الأصول والجذور، وأصول ألف ليلة وليلة وجذورها أخذت حيزاً كبيراً في البحث والتنقيب وأثمرت نتائج متباينة ومتناقضة.

وقد ذكر المسعودي كتاب ألف ليلة وليلة في (مروج الذهب) أن الناس قد ذكروه كثيراً ممن له معرفة بأخبارهم وقال: "ن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة، نظمها من تقرب للملوك بروايتها، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب هزار افسانه، وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية ألف خرافة، والخرافة بالفارسية يقال لها افسانه، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها، وهما شيرزاد ودينازاد، ومثل كتاب فرزة وسيماس وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتاب السندباد، وغيرها من الكتب في هذا المعنى"[6]. ويمكن تفسير ومناقشة قول المسعودي هذا على وفق النقاط الآتية:

(1) وردت عبارة "أن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة"، والتي تفهم أنها موضوعة ومصنوعة بمعنى أن وراءها واضع أو صانع قد بذل جهداً في إظهارها إلى الوجود وليس استلالاً أو نقلاً من أحد.

(2) شخيص "الصانع" أنه من المقربين إلى ديوان الملك بروايتها أي يرويها، راو.

(3) أن عبارة "بحفظها والمذاكرة بها" جاءت ضمن السياق الذي تعمل فيه المرويات الشفاهية وهو أقرب ما يكون إلى جنس الحكايات العربية.

(4) جاء تعبير "أن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية" بمعنى يؤكد أن هناك بالمقابل كتاب فارسي أخر وأن حالها حال هذا الكتاب الذي نخص به حكايات ألف ليلة وليلة. مما يؤكد وجود الكتاب الآخر هو قول المسعودي: "وسبيل تأليفها مثل كتاب هزاز افسانة" والذي ترجمه من الفارسية بـ "ألف خرافة".

(5) يطلق المسعودي الاسم الصريح لحكايات ألف ليلة وليلة بقوله: "والناس

يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة"، أي بمعنى الكتاب الذي نقصده نحن وليس هزار أفسانة.

(6) يؤكد المسعودي صفة التشبيه بين كتاب ألف ليلة وليلة وآخر غيره، بقوله الأخير: "ومثل كتاب فرزه وسيماس وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتاب السندباد، وغيرها من الكتب في هذا المعنى".

ويمكن أن نستدل من قول المسعودي أن ألف ليلة وليلة ليس نسخة فارسية أو هندية أو غير ذلك، وإنما كتاب يحمل أسماً مستقلاً أقترن بالشرق والعرب ولاسيما أنه من الأدب الشعبي فقد شاع السياق آنذاك أن تتناقل الأقوام والشعوب أخبار الممالك والأبطال والقصص الطريفة والعجيبة لما لها من تأثير نفسي مرض في الناس عامة، لهذا نجد أن أصول بعض القصص والأخبار في ألف ليلة وليلة منقولة من آداب أخرى ومن أقوام مجاورة. ويذكر المستشرق أريستروب أوجه الشبه بين ألف ليلة وليلة وما هو على شاكلتها في القصة الفارسية فيقول: "أن القصص التي أخذت من كتاب هزار افسانه الفارسي، هي التي تكونت منها نواة كتاب ألف ليلة وليلة، وعلى مر الزمن تجمعت حول هذه النواة في أراض عربية طبقات مختلفة من الحكايات"[7].

ومن أشهر هذه الطبقات هي البغدادية التي تناولت أخبار وقصص الخليفة هارون الرشيد ذات الأوجه التاريخية والخيالية، وتليها الطبقات المصرية وقصص الشطار والعيارين. أما رأي ابن النديم بشأن ألف ليلة وليلة فهو المتحمس الأول للفرس في إعطائهم ريادة تصنيف الخرافات مع أن هذه المهمة قد نسبت إلى الهنود كما شهد لهم الكثير، ويبدو أن العقد النفسية أو الدينية أو العرقية تدفع البعض إلى تحريف الحقائق أو السكوت عنها أو تحكيم دوافع الانفعال في الوصف والتمييز مثلما يصف ابن النديم كتاب ألف ليلة وليلة بأنه "كتاب غث بارد الحديث"[8] ونحن الآن في زمن بعيد جد عن هذا الوصف الذي خالف الواقع والذي تجاهل أثر هذه الحكايات في آداب العالم، ولا يخفي الأديب الفرنسي ستاندال إعجابه بالحكايات إذ يقول: "أرجو من الله أن أصاب بفقدان الذاكرة لأقرأ ألف ليلة وليلة من جديد فألتذ به كما التذذت أول مرة"[9].

أن الأدب العالمي الآن يشهد بأن العرب هم أصحاب ألف ليلة وليلة، والغرب يطلقون عليها اسم "Arabian Nights" بعد أن غزت جسد الثقافة العالمية وانعكست بمساحات واسعة في وسائل الاتصال الإنساني بأجناس الثقافة والفن بمختلف صورها وأشكالها. وإذا كانت الليالي العربية لغير العرب، فلماذا هذا الصمت الدائم؟ بعد أن عرف الهنود والفرس والإغريق جيداً أن الليالي اكتسبت الشهرة العالمية باقترانها بالعرب بعد أن ثبتتها الوقائع والبحوث، ويكفي أن نرى في السينما العالمية وفي الدراما التلفزيونية العالمية الكثير من الأفلام والمسلسلات التي تجسد أشكال الملابس العربية والشخصيات العربية والأماكن والبيئة العربية بما في ذلك الخطاب الذي كان سائداً آنذاك والذي اعتمد على القصص العربية. وفي هذا الصدد يقول ليتمان، "نمت الحضارة العربية وتعددت جوانبها في القرون التالية. وألفت قصص مبتكرة في حواضر العالم

الإسلامي، وأخذ فن القصة مع غيره من مظاهر التطور العقلي ينتقل شيئاً فشيئاً من المشرق إلى المغرب، نجد هذا كله ممثلاً في كتاب ألف ليلة وليلة، وهو أكبر مجموعة عربية للقصص وأكثرها تنوعاً، ففيه العناصر الدخيلة الشرقية الأصل إلى جانب العناصر العربية الخالصة"[10].

الف ليلة وليلة هي من ثمار حضارة العرب وإبداعاتهم، ولو لم تحمل مقومات الأصالة والإبداع لما وصلت إلى الغرب إنسانياً، منذ ترجمتها الأولى عام 1704 على يد أنطوان غالاند الى الآن، فهي صلب عربي، وحكي عربي وبيئة عربية، وأخرى من وحي الخيال، وتميزت بخاصية سردية عربية كعلامة بارزة في حقول الثقافة والفن، فهي الماكنة التي لن تتوقف بدواليب الخيال والعجائبيات والتي طالت الجزر المسحورة والمدن الخرافية والبحار والجبال ومدن تدخل إليها بمجرد أن ترفع صخرة وتنتمي إلى عالم ألف ليلة وليلة، وألف ليلة وليلة قصص شعبية متنوعة تضمنت الأشعار والأمثال، ألفت في مدد زمنية مختلفة، إذ كان يضاف إليها بمرور الزمن بعض القصص والأخبار وظلت تتحمل الحذف والتحوير إلى أن جاء عصر الطباعة، الذي حد نوعاً ما من هذه المتغيرات والإضافات، فيحكي بعضها قصص وأخبار العرب ويحكي بعضها الآخر أخبار وأحوال الأقوام والشعوب المجاورة كالهند والصين وبلاد فارس والأتراك، وكانت الرحلات والأسفار هي السبب الرئيس في تداول حكايات الآخر والاطلاع عليها، ولأنها ترد من غير الاختصاصين والثقاة فأنها تحتمل المبالغة والتحريف والتلاعب، فمنها ما هو واقعي وآخر خيالي، وقد أدى التخيل دوراً مهماً في نشر الأساطير والخرافات التي اختصت بهذا الموطن أو ذاك. وحكايات ألف ليلة وليلة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ومثلت عالماً مشغولاً بالسحر والسحرة ولم تخلُ من المجون والخيانات على الرغم من أنها نابضة بالحياة والحكمة والطرافة والشعر، والحكايات الاجتماعية والوعظية إضافة إلى العجائبية والقصص الخارقة، أما أبطالها فمنهم حقيقيون كهارون الرشيد والاسكندر الأكبر، والمأمون ومنهم الأسطوريون ومن نسيج الخيال كالسندباد البحري وعلي الزيبق وعلي بابا وعلاء الدين ومصباحه السحري، ومنهم أبطال لحكايات الخيال العلمي، كعبد الله البري والبحري والبساط السحري والحصان الطائر ومدينة النحاس، وجبل قاف وغيرها، ونستطيع القول أنها عالم ساحر مركب من الأحداث المتداخلة والسرد العفوي ذات الأثر الرئيس في حقل الثقافة العربية الراسخة في الذاكرة الجمعية ذات البعد الرمزي والمتحول إلى التردد اللامتناهي من الصور الذهنية والخيالات، الأخذ باشتراطات القصص والتأليف الحكائي، الخاضعة لسمات النص الشعبي المكتنز بالأغراض والدلالات. وحكايات ألف ليلة وليلة اتخذت مسار التحقق الجمالي في تشكيل الصور الأدبية الملتزمة بآليات سردية مختلفة وبأشكال تعبيرية خاصة، ولها الحيوية السائدة في صياغة نمط التشكيل والتنوع بما يمنحها الديمومة، "ولعل حكايات ألف ليلة وليلة أن تكون أغنى الآثار السردية العربية قديماً وحديثاً، بأشكال السرد، بحيث يمكن

أن نستخرج منها عدة أصول تصلح لأن تكون قاعدة للسرد العربي الأصيل"[11]. وهذه القاعدة هي التي أدركها الغرب قبل غيرهم بعد أن ترجم الليالي العربية إلى لغاته المتعددة وأخضعها للدراسة والتحليل مما ألهمت خيال الكثير من الأدباء والفنانين، وحركت نزعة الإبداع التي تمثلت بخزين لا يحصى من الأعمال الأدبية والفنية الخالدة. أن الحكايات العربية أسست منهجاً جديداً في السرد الإنساني، إذ اعتمدته الكثير من روائع الأدب والسيناريوهات التلفزيونية والسينمائية، إذ برزت روائع كبرى كقصص الديكاميرون لجيوفاني بوكاشيو وحكايات كانتربري لشوتسر ودون كيشوت لسيرفانتس، ورواية (اسم الوردة) لأمبرتوايكو التي تحولت هي وغيرها إلى أفلام سينمائية متميزة،....

الهوامش:

(1) يوري ليتمان، ألف ليلة وليلة، دراسة وتحليل، دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982، ص 93.

(2) رباب حسين النمر، شهرزاد في الفكر العربي والغربي، دراسة منشورة على موقع انطلوجيا في 10/كانون2/2017:
https://alantologia.com/page/17164/

(3) هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، من اهل الكوفة. ولد في 943م. صاحب كتاب (الوزراء والكتاب).

(4) ليتمان، مصدر سابق ص 94

(5) محسن مهدي، مظاهر الرواية والمشافهة في أصول ألف ليلة وليلة المجلد 20منشورات معهد المخطوطات، بغداد 1974، ص 125.

(6) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج2 دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص 251.

(7) ميخائيل عواد، ألف ليلة وليلة، مرآة الحضارة والمجتمع في العصر الإسلامي، بحث مقدم إلى دار المعلمين العالية بغداد 1955، ص 13

(8) احمد محمد الشحاذ، الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1986، ص 28

(9) فخري حميد القصاب، آراء المشاهير في كتاب الليالي الشهير، مجلة التراث الشعبي، العدد الأول، بغداد، 1989 ... ص 149.

(10) ليتمان مصدر سابق ص 4.

(11) عبد الملك مرتاض، الف ليلة وليلة، دراسة سيميائية تفكيكية، لحماية حمال بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1989، ص 104.

سينما العولمة والسردلمة والسرد الجديد

قراءة في فيلم (بابل)

د. مصطفى عطية جمعة/ القاهرة

معلوم أن مصطلح العولمة Globalization من أكثر المصطلحات التي صادفت رواجا في أدبيات السياسة خلال ربع القرن الأخير، في أعقاب حرب الخليج الأولى وغزو العراق للكويت (1990م). وقد جاء المصطلح معبرا عن تغيرات عميقة في السياسة العالمية تتمثل في سقوط الاتحاد السوفيتي وتفكك، وانفراد الولايات المتحدة بالهيمنة على العالم وقيادته بحكم حقائق القوة الاقتصادية والعسكرية والنفوذ السياسي، ومن ثم انتشار ما يسمى بثقافة الأمركة وعلاماتها في المأكولات والملابس ونمط الحياة الصاخب، وتسيّدت أفلام هوليود ذات التمويل الضخم شاشات السينما في مختلف دول العالم، مما دفع الكثيرين لنعت هذه الحقبة بأنها "حقبة الأمركة". وهو الأمر الذي أدى إلى اشتداد موجات معارضة وبشدة لهذا التوجه، تتمثل في السعي إلى إظهار الوجه الحقيقي لتلك الحقبة والمتمثل في استعلاء قيم وتوجهات وجنسية ما على سائر الشعوب أو على الشعوب الفقيرة بالأدق، التي تعاني شظف العيش من ناحية، وتعاني أيضا تعسف حكوماتها مع أفراد شعبها عندما يتعلق الأمر بنزاع مع أمريكي ما. الى جانب ضجر ثقافات أصيلة في العالم، من تمدد الثقافة الأمريكية على حساب قيمها وتاريخها ولغتها، فكانت موجات مضادة للعولمة في طابعها الأمريكي، كرد فعل حي ومضاد وإثبات للوجود.

أيضا، فإن لمفهوم العولمة بُعدا تقاربيا جغرافيا، حيث يعبر عن حالة التقارب الجغرافي بين الدول، والذي يتضح جليا في سهولة السفر بالطائرات، وانفتاح الحدود، وانسيال السياحة، ناهيك عن ثورة الاتصال ذاتها والمتمثلة في الحواسيب والهواتف المحمولة وشبكة الإنترنت والقنوات الفضائية والأقمار الصناعية. فلم يعد هناك مخف على الأعين؛ أو على الأقل نقل الأخبار والأحداث في العالم. وبعبارة أخرى، أن العولمة حصدت ثمرات التطورات الهائلة في قطاعات المواصلات والاتصالات والفضائيات، وتلاشي مفهوم الحدود التقليدية، وارتفاع مستوى المعيشة،

وزيادة ملحوظة في أعداد الأغنياء، ومظاهر الترف. وهذا لا يعني أن ثمة رغدا تعيش فيه شعوب الدول الغنية القوية وإن امتلكت المال والرفاهية وحماية حكوماتهم لهم، بل تظل أزمة الإنسان المعاصر واضحة بجلاء، وممثلة في المعاناة النفسية من الوحدة والقلق والاغتراب، ومن تعقد الحياة الحديثة، وغلبة المادية عليها، وانغماس الناس في الركض وراء ملذات وإغراءات، فإذا ظفروا ببعضها لهثوا لغيرها. فاكتست روحانيتهم بغلالات المادية الكئيبة، وأهملوا المقربين منهم، ويبدو أن الإنسان المعاصر لا يزال يضل ويتخبط.

سرد العولمة

إذا نظرنا إلى الجانب الإبداعي المتصل بانعكاس العولمة على الفنون والآداب يتبادر إلى الأذهان سؤال: هل يمكن أن نعبر عن حكاية أو سرد في بلاد متباعدة جغرافيا، متنائية مكانيا؟ وهل يمكن أن يتكون سرد فني (قصة أو سينما أو رواية) يعبر عن حالة التقارب الجغرافي بين جنسيات وشعوب مختلفة، تواصل بعضها بشكل أو بآخر من خلال وسائل السفر والاتصال الحديثة؟

يأتي طرح السؤال انطلاقا من واقع نعيشه جميعا، فإذا كان السرد التقليدي يتصل بشخصيات وأحداث تتم في واقع جغرافي واحد أو متقارب نسبيا، بحيث يكون المكان أرضية مشتركة للأحداث الواقعة عليه، فإن السرد المتعولم يعبر عن حالة التعدد الجغرافي الذي يحدث بالفعل، فالشخصيات تتنقل خلال ساعات قليلة بين بقاع شتى في العالم، وتحمل معها أحداثا شخصية، وأوجها من المعاناة أو اللذات، وهنا لم يعد المكان أرضية مشتركة، بل صار جزءا ضئيلا من أحداث السرد، وصارت الأجزاء الأكبر للسرد متمثلة في الأحداث والشخصيات وما يستتبعها.

ولكي تتضح الصورة أكثر، فلنتخيل أن هناك شخصا يعمل في عمل يستلزم سفرا كثيرا بين القارات، وتحدث له مواقف وأحداث بجانب تداعياته النفسية، أي أنه يتنقل سفرا من مكان إلى مكان، متجاوزا أطر الزمان، وقد يقوم بفعل أو ينطق قولا في بلد ما، نجد صداه في علاقات إنسانية في بلد آخر. وتلك الظاهرة صارت موجودة وبكثرة الآن، مع الذين يعملون في الشركات متعددة الجنسيات وكذلك رجال الأعمال، حيث يكثرون من السفر، وتكاد سنوات عمرهم تنقضي وهم في ترحال دائم، وقد وضحت هذه الظاهرة أخيرا، فهناك أناس يعيشون في الطائرات، وحياتهم على الإنترنت وفي المطارات، بحكم أعمالهم التي تستلزم سفرا دائما، وهؤلاء تكون لهم علاقات اجتماعية في بلدان وقارات، أكثر من بلدهم الأصلي، بجانب هواة السفر والسياحة وقضاء الإجازات في بلدان مختلفة، وفي كل بلد هناك شخوص وأحداث ومواقف وقصص تحدث لهم، تستلزم التعبير عنهم، وتغطيتها من الوجهة الأدبية، أي نحتاج إلى ألوان من السرد مكتوبا كان أو مسموعا أو مرئيا يعبر عن هذه النماذج في حياتنا، والتي باتت متكاثرة يوما بعد يوم.

إذن، يمكن القول إن السرد المتعولم يعني: قصّ حكايات من واقع العولمة الجديد، بكل ما فيه من تنقلات مكانية وجغرافية، وتداخل جنسيات، وتفاعل ثقافات شعوب مختلفة، وكل هذا في زمن واحد تقريبا، بأحداث مترابطة ومتسارعة، كلها متصلة ببعضها، تتم في آن واحد أو في ساعات متتالية حتى تصل إلى ذروتها أو نهايتها، أو تكون ذات صلة

بشخصية تلاقت وافترقت في أكثر من بلد.

فيلم بابل

ربما يستغرب البعض من مصطلح السرد المتعولم، بتعريفه المتقدم، ولكن نجزم أن هذا حادث بالفعل، ونراه متجسدا في السرد السينمائي، بل تكون أفلام السينما هي التعبير الأنسب لمثل هذا السرد -وأيضا مع أشكال الميديا الأخرى- لأن السينما هي الأجدر على تقديم الأمكنة الجغرافية بكل تفصيلاتها الطبيعية، وبكل الأعراق والثقافات واللغات التي تتوزع في القارات، فلقطة واحدة من بلد، تحوي اللغة والمعالم والوجوه كافية للتعبير عن هذا البلد، وتغني عن مئات الأسطر، فالصورة المتحركة لها سحرها ووقعها، ناهيك عن تجسيد القصة سينمائيا .

ولعل من أبرز الأفلام التي عبرت عن هذا السرد المتعولمة، الفيلم البديع "بابل" والذي أنتج في العام 2006م، عبر تعاون سينمائي عالمي لعدة شركات إنتاج في فرنسا، المكسيك والولايات المتحدة. ومن إخراج المخرج المكسيكي "أليخاندرو غونزالس إناريتو"، وكتب السيناريو والحوار "غييرمو أرياغا" بالإضافة إلى المخرج أيضا، وهو من بطولة "براد بيت"، "وكيت بلانشيت"، وقد فاز بثمان وعشرين جائزة، منها جائزة الأوسكار بأحسن موسيقي تصويرية، إلى جانب ترشيحه للحصول على (75) جائزة أخرى.

فهو فيلم يعبر عن إبداع سينمائي حقيقي وخلاق، بدلالة الكم الهائل من الجوائز التي حصل عليها أو رشّح لها. تدور أحداث الفيلم في ثلاث قارات (أفريقيا، آسيا، أمريكا الشمالية)، وفي أربع دول (المغرب، اليابان، المكسيك والولايات المتحدة)، ونسمع فيه خمس لغات: العربية، الأمازيغية، الإنجليزية، الإسبانية، اليابانية. ولنا أن نتخيل حجم الجهد الذي بذله المخرج وفريقه، للتصوير في هذه الدول.

الكثيرون ظنوا أن الفيلم يحوي ثلاث قصص تتكامل فيما بينها، ولكن الواقع أن الفيلم قصة واحدة، مبنية على حدث واحد يمكن أن نعده الحدث المحوري الكاشف، وأيضا الرابط لسائر الأحداث وتداعياتها، وما يتصل بها من شخصيات متعددة الجنسيات واللغات والثقافات وأيضا في مستواها المادي.

الحدث الأساسي في الفيلم، والذي يتم افتتاح الفيلم به يتمثل في قيام طفلين أخوين، كانا يرعيان قطيع ماشية مملوك لعائلتهما، حيث يقر الابن الأكبر أن يختبر بندقية معه، حصل عليها مؤخرا، ولكن الطلقات تطير بعيدا جدا، لتتغير حياة خمسة أشخاص في قارات ثلاث مختلفة، عبر ثلاث قصص متداخلة سرديا، بمعنى أننا نتنقل بين القارات والبلدان من خلال أحداث الفيلم.

أولى هذه المجموعات زوجان أمريكيان (براد بيت، كيت بلانشيت) وهما في رحلة سياحية في المغرب، وسيفهم المشاهِد أن العلاقة بين الزوجين متأزّمة، وتبدو الزوجة الأمريكية عنيفة ومحتجّة لوجودها بين هؤلاء "المسلمين الإرهابيين". وفيما هما جالسان في الحافلة تُصاب سوزان برصاصة طائشة، مما يجعلها تنزف وتفقد الكثير من الدماء. تتعقد الأمور حيث إن الحافلة متوقفة وسط الصحراء، لكنّ المترجم المرافق للرحلة يقنع السيّاح بالتوجه إلى إحدى القرى، ومن هناك يتصل الزوج بالسفارة الأمريكيّة بواسطة الهاتف الوحيد في القرية لطلب المساعدة. ولكن الزوجة تضطر إلى العلاج على يدِ البيطري الوحيد في القرية،

الذي لن يستطيع إلا خياطة جرحها دون استخدام المخدّر في مشهدٍ مؤثر، وتتصاعد الأحداث حين يقرر باقي السيّاح مغادرة القرية خوفاً من أهل القرية الإرهابيين (في منظورهم)، ليبقى الزوج وزوجته المصابة وحدهما في القرية. إلى أن تصل طائرة هليكوبتر لتقل الزوجين إلى أحد المستشفيات، وقبل اقلاع الطائرة وفي وسط عاصفة الرمال يعرضُ الزوج المال على المترجم الذي يرفضُ بدوره أخذ المال حيث إنه يعتبر مساعدته ووقفته مع "الأمريكي" نتاج تاريخ عربيّ طويل من الكرم أو مساعدة المحتاج. والأمر لا يحتاج إلى كثير من الشرح، فإن منظور السياح الغربيين إلى العرب المسلمين في المغرب ناتج عن ميراث كبير من العداء للإسلام والعرب والمتراكم عبر قرون في الغرب، والذي تعززه صور سلبية في الإعلام والفن المرئي.

تتسارع الأحداث، ويتم تداول الخبر في المحطات العالمية، على أنه عملية إرهابية من جماعة متطرفة في المغرب ضد إحدى الرعايا الأمريكيين، ومن ثم تستنفر أجهزة الأمن في المغرب، بحثا عن القاتل، وفي نفس الوقت تأتي طائرة هليكوبتر من الجيش المغربي لنقل الزوجة إلى مستشفى حديث في العاصمة بعدما تلقت علاجا بسيطا في إحدى القرى النائية، تمثّل في خياطة الجرح بشكل بدائي لوقف النزيف، وتصل الشرطة في النهاية إلى الفاعلين الحقيقيين، وتقتل الطفل الأكبر يوسف في اشتباكٍ مسلّح، فيما أخوه يسلّم نفسه للشرطة.

المفارقة تقودنا إلى القصة الثانية وستنقلنا الكاميرا والأحداث إلى اليابان، ذلك أن البندقية كانت ملكا لرجل أعمال ياباني، زار المغرب وأهداها إلى والد الصبيين، فهذا الياباني "ياسوجيرو" لديه ابنة مراهقة ووالدها مشغول عنها وهي تعاني من الوحدة، وقد انتحرت زوجته بإطلاق النار على نفسها، يحاول الأب بكل السبل التقرب من ابنته "شيكو" المراهقة مستغلا ما يتاح له من وقت بسيط، والابنة صّماء بكماء، تحاول جهدها اقتناص أيّة فرصة لممارسة الجنس، لإشباع رغباتها. كأنها تحاول التواصل من خلال جسدها مع العالم بعد أن فقدت وسائل الاتصال العاديّة والطبيعيّة معه، وتتقرب في سبيل ذلك من الشباب، عارضة نفسها بابتذال وعهر، حتى تقيم علاقة مع ضابط شرطة، جاء لوالدها مستفسرا عن البندقية التي أهداها للرجل المغرب. الملفت أن المشهد الأخير يُظهر الفتاة اليابانية عاريةً في شرفة الشّقة، كأنها من ناحية ستلقي بنفسها منتحرة، أو لعلّها تعرضُ جسدها العاري إلى المدينة وسكّانها، علّ أحدهم يستطيع أن يلتقط زهرة جسدها لتشعر بالنشوة لمرّة واحدة، ويأتي الأب ليحتضنها، مشعرا إياها بأبوته، ومعطيها حنانا واهتماما تفتقده.

أيضاً، تدور أحداث قصّة ثالثة، حيث ترك الزوجان الأمريكيان طفليهما في رعاية المربية المكسيكية "أميليا" التي تقيم في الولايات المتحدة الامريكية بشكل غير شرعي، وحيث لا يمكنها أن تترك الطفلين وحدهما، تقرر اصطحابهما معها إلى المكسيك لحضور حفل زفاف ابنها. وتضطر إلى عبور الحدود مع الطفلين بطريقة غير شرعية عبر الصحراء، فليست مخولة باصطحاب الطفلين معها، وهي مقيمة غير شرعية، وبالفعل تفلح في عبور الحدود، لتحضر عرس أقاربها، وفي العرس لا تخلو المشاهد من بعض

اللقطات "المزعجة" كقطع رقبة دجاجة أو إطلاق الرصاص في حفل الزفاف الذي يثير رعب الطفلين غير المعتادين على مثل هذه السلوكيات. وفي رحلة العودة لم تكن الأمور على ما يرام، حيث تعود المربية مع الطفلين في سيارة يقودها أخوها "سانتياغو" لكن شرطة الحدود توقف السيارة للاشتباه، فما أكثر التهريب والمهربين على الحدود، خصوصا أن المربية كانت مقيمة في الولايات المتحدة بطريقة غير شرعية، منذ ستة عشر عاما، وهذا ما دفع "سانتياغو" إلى الهرب واقتحام الحدود، بعدما أنزل أخته والطفلين من السيّارة ليهربَ وحيداً من الشرطة.

في الصباح ستجد "إميليا" نفسها وسط صحراء شاسعة، و يتدخل القدر ليتم إنقاذ الأطفال ومربيتهم في آخر اللحظات، بعدما أشرفوا على الهلاك، وتركت المربية الطفلين، وراحت تبحث عن سبيل للنجاة، حتى تعثر عليها الشرطة، وتتحرك طائرة هليكوبتر للبحث عن الطفلين وإنقاذهما.

رسائل الفيلم واضحة جلية، لعل أهمها: النظر إلى حصاد العولمة، والمتمثل في استعلاء الجنسيات الأمريكية والأوربية على سائر الشعوب، بدليل تحرّك السلطات المغربية لإنقاذ الزوجة الأمريكية، جنبا إلى جنب مع نشاط السفارة الأمريكية، وتغطية إعلامية عالمية مواكبة، فيما يتم التعامل الشرطي القاسي مع مطلقي النار وينتهي الأمر بقتل الطفل الأكبر، عندما حاول الهرب، رغم أن أخاه أعلن استسلامهم، ولكن الشرطة سارعت بقتله، لتعلن أنه قد تم القضاء على الإرهابي، مطلق النار. إنها رسالة شديدة الواقعية والألم في آن واحد.

أيضا، فإن الرسالة الثانية في الفيلم تشير إلى أزمة المادية الطاغية التي هي من أهم سمات العولمة، حيث العيش في ناطحات السحاب، ورفاهية الحياة، وفي نفس الوقت فقدان الحنان والدفء العاطفي، بدلالة الفتاة "شيكو" وأزمتها مع نفسها وفقدانها لأمها، وانشغال والدها عنها، وهي نفس ما تشعر به المربية "إميليا" التي تعاني من قسوة الاغتراب خلال عملها لدى أسرة أمريكية في الولايات المتحدة، فحرمت نفسها من الحب والزواج، وهذا ما رأيناه خلال سفرتها واشتياقها إلى رجل.

أما الرسالة الثالثة فتتصل بحال المهاجرين غير الشرعيين، من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية التي تقود العولمة في نفس الوقت، كما رأينا في حالة إميليا، التي يدفعها الفقر لتحمل الغربة سنوات طويلة، أي تظل الشعوب الفقيرة في خدمة الشعوب الثرية، وتتعرض للطرد في أية لحظة، بدون تعويضات أو تقدير لها.

الرسالة الرابعة: تتصل بالقيم الإنسانية عامة، فإن العولمة أعلت شأن الحريات وحقوق الإنسان في تمددها نحو الشعوب والدول الفقيرة، ولكنها في الحقيقة تمارس أعلى درجات الاستغلال والقهر، وبعبارة أوضح: فإن العولمة لون من ألوان موجات الاستعمار الغربي، بثياب جديدة وشعارات جديدة، لا يطبق منها شيء.

إن هذا الفيلم، أعطانا جزءا من الوجه الآخر للعولمة في تطبيقاتها العملية.

جماليات السرد السينمائي وعناصره

يتميز السرد في السينما بأنه يمتلك سبلا عدة يصل بها إلى المتلقي، فهو لا يعتمد على اللغة والأسلوب الوصفي كما نرى في السرديات

المكتوبة في الروايات والقصص، وإنما على الصورة والشخصيات الممثلة، والديكورات والتنقل بسهولة بين الأمكنة، وتقطيع الزمان، بجانب حوارات الشخصيات، والموسيقى المؤثرة وغير ذلك، أي أن تقنيات السينما المتعددة أساسية في إيصال الرسالة السردية.

ونرى أن العلامات الأساسية الدالة على تقنيات السرد في فيلم بابل جاءت مستفيدة من التمايزات بين البلدان المختلفة، عبر تميز سحنات الوجوه والملابس كما نرى لدى كل من اليابانيين، المكسيكيين، الأمريكيين، المغاربة، وما يتبعهما من اختلاف اللغات، خصوصا أن المخرج جعل الممثلين من نفس البلدان، وينطقون بنفس اللغات المستخدمة في بلادهم: العربية والأمازيغية في المغرب، اليابانية في اليابان، المكسيكية والإنجليزية في المكسيك والولايات المتحدة، وبعبارة أخرى فإن علامات التميز التي سيفهمها المتلقي في الفيلم تكونت من طبيعة قصة الفيلم الدائرة في البلدان الثلاثة في توقيت واحد تقريبا، عبر حسن استغلال علامات الأمكنة واختلاف الوجوه واللغات والشخصيات ذاتها.

وقد أجاد المخرج في تعميق الشخصيات لدى المتلقي فصارت كل شخصية أيقونة دالة على أزمة، فالفتاة "شيكو" دالة على أزمة معاقة بالصم والبكم وفاقدة للأم، تعيش أزمة نفسية يمكن نعتها بأنها أزمة وجود وتواصل مع الآخرين وفقدان للحب والحنان. أما الصبيان في المغرب فهما دالان على فقر وعوز وحرمان، في حين تشير شخصية المربية المكسيكية إلى أزمة المهاجرين المقيمين غير الشرعيين في الولايات المتحدة، والقسوة الشديدة التي يجدونها من السلطات الأمريكية معهم.

لقد نجح فيلم "بابل" على مستويات عديدة من المنظور السينمائي والسردي والسيميائي، فهو أولا يعتمد على عنصر الإبهار بحرفية إخراجية وتصويرية عالية، عنوانها التشويق، وبلغة سينمائية بليغة، ولقطات دقيقة معبرة، بكل ما فيها من رموز وعلامات ودلالات، والأجمل في كل هذا قدرة المخرج على أن يحتفظ بإثارتنا طيلة أكثر من ساعتين، دون ملل، بجانب نجاحه في إغراقنا في الإيهام طيلة الفيلم وجذبنا إلى التعمق في شخصياته، وابتلاعنا بإيقاعه السريع، فنستغرق في متابعة أحداثه بتشوف وترقب، خاصة مع إجادة القطع في مشاهد بعينها بحيث يظل المتلقي في حالة من اللهاث لمعرفة ماذا حدث، ولعل المشهد المؤثر في ذلك عندما تركت المربية الطفلين في الصحراء، والولد يرجوها أن تبقى معهما، ولكنها تخبرهما أنها ساعية إلى البحث عن النجدة، وعندما تجد نجدة من الشرطة، تعود إليهما، ونكتشف أنها فقدت المكان وعبثا حاولت مع الشرطة العثور عليهما. لقد استطاع المخرج أن يقدم لنا المشهد بحرفية عالية، يجعلنا نبكي مع الطفلين ثم يحدث لنا التطهير الأرسطي عندما نجد الضابط يخبر المربية أنها مطرودة من الولايات المتحدة، وأنهم قد عثروا على الطفلين في حالة صعبة.

هناك عنصر جمالي، يمكن أن نقرأه في ثنايا القصص المتفرعة من الفيلم، وهو عنصر أفقي مشترك بين القصص الثلاث في أمكنة ثلاث: المغرب، واليابان، والمكسيك. يتمثل في فعل متكرر حتى صار رمزا ما، ألا وهو " الجنس"، فالجنس حضر على مستويات عدة، ومع شخصيات ثلاثة مختلفة الأعمال.

وإذا أردنا ترتيب الأعمار، وأيضا مشاهد ظهور السلوك الجنسي الخارج في حد ذاته،

فإن المشهد الأول كان مع الصبي مطلق النار على الزوجة الأمريكية، وهو في الحقيقة لم يكن صبيا وإنما كان مراهقا بالغا، سرق البندقية من وراء أبيه، وركض وراء إحدى الفتيات المراهقات من جيرانه وتبعه أخوه الأصغر، حيث أغرته البنت بكشف أجزاء من جسدها، فألهبت خياله، وأشعلته فتسمر يراقبها، ودفعه هذا لأن يطلق النار أملا في المزيد من اهتمامها ولفت نظرها إلى رجولته المبكرة، وهذا ما ضربه والده عليه بشدة، كما عنّف الفتاة، ومن ثم اصطحب الولد وأخاه هربا من الشرطة التي ضيقت الخناق عليه، وحاصرت القرية، وعاقبت سكانها. فيمكن أن نطلق على هذا الموقف أنه شبق جنسي لإشعال خيال المراهقين، وهو المستوى الأول في العمل المشين، والذي لم يتخطَ النظرات إلى فعل.

المشهد الثاني مع الفتاة اليابانية "شيكو" وهو في الحقيقة مشاهد عديدة، بدا من حرصها إلى إظهار ثيابها الداخلية، أمام الشباب لعلهم يطاردونها، ويعجبون بها، وكان ذلك في إحدى الحفلات، وتطور إلى محاولة إقامة علاقة كاملة مع ضابط الشرطة الذي حضر لأخذ أقوال أبيها، وكانت تصر على الظهور عارية في كثير من اللقطات، التي هي مأخذ في رأينا على الفيلم، فكان يكفي المخرج الإشارة والتلميح وليس الكشف الفاضح. ويمكن أن نؤول فعل "شيكو" بأنه جنس تعويضي عن حرمان عاطفي جسدي، من والد مشغول عنها، وأم منتحرة، وغياب حبيب لها. ونلاحظ أن "شيكو" كانت في سن الشباب، ولكنها ضائعة شعوريا واجتماعيا.

أما المشهد الثالث فهو المربية المكسيكية "إميليا"، والتي حرمت نفسها من الحب والزواج طيلة إقامتها غير الشرعية في الولايات المتحدة، حتى إذا حضرت عرسا لأحد أقربائها، وقد رأت فيه شخصا أحبته يوما، ومن ثم اصطحبها إلى بيت فارغ، فالكل مشغول في العرس، وأقامت معه علاقة جنسية سريعة. فيمكن أن نسمي هذا الموقف بأنه نهم لإشباع شهوة مكبوتة وحرمان امتد لسنوات طوال، تنكرت فيه "إميليا" العجوز لجسدها وعواطفها أملا في جمع المال.

عنوان الفيلم

يستوقفنا عنوان الفيلم "بابل"، فلا نكاد نعرف كنهه في ضوء القارات الثلاث والبلدان الأربعة التي نجدها في الفيلم، وليس من بينها العراق الذي توجد فيه مدينة بابل التاريخية والواقعة على نهر الفرات وهي من أشهر مدن الشَّرق القديم، وكانت عاصمة البابليين الذين عاشوا في بلاد ما بين النهرين في الألفَيْن الأول والثاني ق.م، وورد في ذكرها قوله تعالى: {وَمَا أَنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} وحدائق بابل المعلّقة: حدائق بناها نبوخذ نصَّر في بابل في القرن السادس ق.م، وإليها يُنْسب السِّحرُ والخمر ، كما ورد في معجم لسان العرب .

ويورد الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه "العين"، تفسيرا أقرب للميثولوجيا: "يقال والله أعلم: إنّ الله عزّ وجلّ لما أراد أن يُخالِفَ بين ألْسِنة بني آدمَ بعث ريحاً فحشرتهم من كلِّ أُفُق إلى بابل فبلبل الله بها ألسنتهم، ثمّ فرَّقتهم تلك الرِّيحُ في البلاد" .

فقصّة بابل والبلبلة في اللغات واختلاف الألسن أسطوريّة ويردُ ذكرها في العهد القديم كما في سفر التكوين. ولا يختلف المعنى كثيراً حين ننظرُ إلى القاموس تحت كلمة "Babel"

التي تعني في واحدة من معانيها "الجلبة، أو اختلاط أصوات".

أن دلالة عنوان الفيلم عميقة، ومتسقة مع موضوع الفيلم وسرده، وأيضا اللغات المتعددة التي سمعناها في الفيلم، والتي قد تحدث طنينا غير مفهوم في آذاننا إذا كنا نجهل هذه اللغات، ولكن تظل المعاني والمشاعر الإنسانية والأزمات النفسية والاجتماعية، واتصالها بالسياسة واستعلاء شعوب على شعوب أخرى؛ يظل كل هذا في النفس، فمهما تعددت اللغات، وعجمت الألسنة، تظل القيم الإنسانية واحدة، والمآسي متكررة بل ومتشابهة بين الشعوب والناس وإن تناءوا .

وختاما، يمكن القول إن هذا يظل الفيلم في أعماقنا، وتظل ذكراه معنا بمشاهده المؤثرة، وعلى حد ما ذكر المخرج الفرنسي الشهير "جان لوك جودار" إذ يقول: "عندما نعجب بفيلم ما، فإنه يصبح في التو أكبر منا"، أي يحتوينا بفكره أحداثه، ويلح علينا بشخوصه وعلاماته.

الخزاف أرنولد أننهاس

أشكال (احفورية) تماثل الكائنات المجهرية المائية التي ظهرت قبل ملايين السنين

ترجمة: خنساء العيداني

يعد أرنولد أننهاس (1952 غشتاد/ سويسرا) واحدا من الخزفين المشهورين عالميًا، وقد تلقى تدريبه في مدرسة التصميم في برن، ثم تتلمذ لاحقًا على يد جان كلود دي كروساز وبيير ميستري، وفي عام 1989 أنشأ الاستوديو الخاص به في بازل.

اشتهر بأعماله الخزفية من بورسلين ليموج، فعلى مر السنين، كان يعمل على تحسين أسلوبه في صنع أوعية خزفية مميزة ورقيقة، ولا مثيل لها في عالم السيراميك، وتتطلب نهجا منضبطا، ومستوى عاليا من الحرفية، ونظرًا للنحافة الشديدة لخزفياته؛ فمن المستحيل تصحيح الأخطاء التي تقع، بقصد او دونه؛ فحتى ان أصغر فقاعة هواء ستفسد العمل، فيجب أن تتم كل المراحل بدقة تامة، وهذا يتطلب التركيز المطلق طوال العملية برمتها، والنتيجة ستكون ظلالا رقيقة وشفافة ودقيقة، وهو ما جعل بعض النقاد يسميها "الذهب الأبيض. "

منذ عام 1993، لم يعد عمله يقتصر على احجام صغيرة، فقد بدأ بتطوير القطع الخزفية الضخمة، مع إيلاء اهتمام خاص للمساحات والأحجام والمسافات البينية، وبعد سنوات قليلة ظهرت أولى أشكاله (الأحفورية) إلى الوجود، فأطلق عليها أسماء مثل Stichtyomitra أو Archaeodictyomitra، وهي الكائنات المجهرية وحيدة الخلية التي عاشت في البحر منذ ملايين السنين، وتُظهر نوعًا مختلفًا من الشفافية، فهي خشنة، وتشبه الهيكل العظمي، ظلالا قوية، حيث أدى التسخين الى حرارة 1250 درجة مئوية إلى حرق المادة، فيتم إنشاء بقع مجوفة وثغرات وشقوق؛ ويبدو العمل وكأنه يتفكك.

لا يترك أرنولد آنين المزيد من الشوائب حتى يتمكن من الحفاظ على اللون الشفاف الأبيض؛ ثم تجمع القطع بشكل عام من حجم بسيط (مخروطات وكرات وصحون طائرة) التي يمكن رسمها في قالب دائري؛ فيتيح الإتقان الحصول على لمسة نهائية من الدقة الفائقة، والتي تزيد من قيمة الشخوص الشفافة للخزف، فتنخلق لعبة مع الفضاء والضوء، وتنخلق في الأسطح رسوم متحركة صغيرة عن طريق ترطيبها باستخدام إسفنجة، وعلى العكس من ذلك، يتم تحقيق بعض الزوائد بمساعدة الباربوتين المطبق على الجرعة؛ فضلاً عن الإجمالي، تحتاج قالبا ثانويا، فتتيح هذه العملية للفنان

إنشاء نماذج من مقاطع الفيديو المستوحاة من الكائنات المجهرية.

لقد صار اللون الأبيض النقي، والرقة والشفافية العالية، والافتقار الى التزجيج غالبا، موضوع حياة أرنولد آنين؛ فانتقل الى هامبورغ، ثم 1989 حيث كان لديه أستوديو وورشة عمل جنبًا إلى جنب مع شريكة حياته، صانعة الخزف فيوليت فاسبيندر، وترتب على استمرارية ثابتة للعمل يجب وصفها بأنها ثورية فيما يتعلق

بمعالجة الخزف مرارًا وتكرارًا، وسيتحدى السيراميك المتطرف الذهب الأبيض في تصميماته كمادة، ويدفعه إلى حدوده الجزيئية تقريبًا.

بدأ الأمر بأصداف كبيرة مستديرة بحريّة ذات جدران رقيقة للغاية، ولكن البراعة والكمال الشكلي وحدهما ليسا أمرين يخطفان الأنفاس، إلا أن سماكة الجدران الرقيقة بدرجة تعطي سحرا للخزف، حيث يتم كشط جدار الوعاء إلى أجزاء من المليمتر بسكين

حتى لا تتبقى سوى أغشية شفافة؛ ولكن هذا ما يزال غير كاف ليتم وضع مناديل مبللة من البورسلين على هذا الوعاء المنتفخ الأكثر هشاشة باستخدام فرشاة دون لون ثم تتم إزالتها جزئيًا مرة أخرى؛ فيبدو المشهد مثل كتابة سحرية في مشهد بانورامي ناتج تأثير الجدران المتكسرة في كثير من الأحيان لهذه "الأوعية العائمة" المتمايلة والعائمة، والتي يتم تقديمها أحيانًا كإنشاءات ضوئية كما لو كانت مصنوعة من طبقات من صفائح الجليد اللبني، وهو تأثير متعالٍ تمامًا.

ان المادة هي اللامادية "غير الواقعية" للضوء، وإن أحدث الأشكال المخروطية المدببة المضيئة أو الأوعية الكبيرة الحجم، في روعتها الغريبة، تؤكد هذا الانطباع. ولكن هذا التجاهل للخزف تقابله فئة أخرى تثير الإعجاب بكبر حجمها، هياكل عظمية كلسية، كحيوانات عائمة صغيرة مجهرية، ملهمة، ملتوية حسيًا، مبنية، مجمعة، وغالبًا ما تكون منحوتات شائكة لها هيكل عظمي في شكل عضوي، في حد ذاته، لا حياة له، ولكنه ما يزال عضويًا..

مسرحيتان قصيرتان جدا

طلال حسن

الوهم

امرأة شابة في المطبخ،
يرن جرس الهاتف الجوال
المرأة: " تفتح الجوال" نعم ماما ..
الزوج: " من الخارج بتوتر" من؟ من يتصل؟
المرأة: إنها ماما..
الرجل: " يدمدم" يا للكابوس ..
المرأة: "تهزّ رأسها" إنه زوجي، حازم،
اطمئني، لا أدري، منذ الأحداث الأخيرة،
وقلقه وتوتره يزدادان ، آمل أن لا
يتطور الأمر، تحياتي إلى بابا " تغلق
الهاتف الجوال " آه منذ أن بدأت
الاغتيالات والاختطاف ، وحالته تسوء
يوماً بعد آخر .
حازم يدخل المطبخ،
يبدو خائفاً مضطرباً
الزوجة: خيراً، ما الأمر؟
حازم: هددني أحدهم في الموبايل ..
الزوجة: " تنظر إليه صامتة " ....
حازم: هددني الآن.
الزوجة: لكني لم أسمع موبايلك يرنّ.
حازم" منفعلاً " رنّ، وسمعته يهددني ..
الزوجة: " تأخذ الموبايل من يده، وتفتحه " لم
يحدثك أحد .
حازم: " متضايقًا " حدثني، لقد سمعته،
صوته غريب، لم أسمعه من قبل ..
الزوجة: "تنظر إليه صامتة" ....
حازم: قال لي، إياك أن تخرج من البيت ..
الزوجة: لا عليك، أنت لم تخرج منذ أكثر من
أسبوع ..
حازم: " يتمتم مضطرباً " لستُ جباناً،
سأخرج، وليكن ما يكون .
الزوجة: "تحضنه" هذه كلها أوهام، لا تخرج،
إنها كما تقول .. كابوس ، وسينتهي
"تصمت" سنفيق في يوم قريب، وإذا كلّ
شيء على مل يرام ، وتعود الحياة إلى
ما كانت عليه من قبل .
حازم يخرج من المطبخ،
الزوجة تتابعه دامعة العينين
الزوجة: بعد ظهر ذاك اليوم، ارتدى حازم
ملابسه على مهل، دون أن ينطق بحرف
واحد، وحاول أن يبدو هادئاً متماسكاً،
سألته بصوت دامع : إلى أين؟

فأجابني : سأخرج.
الزوجة: ونظر إليّ، ربما أرادني أن أعترض
على خروجه، لكني لم أتفوه بكلمة
واحدة، ليخرج، ويجرب ذلك بنفسه،
ليعرف أن ما يعانيه.. وهم .
إظلام، بقعة ضوء
على الزوجة وحدها
الزوجة: وخرج حازم في ذلك اليوم، على أمل
أن يعود مطمئناً، لكنه لم يعد إليّ أبداً.
تنطفئ بقعة الضوء،
وتختفي الزوجة
إظلام

الجرو الصغير

ظلام، ازيز طائرة، انفجار
شديد، يضاء طفل على الأرض
الطفل: ''يتحرك'' ماذا جرى؟ ''يعتدل
ويتحسس جسمه'' أظنّ أنني ما زلتُ حيّاً
''يقف ويتلفت حوله'' أين أنا! يبدو إنني
وسط ركام من الحجارة، أهو بيتنا الذي
انهار بالانفجار؟ ''يصمت'' لقد سمعتُ
أزيز طائرة، بعد أن غادر أبواي البيت،
قالت ماما ، وهي تخرج مع أبي ، بنيّ،
ابقَ هنا حتى نعود، وقبل أن يغلق بابا
عليّ الباب، قال لي، الجرو في الفناء،
لا تدعه يدخل الغرفة، آه من بابا، لا
أدري لماذا يكره الجرو، من يدري، لعل
جرواً مجنوناً عضه، عندما كام طفلاً
صغيراً، ولم ينسَ تلك العضة ، حتى بعد
أن كبر ، وصار أباً ''ينصت'' آه هذا
صوته، كأنه يأتي من آخر الدنيا، نعم
إنه الجرو.. الجرو الصغير ''يُسمع نباح
من بعيد عو عو عو''، هذا الجرو،
الذي ينبح الآن من بعيد، رأيته في يوم
ممطر، وكنت أسير مع أبي، نظر إليّ
بعينيه الصغيرتين اللامعتين، وكأنه يقول
لي، خذني معك، إنني وحيد ، توقفت،
وقلتُ لأبي، بابا، دعنا نأخذ هذا الجرو
المسكين، وردّ بابا بصوت قاطع.. كلا،
قلت محاولاً إقناعه، المسكين، إنه وحيد
، وثانية ردّ بابا ، كلا .. كلا، ونظرتُ
إلى بابا ، وقلتُ ، الله قال .. ، وحدق بابا
فيّ مندهشاً ، وقال ، ماذا قال الله؟ فأجبته
بلهجة معلمة الدين الست خولة، قال الله ،
إذا رأيتم جرواً خذوه.. ، ولا أدري لماذا
ابتسم بابا، لكنه جرني من يدي، وهو
يقول، الله لم يقل ذلك، هيّا ، وانقدتُ
لبابا مكرهاً، وداخلني شيء من الفرح،
حين رأيتُ الجرو الصعير يهرول ورائي،
وماء المطر يقطر من فرائه السميك ''
يصغي ملياً'' ها هو الجرو ينبح ثانية، يا
لصوته الجميل الحي ''يُسمع نباح الجرو
يقترب شيئاً فشيئاً .. عو عو عو'' إنه
لا ينبح من آخر الدنيا هذه المرة، بل إن
نباحه يقترب شيئاً فشيئاً ''ينصت ثمّ يبدو
عليه الفرح'' هذه مع النباح أصوات
معاول ومجارف، تعمل في الركام
المحيط بي، يبدو أن الجرو، الجرو
الصغير، قد دلهم عليّ، سأحكي هذا لبابا،
وسيحبه، سيحب الجرو الصغير، فهو
الذي دلّ العمال على مكاني، وسينقذونني
من موت محقق.
الطفل يرفع رأسه منتظراً،
أصوات النباح والمعاول والمساحي

إظلام
2023 / 7 / 21

تشابك ..

ريسان الخزعلي

في المهرجانِ
لا يضرُّ المتنبي شيءٌ،
عندما يكونُ آخرَ القائمة...
***
المياهُ،
مرايا الكواكبِ من دونِ زينَه...
***
لا تتعللْ
بعثَراتِ الليل،
في النهارِ قد تُخطئُ المنزلَ أيضاً...
***
أجملُ الأيامِ..،
تلكَ التي مضَت يا ناظم حكمت...
***
حتى
من غيرِ هبّةِ ريح..
الورقةُ التي على الأرضِ،
تطمحُ أن تكون على سطحِ البيت...
***
لا قياسَ
معياريَّ للحواس،
بتهوفن سمعَ السمفونيةَ التاسعةَ بعينيه ...
***
الظلُّ

ممحاةُ اللونِ،
والتلميحُ بلاغةُ العجَز ...
***
اللعبةُ
تتكررُ،
وأنتَ منشغلٌ بالمذكرات! ...
***
لها
الوقوفُ لا غير،
"الأشجارُ لا تعرفُ طعمَ ثمارها" ...
***
الانتظارُ
جنازةُ الوقتِ،
ولا دليلَ على الخطأ...
***
لا
أرضَ خراب ..
لا أربعاءَ رماد،
الإنسانُ أخذتهُ الرجفةُ يا أليوت ...
***
ما دامَ
النهرُ عذباً،
لا تسألْ عن الينابيع ...
***
إن رأيتُ وجهكَ
على صفحةِ ماءِ النهرِ ..،
لا يعني أنّك نرسيس ..
زوالُ الوجوهِ عادةُ المرايا،
وها أنتَ تتمرأى في الظلام! ...

معاً تحت جدارية فائق حسن

نصير الشيخ

يقولُ: صباحاً لدجلةَ،
أقول: صباحاً عراقْ
معاً نحثُ الخطى عابرينَ الجسورَ الى
المنتهى.
فنرى صبحَ بغداد مغتسلاً بالندى.
وسياجَ حدائِقها مفعماً خضرةً،
متخماً بالوردِ..
في الرصافةِ منشورنا السُري،
بساحات بغدادَ يعلنُ أنباءهُ.
رواقاتها..تشتتُ منا المخاوفَ
نقفُ الآنَ.. أنتَ،، أنا
ستون عاماً مشتها خـُطانا/ عبرنا الجسورَ/ ومرسى الزوارقِ/
كنا معاً..أغنيةَ الحالمينَ،
عراقاً يكللنا من جديدْ.
تقولُ وانتَ على الجسرْ:
((تمضي المياهُ، والنخلُ يمضي، وتمضي الحياة))
نركنُ دهشتنا/ خطوُها يهبُ الجسرَ أجنحةً/
بعباءتها غنجٌ/ نراها/ نعدُّ خطاها/
كما الريحُ عند المساءِ مهادنةٌ أرواحنا/
بكلِّ اعتدال "التبغددِ" رائيةً،
((نحو السماء العريضة))..!!
((تطيرُ الحماماتُ في ساحةِ الطيرانِ)) نحدقُ فيها/ ترفرفُ نحو السلامِ/
أكادُ أجسُ وجيفاً لها / وتمسدُ كفكَ ريشاً مزدهياً بالبياضِ/
((البنادقُ تتبعها)) تطيرُ
((تريدُ جداراً لها أو شجراً للهديلِ القديمِ)) ...

غبشاً تعاودُ تحليقها / وترمقُ فوهةً للمصيرِ/
الجداريةُ تصحو/ نشيداً بطولياً وسعَ البلادْ
للحمائمِ دهشتها /
دمعةً تستدينُ الشواطئَ والأرصفةْ
لدِماها / سماءٌ ونجمٌ وتدويرةُ الأرغفةْ
يقولُ: أتلك بلادي؟؟
خُطانا تهدهدُ مخاوفنا /
رصاصٌ قريبٌ بعيدْ/
تغسلُ دهشتنا ((دموعٌ تضحكُ الشمسَ فيها))
.. نطلُ معاً في انحسارِ الدروبِ/
((وفي ساحةِ الطيرانِ)) الحماماتُ مذبوحةٌ،
ودمٌ أسودٌ....ودمٌ أحمرٌ..
ودمٌ كابتهالِ الحرفِ قبيلَ الصلاةِ/
على جدرانِ الكنيسةِ..!!
((تباركتَ ياوطني)) ...وبكَ أستعينُ
سيولدُ من جرحكَ النافرِ الآنَ((زهرُ القتيلْ))
ويصهلُ حدّ التخومِ حصانُ ''جواد ''...
وثانيةً...وثالثةً..
تطيرُ الحماماتُ في ساحةِ الطيرانِ،
سلاماً، بلادَ الندى
وسلاماً، ((لسعفِ النخيلِ وللسنبلِ الرطبِ)) ...!!

• هذا النص الشعري، هو تناصات مع قصيدتين للشاعر العراقي الكبير ''سعدي يوسف'' من ديوانه الشعري ''تحت جدارية فائق حسن'' ــ دار الفارابي / ط1 1974
ــ قصيدة ''خاطرة غير متشجنة '' ص 23.
ــ قصيدة ''للجبهة / تحت جدارية فائق حسن'' ص61.

قصص قصيرة جداً

حنون مجيد

صياد

يبرم عجينته على طرفِ خيطٍ منزوع الشوكة،
ويلقيه في البحر.
يعود دون الصيّادين بلا عجينة ولا صيْد.
في المقابل يأتي لزوجته بكيس من الحصى؛
تصنع منها قلائدَ وتبيع.

من أجل فصاحة لسانه

يمشي ويهذر ويهشّ بعصاه ذات اليمين وذات الشمال.
يعدّه الناس شريراً، فيتجنبه الكبار ويتحيّنه الصغار؛
يناكدونه ويتابعون مسيره،
حتى يغيب في منعطف الطريق.
في لحظة ولم يكن تنبّه لكلامه وهو ينطق السين ثاءً،
واللعاب يسيل خارج فمه بلا مصدّات،
يهبّ طفلٌ شجاع؛
عمّو.. عمّو.. محتملاً لسع عصاه،
ليمسك بيده ويرجع به حيث نقطةٌ من الأرض.
هناك ينحني ويعود يسلّمه طقم أسنانه،
على وقع لسعات من عصاه،
مرّة أخرى.

قرار يغسله المطر

حسبتْ هذا آخر شيء تفعله،
حينما تحدّت غزارةَ المطر وعصفَ الريح،

وخرجت تدسّ في صندوق بريده،
رسالتها التي أعربت فيها عن رغبتها عنه.
بعد يوم والمطر ما يزال يهطل،
قصد بيتها.
هناك اعتذر لها أنّ رسالتها كانت مبلّلة بالمطر،
فتعذّرت قراءةُ حروفها،
وأنه يقدّر شجاعتها على تأكيد حبها في ظرف ممطر كهذا.
كذلك يشكرها على كوب الشاي الدافىء الذي أعدته له،
بخفّة مشهودة ريثما ينتهي مطر،
ظل ماثلاً حتى يوم بعيد.

نوافذ الزجاج

تقف خلف لوح زجاج، تنظر إلى روّاد المطعم،

يأكلون ويشربون،
ويتركون ما فضل منهم على الموائد والطاولات.
حمامة زرقاء نظراتها جائعة سود،
لا أحد يقدر على إطعامها،
ولا هي قادرة على النفاذ إلى هناك،
سامح الله نوافذ الزجاج!

فعل الخير

تعاتب الشعرةُ العجينةَ؛
ما لكِ لا تقاومين انسلالك مني،
حتى صرنا مثلاً للرخاوة بين الناس؟
تردّ الشعرةُ؛
لأنّ وراء ذلك فعل الخير.

مريم

تذهب مريم إلى دائرتها وتعود تغنّي،
وتحمد الله على أنّ جمالها لم يعكّر حياتها يوماً،
لكنها تفكّر دوماً بزوجها الضابط الوسيم على خطوط النار.
تلك اللحظات مسّ قلبَها كدرٌ قطعت على إثره أغانيها،
ورمت حقيبتها على ظهرها.
لم تلتفت طويلاً إلى جنود يطوقون في عربة صفراء،
تابوتاً بلون التراب.
عندما وصلت إلى دائرتها عنّ لها أن تعود إلى بيتها،
على نداء خفي غير مريح.
هناك بين ظنونها وارتجاف جسدها،
وجدت الجنود أنفسهم يطرقون باب بيتها.
لم تصدّق مريم حقيقتهم وتتركهم على حالهم؛
يطرقون.. ويطرقون.

حال الدنيا

في المقبرة امتدّت له يدٌ صافحها،
وأعجبه أن يسأل صاحبها؛
كيف حالها يا والد؟
جاءه الجواب حارّاً:
لا أحلى من حال دنياكم يا ولد.

حية البوا

تقص علينا قصّتُنا القصيرةُ جداً،
قصتَها التالية:
تقتنص حيّة البوّا،
صيدها الذي غالباً ما يكون أضخم منها بكثير،
وتسبت ستة أشهر تهضم فيه،
حتى تأتي عليه.
تسكت لحظة قصيرة جداً وتضيف:
هكذا نحن غالباً في هذا المجال.

في الحانة

يجلسان متقابلين والحانة الصغيرة شبه خالية.
يأكلان في صحن واحد،
ويقتسمان الشرب من زجاجة واحدة.
يتكلم الأكبر بلا انقطاع،
وينصت الآخر بلا ملل.
جسد الأول ثابت في مكانه،
بينما جسد الثاني يهتزّ على اهتزاز ساقيه.
الكبير يُشبه المعلّم والصغير يُشبه التلميذ.
عينا المعلم تائهتان في مدى خارج الجدران،
عينا التلميذ غائصتان في وجه المعلم،
تتشربان كلامه.
كان المعلم أنا..
والتلميذ لا أعلمه.

كاسر الأمواج

يستوقف نظرنا خطّ صخريّ على هيئة قوسٍ

مفتوح الطرفين،
أقيم على البحر لا تفصله عن الساحل غير مئات الأمتار،
تنفذ منه وتعود إليه سفن سياحية مكتظّة الركاب.
سألتُ وما يزال نظرها منصبّاً هناك:
ما هذا؟
قلت:
هو ما يدعى بكاسر الأمواج.
وماذا يعني كاسر الأمواج هذا؟
هو حاجز كما ترين؛
يصدّ عتوّ الموج نحو الساحل لئلا يحطّم ما عليه.
كانت تنظر إلى الموج الهادر ياتي مجنوناً من أعماق البحر البعيدة،
ثم يغدو مسالماً أخّاذاً بعد أن يمتصّ غلواءه كاسر الأمواج هذا.
آه.. لقد فهمت.
وتضع عينيها في عينيّ تكسران موجي على سواحلها،
وتضيف:
حقاً.. عمل من هذا القبيل شيء عظيم.

أمزجة الأماكن المتباعدة

كانا يزحفان أحدهما نحو الآخر،
عبر المسافة الفاصلة بين بلديهما البارد والحار.
عندما وصلا نقطة اللقاء،
فاجأته بالكِمامة السوداء تغطي وجهها،
وفاجأها بوجهه المكشوف دونما كِمامة ما.
كانت المسافة الجديدة بينهما،
المسافة عينها بين اللهيب هنا،
والثلج هناك.

إدراك

يُلقي بذوره على أرض حديقته كل صباح.
تهطل عليها طيور لا عدّ لها،
فيسعد بذلك ويعود يتناول إفطاره برخاء.
ولكي يعزز سعادته يتابع طيوره هذه،
فيلفي أنها طارت تاركة خلفها،
بعض نثار لم يلتقطه منقار.
يدرك أنّ الطيور شبعت فتركت ما تركت،
ويدرك كذلك أن ليس ثمّة من طائر،
مات بتخمة يوماً ما.

هباء.. هباء

يسرّه مرأى مواطنين وأغراب،
يتخاطفون أمامه من وراء زجاج صالة الفندق الكبير.
كان يخطر على باله المتوهّج لحظته،
أن يسمع أحاديثهم ويعرف هوياتهم،
وإلى أين هم غادون ورائحون.
كانوا في خياله مثل سفن بعيدة،
تمخر العباب من دون أن يسمع صوتاً من ركابها،
وماذا يشغلهم الآن.
في لحظة تالية وقبل أن ينهض،
سكن في نظره كل شيء،
فلا بشر خارج الصالة أو حتى داخلها،
ولا سفن في البحر،
ولا أحد من الواقفين على رأسه الآن،
يحزن عليه ويقول:
ليرحمْه الله!

الإذن بالموسيقى

في صالة الفندق ذي الخمس نجوم،
وكانا وحيدين ابتسم لها موافقاً،
وهي تستأذنه بالعزف على أكورديون

صغير،
معلّق على صدرها.
عندما بدأت تعزف تبيّنت له بيضاءَ جميلة،
ذات عينين خضراوين وشعر أصفر كالحرير،
ولها القدرة على التحليق.
كان هو رائقاً متشوّقاً للموسيقى هذه المرّة،
لذا كان سعيدا بجمالها وموسيقاها،
وبمطر يهطل فجأة يولّد إحساساً شديداً بالبرد،
وبالرغبة الحارة إلى شريك.

صبية الغار

كانوا يجهلون عددهم إذ لم يسألوا أنفسهم،
ولم يسألهم أحد عن ذلك.
يجوبون الأسواق ويطرقون الجبال والبراري،
وكلّ ذلك في لهو صبْيانيّ بريء.
قد يقفون على حلاوة حَلواني،
أو فاكهة فاكهاني،
وقد يشترون وقد لا يشترون؛
قمصانهم قصيرة الأكمام،
وسراويلهم مأكولة النهايات.
ويوم شعروا بشدّة القيظ،
ظهروا إلى جبل ونفذوا إلى غار فيه،
يقضّون ظهيرتهم خلوداً إلى الراحة،
أو خلوداً إلى النوم.
عندما استيقظوا في الصباح،
وجدوا عند فتحة الغار جمعاً من ذئاب،
لا يعرفون عددها تتربّصهم فعادوا للنوم.
بعد بحث طويل دام عدداً من السنين،
عثر الناس على هياكل ذئاب ستة عند فتحة الغار،
وهياكل صبْية ستة داخله،
أولاء ماتوا من جوع،
وأولاء ماتوا من خوف.

طغاة

في خاطر مرٍّ توالت على عينيه ألوفٌ من صورهم،
وعلى مدى ساعات كانت تكدّر نفسه ولم تنقطع لحظة.
هنا بصق عليها جميعاً وارتكن إلى شاطئ نهر؛
يطفئ حرَّ جسده.
الله ما أكثر طغاة هذا الكون!

الخؤون

كان من أجمل ما في حياتي،
ورديف سيجارة "كنتْ" بمذاقها الرائق الأخاذ.
الآن وبعد عقود من صحبة لصيقة صار عدوّاً،
يرهق قلبي ويهبط به إلى قرار سحيق.
الله كم هو ماكر وخؤون،
هذا الساحر الذي كان الألذّ،
الذي اسمه الشاي!

طفلة غزّة

بائع الشاي الصغير يقتعد عتبة دكان مغلق.
نظره مرسل إلى شيء بعيد،
وإلى جانبه ترمس شاي وأقداح.
تطفلّتُ عليه:
تبدو حزيناً حبيبي.
قال؛ لا.. ضايج.
ألم تبع جيداً هذا اليوم؟
مدّ يده إلى جيبه وأخرج هاتفه وأراني صورتها؛
في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها؛
نظرتها جامدة وعلى وجهها نغزة ألم،
يحيط بها ركام من حجر!

اختراق عزلة

قرر أن يعتزل في خيمة على مشارف صحراء،
مغتذياً بما تجود به السماء من طير،
وما تهبه الأرض من نبت.
في لحظة لم يحسب لها أيّ حساب،
فتح عينيه ليجد امرأة نصبت خيمتها ليس بعيداً منه،
واعتكفت فيها.
يومًا بعد يوم كانت رغبات متبادلة تنمو بين الإثنين،
للزيارة وتبادل الآراء وحلاوة الصيد في الصحراء،
ما كان يهدد في الوقت عينه،
الحالة الهانئة التي كانت مبتغاه.
بعد عذاب دام وتصبّر عنيف،
أدار وجه خيمَته إلى جهة مغايرة،
مفضلاً وحدته الخالدة على شراكة،
قد لا تلبث سوى أيامٍ وتموت.
بيد أنه وقد عاد خائباً من طلعة صيد،
شاهد الخيمة المجاورة هامدة،
والمرأة الجارة تزيح ستارة خيمته،
تستقبله بترحاب وتقول؛
لا تثريب عليك حبيبي..
لقد أعددتُ لنا طعام العشاء..

في انتظار صمت البحر

لأنه مسحور بالبحر، كان يديم الجلوس على ساحله،
يراقب تجلياته ويسعده كذلك مرأى عصافيره الرمادية،
تلتقط ما يقذف به مدّه المتعاقب من أشنات وكائنات حيّة صغيرة.
يراقب المارّةُ اهتزاز جسده في تردد متناوب،
حتى تحين لحظة يلقي فيها بنفسه في اللجّة الهادرة.
كان من مراده أن يمكث هناك حتى يصمت البحر.
وما كان للبحر تلك الليلة من صمت.
كان يغني ووحوشه تحتفل وترقص،
وبين آن وآن كانت تخترق أمواجَه الموّارة نحو السطح،
نقطٌ من دمٍ قانٍ، وشظايا من لحمٍ حارّ.

أعطال في حاسة الشمّ

بعد سنة من حادثة تهشيمه زجاجات عطوره،
يطرق بابه رجل غريب،
يتزود منه شيئاً من طعام فالمدينة في صوم.
يسأله عن سر هذا العطر المتفشي في حديقته،
وينتشر في عموم الزقاق. قال؛
إنه كان يجمع في صندوقه مختلف العطور؛
يتعطر بها صباح مساء،
لكن لا أحد من الناس استطاب له عطره،
وسأله من أين لك هذا العطر الزكي،
أو من أيّ عطار اشتريته.
لما تكاثف صمت الناس خُذِل في ذوقه،
وشكّ في حقيقة عطوره،
فجمعها في حديقته وهشّمها جميعًا ودفنها هناك،
فكان من وراء ذلك،
هذا الذي ظل مرابطاً في ورودها منذ ذلك اليوم،
وتشمّه الآن دون غيرك!

والحدود .... مطار
بين لغة تتحرش بخاصرة السماء، فينفرط منها عقد نجيمات

قيس الزبيدي

آهٍ !.. مـا أَجمَلَ الحُلُـمَ !..
آهٍ!.. كَـمْ تَعِبنـا مـن المنـافـي
والقِفـارِ والجبـال ..
بالكتابةَ أُحاول تضميد جراحاتٍ تناسلت بداخلي ،
دون شكوى أو استفاضة بالشَجَن ..
فنحنُ أَخطاءُ "آبائنا "، نبحثُ عن صوابنا ..!!

يحيى علوان

نحن الذين لسنا فرسان الإيمان ، مثل إبراهيم ، ولا الانسان الأعلى ،
الذي يتحدث عنه نيتشة ، لا يتبقى لنا ، إلا مراوغة اللغة وخيانتها.
وهذا التلافي والهروب العجيبة التي تسمح بادراك
اللغة خارج سلطتها، في عظمة ثورة دائمة للغة، هذا هو ما أطلق عليه أدبا.
، هذه الخديعة

رولان بارت

غايتنا هي تقديم خطوات منهجية لدراسة نص" مطارد بين... والحدو" للكاتب يحيى علوان انطلاقا من كون النقد كما تعرفه " دائرة المعارف البريطانية " على انه المناقشة المنطقية والمنظمة للعمل الفني وتفسيره وتقويمه".

تحدد تعريف النص، حسب كاتي ويلز، سبعة معايير وضعها مع دي بوجراند في كتابهما (معجم علم الأسلوب: مقدمة في لغويات النص) وهي التماسك الداخلي والاتساق والتقبل ومراعاة الأحداث والإخبار والتناص. كما إن تّحليل النص يعني فصلَ مكوّنات النّص عن بعضها ودراسة أجزائهِ. إضافة إلى تقويم الوسائل التي استخدمها المُؤلّف يحيى علوان لإنجاز نصّه الأدبيّ.

يعتقد المؤلف بأن النص ليس:

• كتابةٌ أدبيةٌ، فيها هَمسٌ وبَوْحٌ موجوعٌ، حتى وهي تصرَخُ أحياناً !.. نصوصٌ مُؤثثة بلغةٍ غير مُستهلكة، لا علاقة لها بلغة الفاست فود الثقافي!... Food Food الذي يملأُ سوقَ الكتاب " نصوصٌ تشتغلُ على اللغة ، تَتَجرَّأُ على التابوهات، وأولها التابو السياسي/ الحزبي، الذي كانَ مُهاباً .. فيها مُساءلةٌ لتلك التابوهات عن شرعيتها إزاءَ حريةٍ جرى اكتسابها بمَشَقَّة!.. (...) ونحوِّلَها إلى مِلكٍ لنا، وليسَ لـ" المرجعية "!.. إلى معنىً جديدٍ مُيسَّرٍ لحياتنا، كي نتعرَّفَ على ذواتنا لِنُدرِكَ كمْ تغَيّرنا، كيفَ.. وإلى أينَ نحنُ سائرون !.." يفسر رولان بارت العمليات الدلالية التي تُنْعَت عادة بلفظي التعيين
DENOTATION بالمعنى المباشر الحرفي

ويعني في الأدب عادة استعمال دلالة اللغة بطريقة تدل بها على ما تقوله والتضمين. CONNOTATION بالمعنى الثاني الإيحائي. ويعني في الأدب عادة استعمال دلالة اللغة بطريقة تدل بها على غير ما تقوله. ويحدث التضمين عندما تصبح نفس العلامة، الناتجة عن علاقة بين الدال والمدلول، دالا على مدلول جديد، أي المعنى الثاني الإيحائي. وتعيد تقنية الإبداع خلق عملية الحياة مشروطة فقط بتلك الظروف الخاصة التي يتطلبها فن الأدب . فللأدب قواعد وتقاليد نشأت خلال ممارسته الإبداعية، قادت إلى طريقتين في التعبير عن دلالة الصورة الأدبية :

• واحدة، توظّف دوالّها وفقاً لطريقة ''التعيين''
• وثانية، توظّف دوالها وفقاً لطريقة ''التضمين''

ويبين نص ''مطارد'' كيف يجمع المؤلف بين التعيين والتضمين في تركيب مميز ويوظف أسلوبا سرديا متنوعاً، لدرجة لا يعود فيها حتى الناقد العارف يميز بين التعيين أو التضمين، لأن الاثنين يصوغان شعرية مبتكرة تبدو كما يقول جون ليفنجستون لويس'' أعط كوليردج كلمة واحدة مفعمة بالحيوية من حكايات قديمة ، ودعه يمزجها بكلمتين في ذهنه مترجما'' المصطلحات الموسيقية'' إلى مصطلحات لكلمات من ثلاثة أصوات، فانه لن يصوغ صوتا رابعا وإنما سيصوغ نجماً! ''

وكما يعتقد المؤلف فأن نصه بمثابة نصوص مفتوحة:

• ''لا هي رواية ولا قصة ولا هي نصٌّ علميٌّ ... أي لا مكانَ فيه للاستدلال والبَرهنة أو التوثيق ... إنما هي نصوص أدبية تَعرض لـجانبٍ فقط من تجربةً شخصية، لا تنفي غيرها. ... ''

ومع إن عملية السرد في أي نص، مهما كان جنسه أو نوعه، تنتج في الغالب من حصيلة جدلية للطريقتين، أي حصيلة تركيب فني مما هو شعريٌّ ومما هو نثريٌّ أو العكس، لكن تبدو لنا إن عملية التركيب بين عناصر السرد الشعري وعناصر السرد النثري في نص'' مطارد بين... والحدود '' مركبة من نوعية خاصة، مميزة وفريدة.

وإذا ما عدنا الى الوظيفة الشعرية كما عرفها رومان جاكبسون فيمكن ان نفهم أن البعد التعبيري في النص يهيمن عليه التضمين وبالتالي يتأسس على وظيفة شعرية، تهدف إلى إرسال رسالة كما لو أنها بمثابة غاية لذاتها. وكما لو إن ذات متلقي الرسالة هو في الغالب ذات من يرسلها.

يحضر المرسل في هذه النصوص، بقوة، بحيث لا يكون فقط ضمير المفرد بالضرورة. بل يؤلف ما يسميه المؤلف مركزية ''السارد''... في نص يجري فيه التعبير عن ''الكل'' في لغة نص...نص ''قاموسٍ شخصي ''ينحت في اللغة، ولا يوجد إلا في اللغة، ويظل مقصورا من إلفه إلى يائه على اللغة وحدها، فهو ليس سوى لغة ذات:

• لُغَةٌ تعتمدُ أدواتٍ وأشكالاً تعبيرية أقلُّ '' انضباطا ''من الأشكال المألوفة، التي لا تنسجمُ مع حُرقَةِ التجربة الشخصية المُعاشة ! وبالتالي فهي كتابةٌ ليست هاربةً من التفاصيلِ والصراع، لا تُولِّدُ معنىً جديداً.. يَحتملُ أَنْ يُفضي إلى الانعتاق ... بل هي كتابةٌ عن تجربةٍ ساخنة، لا تعتمد ''الأذنَ''– دونَ إذلالها! – بل''العين'' الرائية ، إلى جانب عينٍ داخليةٍ ، تُنظّمُ ما ترى وتُحوِّلُ ''المحسوسَ'' إلى ''معقول'' مصدراً أساسياً للكتابة . فقد دخلَ '' الجسَدُ '' في الصراع وتعرّضَ إلى

ما تَعرَّض، وجرى اكتساب وعي آخر.. كَسرَ القوالب اللغويةَ الجامدةَ والمُحنَّطةً، التي تُراوغُ عن المساءلةِ، و"تتَعفَّفُ"! عن تسميةِ الأسماءِ بأسمائها.. تستعيض عنها بالتعميم والمُداوَرَةِ، والكلام، الذي لا يقول شيئاً مُحدَّداً ولا يتناولُ أوضاعاً محدَّدَةً بعينها في زمانٍ بعينه ومكانٍ موصوفٍ بعينه ... قوالبَ لغويةً عمومية، لا تُناقِش أو تُحاور، لا تنتفضُ على " التابو"، وبذلك لا تُغادرُ "المرجعيةَ" المَصونة، التي لا "تستعمرُ" الخبرةَ حسب، بل حتى اللغة.. وتحتكرها لنفسها فقط !!"

إنّ تحليل النص إلى وحدات مستقلة متساوية القيمة أو تسلسلها المنطقي في مركبات – حسب يوري لوتمان - يقدمان المعايير التي تسمح باستخلاص المستويات الملموسة لبناء النص. فبعد القيام بتقطيع النص إلى وحدات قرائية متجاورة متفاوتة الحجوم أو الأحجام، يتحول فيها النثري إلى شعري، ويعيد سرد الأحداث الواقعية أصلاً، بحيث تتحول إلى أحداث يردها خيال فني هاجسه النحت في أسلوبية شعرية، تكاد تكون مهيمنة في كلية النص. وعلينا، كما يتطلب النص، أن نحاول تبيان كيف تُشكل وحداته المستقلة أسلوبه التعبيري: بحيث يتطلب تأويله استنباط القواعد التي تحكم تآلف وتنظيم تياراته السردية، انطلاقاً من أن النص يشكل وحدة كلية مترابطة الأجزاء، جمله تتبع بعضها بعضا، وفقا لنظام سديد، بحيث تسهم كل جملة في فهم الجملة التي تليها فهما معقولا، كما تسهم الجملة التالية في فهم الجمل السابقة بشكل أفضل. وهذا يبين ان الجملة ليست وحدها التركيب الذي يحدد المعنى، إنما يتحدد المعنى أيضا من خلال النص الكلي الذي تتضامن أجزاؤه وتتآزر، لأن بنية الكل شيء آخر غير مجموع الأجزاء، فالكيان المنظم يتكون من أجزاء يرتبط ويعتمد بعضها على بعض والقصد ان تشترك جميعها في النَسج، لتصبح العلاقة بين الكل والجزء علاقة مشحونة بالمعاني.

وعلى الرغم من كثرة الأساليب المستخدمة في النصوص الأدبية، يبقى المهم هو دور الكاتب المبدع، الذي يقوم بإعطاء أسلوب الكتابة معنى، وجمالاً من خلال نصه الذي ينسجه عبر اللغة.

تهتم الرؤية السردية باستخراج قواعد داخليّة من الأجناس الأدبية، وتوجيه أبنية النظم واستنباطها أيضاً؛ بالإضافة إلى تحديد كافّة السمات والخصائص التي تتسم بها الأعمال الأدبيّة. كما هو متداول فإن هناك أشكالاً ثلاثة مستقلة للسرد، هي:

أولاً: نوع سردي متسلسل، يقوم في الأساس على نظام خطي واضح وواقع ضمن تصور للزمن، يعتمد السارد فيه على التدرج في وقوع الأحداث فيقوم بسرد الحدث الأول ثم الحدث الثاني والثالث، وهكذا حتى نهاية الأحداث.

ثانياً: نوع سردي تناوبي، يحكى بواسطته عدد اً من القصص المتناوبة فتبدأ قصة، وتتلوها أخرى، ثم تعود القصة الأولى، ومن ثم العودة إلى القصة الثانية مرة أخرى.

ثالثا: نوع سردي يقوم في الأساس على مخالفة التسلسل المنطقي، والخاص بوقوع الأحداث، ويعتمد على تقنيات كتابية متعددة مثال الحذف، والتلخيص، والاسترجاع، والوصف...

يستخدم النص هذه الأشكال السردية الثلاثة، بشكل متداخل غير مألوف ومبتكر.

وينطلق المؤلف من ماذا حدث حقا في الواقع؟ وكيف يسرد تلك الأحداث في النص؟

تسرد الأحداث في النص في الزمن الحاضر خطيا، لتتولد منها حكايات، يطلق عليها

تودوروف" توالد الحكايات" وهي ظاهرة سردية خالصة ميزت" ألف ليلة وليلة "، وشكلت سرديا حالة خاصة من الترابط في نص "مطارد"، ففي كل مرة تظهر شخصية في رحلة السارد تتوالد فيها تجربته في حكاية جديدة ، كذلك يأتي سرد أحداث من الماضي – استرجاع : فلاش باك- أي عودة للماضي، مع تعقيبات حوارية مباشرة للسارد على شكل تناص ، ففضلا عن الهوامش ، التي يصل عددها الى (68) هامش والى 4402 كلمة تَتغذّى كتابتها من مخزونٍ المؤلف ، الثقافي والفكري ، مما يعمق التناص ويضيف لمتنه معلومات ضرورية عن المكان والأشخاص والأساطير والتنظيمات السياسية و: سيجد القاري - حسب قول المؤلف - في المتن تعابيرَ وإحالاتٍ إلى أشخاص وكتّاب من مختلف القارات، والأزمنة وضعتها بين قويسات، توخياً للدقّة ، وما تستلزمه الأمانة.

فبعض الأسماء، مثلا ترد بصيغة " أبو فُلان.." ليس تصنُّعاً، إنما لأنني أجهل أسماءهم الحقيقية فعلاً. فحيثما كان متوفراً لي معرفته وضعته بين قوسين !..

أمثلة:

• نَتَذكَّرُ أَيامَ غُربَتِنا هناك، يومَ كُنَّا نرقُصُ فوقَ الحقائب ساخِرينَ من سيرةِ المنفى، ومن بلادٍ سوفَ يهجُرُها الحنين...

نُردِّدُ معَ بريشت:

" لا تَدُقَّ مِسماراً في الحائط،
إرم مِعطَفكَ على الكرسي،
فأنتَ عائدٌ غداً!.. "

أو في الهوامش:

قولٌ للجواهري الكبير: " لو في يدي لَحَبَستُ الغيثَ عن وطنٍ مستسلمٍ وقطعتُ السلسلَ الجاري.. بيعَ الدراهم باعوا واشتروا وطني فكلُّ عشرةِ أميالٍ بدينارِ"

أو:

كانط" يُمكنُ لنارِ جهنمَ أن تحرق كلَّ شيءٍ فيكَ، إلاّ ذكرياتِكَ وأمنياتِكَ، التي لم تَتَحَقَّقْ !.. "

ومع إن النص - حسب بارت - نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافة متعددة، لكنه يرى أن أي كاتب، يتمتع بالقدرة على اختيار العناصر التي يؤلف فيما بينها. أي إنه يؤلف فيما بين اقتباسات لا يقدمها كذلك ويعرضها دون وضعها بين اقواس.

كيف؟

يقدم الناقد الدكتور صبري الحافظ، بتحوير طفيف، تعريف جوليا كريستيفا التَّنَاصُّ، بأنه" جمل من المعارف التي تجعل من الممكن للنصوص ان تكون ذات معنى وما ان نفكر في معنى النص باعتباره معتمدا على النصوص التي استوعبها وتمثلها، فإننا نستبدل مفهوم تفاعل الذوات بمفهوم التناص". وهو ما يشير إلى علاقة بين نصوص مسبقة ونص جديد، يتداخل معها ويحاورها ويتفاعل معها، وتتقاطع في فضائه أقوال عديدة من نصوص أخرى، مما يجعل بعضها يقوم بتحييد بعضها الآخر ونقضه. ان مثل هذا التصور للنص جعل كريستيفا، تقترح رؤية نقدية جديدة، تؤكد انفتاحية النص الأدبي على عناصر لغوية، وغير لغوية (إشارات ورموز) متجاوزة بذلك التصور البنيوي."

إضافة إلى ذلك فأن التناص هو ايضا مفهوم إجرائي يساهم في تفكيك شفرات النصوص ومرجعيتها وتعالقها بنصوص أخرى. فاني أعود بدوري الى رواية "أرض البشر" التي هي أيضا كنص "مطارد" من فنون السيرة

الذاتية، يروي بها "سانت اكزوبيري "خلال قيادته لطائرة البريد الجوي عبر صحراء شمال أفريقيا، ويستمد من تلك التجربة سيرته الذاتية ويتعرُّف على نفسه من خلال تصرفاته أمام ما يصادفه من تحديات ومخاطر، تصل إلى ذروتها عندما يحكي عن نجاته بأعجوبة بعد تعطل طائرته في الصحراء."

وكأن سانت أكزوبيري يتحدث عن مصيره الشخصي في تلك الصحراء لكنه في رواية (الأمير الصغير) يقول على لسان الامير الصغير "للناس نجوم يختلف بعضها عن البعض الآخر، فمن الناس من يُسافر فتكون النجوم مرشدات له، ومن الناس من لا يرى في النجوم إلا أضواء ضئيلة، ومنهم من يكون عالِماً فتصير النجوم قضايا رياضية يحاول حلها، ومنهم من يحسب النجوم ذهبا، وهذه النجوم على اختلافها تبقى صامتة، أما أنت فتكون لك نجوم لم تكن لأحد من الناس". وهكذا هو أمر مؤلف "مطارد"، فأنه في مراوغته للغة يحاور نجوما بعيدة، لا يصل ضوؤها للناس، لتكون مرشدات له في محطات رحلة الضنى الطويلة، علّها تصيرُ، بلغته الشعرية: نجوماً، تُزيدُ ضوءَ السماء !.

يكرس يحيى علوان 65 صفحة لوصف الصحراء في فصل"حينَ يغدو المُؤمَّلُ كميناً !"

نَسيَ الزمانُ أَنْ يَمُرَّ من هنا، كلُّ شيءٍ بقيَ على حاله.. رَملُ !..

الرملُ هوَ الرملُ.. حيثُ تَتَصحَّرُ اللغةُ، فَتَتَهَدَّلُ، قَحطٌ بَصَريٌّ.. تَتَوَحَّشُ فيه طِباعُ البَشَرِ، يَنِشُّ برائحةِ رِيبةِ الظُلمَةِ ورَعشَةِ القَلَقِ والتَرَقُّبِ..

والرَملُ، فوقَ هذا وذاكَ، يَشحَذُ الحواسَّ كالنِصالِ!

رَملٌ وكثبانٌ بلونِ النحاس، تُزيدُ الشعورَ بلظى الصحراء..

هِيَ بحرٌ نعبره بقاربٍ مكسورٍ، زادُنا بَوصَلَةٌ وجَعٍ،

مأخوذينَ.. نَنْزَعُ عن الكَلِمَ كلَّ حروفِ النَفيِّ..

نفتحُ نوافِذَ الرهبَةِ، نُصغي لِهَمسِ العواصفِ الملعونَةِ، نَتدثَّرُ بأعاصيرِ السؤال..

ونلتحِفُ بجبالَ الرعد.. (...) لا صوتَ في الصحراء، ولا صريرَ.. سوى ثَرثرَةُ ريحٍ تَلثَغُ، فَتُصفِرُ في صِوانِ الأُذنِ.. فالريحُ عباءةٌ، لا أحد يرى أَلَمَكَ وسط هذا الرمل/ العذاب، حتى الصدى التهمه الرملُ. صمتٌ يُصِرُّ الآذانَ، تروحُ معه تسمعُ أَنفاسكَ فتفقدُ حتى حِسَّ التعاطفِ مع نفسك !.. (...) وحيدٌ أَنا، ولا أَحَدَ يبكي عليَّ إنْ مِتُّ هنا، وبانَ ما استبطنت من أسرارٍ!..

لا حَجَرَ يتخبّى خلفه الحَجَلُ،

تُرى أيّ طائرٍ سيحطُّ فوقَ جثتي إنْ نَفَقْتُ تحتَ هذه الشمس اللئيمة!..

يومَ كُنّا صغاراً، قبلَ أَنْ نَتعلَّمَ فَكَّ الحرف، حينَ لَمْ نكُنْ نعرفُ لُعَبَ الأطفال، كُنّا نتحايَلُ على البنّائينَ، نملأُ الجيوبَ وحُضنَ الدشداشة(الجلّابية) ونَفِرَّ هاربينَ كالشياطين، بما سرَقناه من رملٍ.. فَرحانينَ، نفرشه في الصينية، أو على صفيحةٍ معدنيةٍ، نصنعُ منه تشكيلاتٍ من بناتِ خيالاتِ الطفولة.. ولَمّا نَملّ منها، لا نلبثُ أَنْ نُطيحَ بها، قبلَ أنْ تُغنّي السيدة فيروز

": بكتُب اسمك يا حبيبي الحور العتيق..،

بتكتُب اسمي يا حبيبي عا رملِ الطريق.."

وينتهي فصل الصحراء بحوارٍ مع أحد المُهربين، يقول فيها:

فهذه الصحراءُ كبيرةٌ لا تَحُدها إلاّ رحمَةُ الباري عَزَّ وجَلْ.. قد يحاولُ البعضُ، طَلَباً

للرزقِ، اجتيازها بمفرده أو بوسائطَ، لا تَنفَعُ في هذا المكان من أرض الله.. سيموت ولا يجدُ مَنْ يواريه التُرابَ.. ويكونُ فريسَةً سهلةً للضواري، فتَظلُّ روحه هائمَةً في الصحراء.. وهو ما لا يجوز، لأنه حَرامٌ !.. فأنْ خَرَجتْ الروح من الجَسَدِ، لا يبقى منه سوى قشرةٍ يَغزوها الدُودُ والنملُ، بعدَ أنْ تنهشه الضواري والعُقبانُ..

يتم سرد النص في تيارات ثلاثة:

تيار تعبير شعري يجمع في بنيته، عناصر سرد شعرية، تكون طاغية:

• يـومَ صُحبةِ "ماسِ السماءِ" نَحوَ أرضِ آشورَ سَرَيْنَـا،
كان القمرُ وردة من فِضَّة تَتَفَتّحُ على مَهلِها خلفَ الجبل،
حَكيمٌ عند بوّابة آشورَ، أَسَرَّ لَنـا:
" أنصحكم أَنْ تقطعوا أوردةَ الزمـان عن شُجيراتِ أعماركم ...
فهذه أرضٌ طاردةٌ لأهلهـا، سَتُبَدِّدُ أَحلامَكم ...
لأنهـا تَتَهيأُ لِمَـا
سيأتيها من هُبوبِ الهَبَـاء، وتَنْصِبُ خيامَـاً للنواحِ وللحنين،
خُـذوا معكم ما يكفي من الذكـرى، زُوّادَةً، تحتاجونها عمّا قريبٍ
في القحطِ الزاحِفِ عليها ..! (...) لَمْ يبقَ أمامنا، غيرَ أَنْ نُلَمِلِمُ ذؤآباتِ طيوفِنا، نُرمِّمُ المرايـا، مُكسَّرَةً، بعجينة الـ" خيّاط فرفوري"
حتى لا ننسى مَنْ نحنُ، وكيف كُنّا..
عزاءٌ يتيمٌ .. حيثُ لا مرسـىً في خَبَلِ العاصفة !..

تيار تعبير نثري يجمع في بنيته، عناصر سرد نثرية، غالباً ما تكون مهيمنة، إلى جانب عناصر سرد شعرية مُكملة.

• قبـلَ أنْ نصلَ طهـران بحوالي ساعةٍ ونصفِ الساعة، توقَّفَ الباصُ فجأةً عند حاجز للتفتيش تابع لما يُسمَّونَ بـ "حرّاس الثورة ".. صَعَدَ شابٌّ بوجهٍ ريفيٍّ، كَدَّه التعَبُ والسَهَرُ، بسَحنةٍ خشنةٍ، تحنُّ لكفٍ من المـاء.. راحَ يتفَرَّسُ في وجوه المسافرينَ، ويَتَشرَّبُ سَحناتِهم، أو هكذا درّبوه، يشيرُ بيده إلى رجلٍ طويلٍ يجلِسُ في الصفوفِ الأماميةِ أَنْ يميلَ جانباً لِتَتَسنّى له رؤيةُ مَنْ يجلسُ وراءه !.. يتسارعُ النبضُ، وينطُّ القلبُ مثلَ سنجابٍ مَفزوعٍ.. كأنّي أَحسبُ أَنهـم يبحثـونَ عنّي !.. أَروحُ أَتَحسّسُ الهويةَ المزورةَ وكذلك إجازةَ المقاتِلِ!..
يتخـاذلُ الوقتُ في جَرَيانـه، فَيُزيـدُ من عذابِ لحظـةِ الترقُّبِ، المشنوقَةِ تحتَ خيمةِ الليلِ..

تيار تعبير نثري تقريري مباشر:

• أرجعني ذاك الشعور إلى غرفة في سطوح " فندق الأَعيان" بشارع المتنبي في بغداد، كنتُ استأجرتها بثلاثةِ دنانيرَ ونصف (ما يعادل آنذاك10 $) في الشهر عندما كنتُ أدرسُ في الجامعة، حتى مغادرتي العراق في أواخرِ عام 1969. لم تكن تلكَ الغرفة / القِنْ تَتَسِعُ لأكثر من سرير.. وطاولةٍ صغيرةٍ من الفورميكا، وضعتُ فوقها غراموفون، استعرته، حينها من إبن خالتي، مع ثلاثِ أسطوانات " حلاّق إشبيلية"، "بحيرة البجَع" و"شهرزاد ".. كَبَسَني مسؤوليَ الحزبي، ذاتَ ظهيرةٍ قائظه، لمّا زارني على غيرِ موعدٍ، يحملُ مجموعةً من المنشورات الحزبية السريّة.
انتقدني / قُلْ وبَّخني على "سلوكي البرجوازي الصغير بسماع موسيقى غربية!" حاولتُ حينها إقناعه بأَنَّ الموسيقى غذاءٌ للروح مثل الكتاب.. لم يقتنع، أصرَّ على أَنَّ سلوكي
" برجوازي صغير لا يتماشى مع السلوك الشيوعي .. كذا" يبدو هاجس الحال السردي

في بنية النص كما يقول فال انكلان "تعسا لمن لا شجاعة له على الجمع بين كلمتين لم تقترنا أبدا من قبل". فالسرد ينحت كتابته بلغة للتأمل: لُغةٌ لا تَتَبرَّأُ من الخيال..لغة تتوسَّلُ كل ألوان الكتابة، وتوظف الصورة والإشارة والتلميحَ والرمز وحتى الدُعابة، إلى جانبِ دفقٍ من مَجازٍ وعفوية:

•لا مَنـارةَ، تتَحرَّشُ بِخاصِرةِ السماءِ، فينفرِطُ منها عقدُ نُجيماتٍ

لا مئذنة فوقها يحطُّ لَقلَقٌ، يتدفّأُ بالأَذانِ، ولَمّا يعودُ بعدَ عام، يجهَشُ باكيـاً حنيناً لبقايا عِشٍّ كانَ لـه في زمانٍ رَحَلَ..

أمْ أنه للقلق أعشاشٌ أُخَرٌ في أماكِنَ أخرى..

أمْ أنه يسكنُ خَفقَ جناحِه، يَتوسَّدُ حَجَراً لَمّـا يتعَبُ...؟!

يتناول نص " مطارد بين ... والحدود * "محطات رحلة ضنى للكاتب استمرت لستة شهور بدأت من كردستان العراق إلى غرب إيران ثم إلى طهران ومنها إلى مشهد فالمثلث الحدودي بين إيران وباكستان وأفغانستان، حيث وقع في كمين لحرّاس الثورة، وتمَّ زجه في السجن بكرمان، ليهرب بتدبير رشوة ويتابع مسيره على الأقدام، بركبة معطوبة وعصا، في العبور إلى أفغانستان ... إلى هِراتْ، حيث تم حجزه في بيت تابع للاستخبارات العسكرية الأفغانية وجرى تحريره وبعد أسابيع ليتابع السفر إلى كابُل.. ومن * كابُل إلى ألما آتا (كازاخستان) وموسكو، اخيرا إلى برلين الشرقية / مقر إقامة عائلته.

ستنتهي، إذن، رحلة الضنى في موسكو أخيراً: وسيحلّ موعد السفر !..

أتيتُ من تيـه، لأدخلَ في تيـه !..

ودَّعتُ أبا مخلص " الرفيق عبد الرزاق الصافي عضو المكتب السياسي.. ولمّا لاحظ ما كان يعتريني من قلق، قال: روح، وشوف !..

خلّيك مفتوح على كل الاحتمالات !.. المهم، تشوف بنتك أولاً.. والبقيّة إلها حَلاّل !.."

أُغادرُ موسكو إلى برلين متوفِّزاً.. دون فرح، كنتُ أرعاه في الجبل.!..

هوامش

(1) رولان بارت ، درس السيمولوجيا ، ترجمة، بنعبد العالي ، دار توبقال للنشر 1980

(2) صبري حافظ ، أفق الخطاب النقدي دار شرقيات للنشر والتوزيع القاهرة 1996

(3) حميد لحمداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدب المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1991م، الدار البيضاء

(4) يوري لوتمان: مقدمة في السيميائية ، ترجمة نبيل الدبس، مراجعة قيس الزبيدي/الفن السابع/ المؤسسة العامة للسينما دمشق. 2001

(5) رولان بارت ، السلطة واللغة ترجمة :عبد السلام بنعبد العالي أنفاس/غشت 30 آب2007

(6) كاتي وايلز ، معجم الأسلوبيات المؤلف، ترجمة: خالد الأشهب ، الناشر: المنظمة

(7) يحيى علوان، « مطارد بين ... والحدود» ، دار الفارابي بيروت 2018

بول اوستر: ابتكار العزلة

اجرى المقابلة: إنج بيرجيت سيكامفيلد
ترجمة : جواد وادي

بول اوستر/ كاتب ومخرج امريكي معاصر اصدر أعمالا روائية أثارت الكثير من الجدل منها: ثلاثية نيويورك، قصر القمر، موسيقى الصدفة، كتاب الأوهام ، حماقات بروكلين ، اختراع العزلة ، في بلاد الأشياء ، رجل في الظلام، مستر فيرتيجو ، ليلة التنبؤ ، رحلات في حجرة الكتابة.

- إنج بيرجيت سيكامفيلد : إن "ثل اثية نيويورك" ربما تكون كتابك الأكثر قراءة على نطاق واسع، بشكل أساسي، على ما أعتقد، لأنه يفتح آفاقًا جديدة من خلال مزيج فريد من الاستكشاف، والقصة الجذابة، والتفكير الذي يميز الكثير من عملك. ينجذب القارئ في الحال إلى عالم الاكتشاف والمراقبة المهووسة ليجد نفسه - أو نفسها - مأخوذًا تمامًا بالألغاز الوجودية والأدبية التي وضعتها أمامنا في ثلاث روايات قصيرة: (الغرفة المغلقة، الأشباح، ومدينة الزجاج)، والتي تشكل الثلاثية. بأن يان كيبرستاد محق تمامًا في وصفه بأنه "بلور ينكسر الضوء فيه إلى ألوان نادرًا ما شوهدت من قبل". ما الذي دفعك لهذه القصص الغريبة؟

- بول اوستر: إنها تأتي من مادة كنت أفكر فيها وأعمل عليها لسنوات عديدة. في دفتر المذكرات الأحمر، أصف المكالمة الهاتفية التي تلقيتها من الشخص الذي أراد التحدث إلى وكالة Pinkerton. فجّرت الرواية الأولى، مدينة الزجاج. لقد أثارتني فكرة الرقم الخاطئ، ولأنها كانت تتعلق بوكالة المباحث، بدا أنه من المحتم أن تحتوي قصتي على عنصر تحري فيها. إنه ليس بأي حال من الأحوال جزءًا مهمًا من القصة، وكان دائمًا مزعجًا بالنسبة لي عندما أسمع هذه الكتب توصف بأنها روايات بوليسية. إنها ليست ذلك على الأقل.

- إ.ب.س: على الإطلاق. حتى لو كرس البطل في كل قصة في وقت ما نفسه للتحقيق، فإن عنصر الكشف هنا يتعلق بالمسائل اللغوية والوجودية بدلاً من القضايا الإجرامية. هل شرعت عمدًا في تجربة نوع المباحث أم أنها كانت مفيدة لك

كشكل؟
ب.أ: لقد كان مفيدًا بالنسبة لي بالطريقة نفسها التي كانت بها روتين القاعة الموسيقية القديمة والفودفيل، مفيدة لبيكيت في كتابه في انتظار جودو. أو الطريقة التي كانت بها الرومانسية مفيدة لسرفانتس في كتابه دون كيشوت. يمكنك أيضًا القول أن الجريمة والعقاب هي قصة بوليسية، على ما أعتقد. فقد استخدم العديد من الروائيين أشكال الخيال الإجرامي للكتابة عن أشياء أخرى. أنا بالكاد أول من يفعل ذلك. لذا، لم أشعر أنني كنت أخطط لتفجير أي شيء. كنت مجرد شخص فضولي.
إ.ب.س: اعتقدت أنك ربما تريد تصوير الكتابة هنا كنوع من الكشف؟
ب.أ: أردت فقط أن أبقى مخلصًا للإلهام الذي دفعته تلك المكالمة الهاتفية. لقد كان تحديًا حددته لنفسي. هناك مصادر ذات أهمية أكبر بكثير لهذا الكتاب. على مستوى فكري بحت، أحدها مستمد من قراءتي المكثفة لجون ميلتون عندما كنت طالبًا جامعيًا. كان لديّ أستاذ لامع، هو إدوارد تايلر، كان يدرس مسارات ميلتون الشهيرة في كولومبيا. لقد غيرت تماما طريقتي في التفكير في الأدب. كنت صغيرًا وقابلاً للتأثر: طالباً في السنة الثانية، منغمساً تمامًا في تأملات اللغة التي تخرج من ميلتون. لقد وسعوا أفكاري عن بابل الجديدة وأطلقوا النظريات المجنونة التي أنسبها إلى هنري دارك في مدينة الزجاج. على المستوى الشخصي، تعتبر مدينة الزجاج كذلك، نوعًا من سيرة ذاتية الظل أو سيرة ذاتية. تخيلت، بطريقة مبالغ فيها، ما كان يمكن أن يحدث لي إذا لم ألتق بسيري (هوستفيد). بمعنى ما، إنه تكريم لها. شعرت حقًا أنها أنقذت حياتي عندما قابلتها.
إ.ب.س: بدونها كدت ان تكون كوين؟
ب.أ: ربما. ربما. من المصادر المهمة الأخرى للإلهام قصص الأطفال الجامحة، والتي انفتحت على جميع الأسئلة حول اللغة التي لطالما اهتممت بها. لقد كتبت الكثير عن هذه القضايا اللغوية عندما كنت أصغر سنًا. لقد تم دمجهم في مشروع سابق كان بطريقة ما مزيجًا من قصر القمر ومدينة الزجاج، كان عملاً ضخماً، أكبر بكثير من أن أتحمله. تأتي العديد من الأفكار في مدينة الزجاج من تلك الكتابات الجنينية، على سبيل المثال، لتكوين رسائل بخطوات شخص يسير في مدينة ما، ومحادثة حول دون كيشوت بشخصية "أوستر". بالمناسبة، إنها قراءة مجنونة تمامًا لدون كيشوت، ويجب أن أصر على أنني كنت أسخر من نفسي. تقريبا كل شيء يقوله "أوستر" هو عكس ما أؤمن به.
إ.ب.س: أستطيع أن أرى ذلك [تضحك]. كما يوصف بأنه شخص غير جدير بالثقة وغير سار.
ب.ا: حسنًا، هذا ليس مزعجًا.
إ.ب.س: لقد "تصرف بشكل سيء طوال الوقت"
ب.إ : نعم. نعم. (يضحك)
إ.ب.س: هناك لحظة قرب نهاية الغرفة المغلقة، حيث يقوم الراوي فجأة بحقن هذا الإعلان المذهل إلى حد ما، هذه القصص الثلاث هي في النهاية القصة نفسها، لكن كل واحدة تمثل مرحلة مختلفة في وعي ما يدور حولها.
هل خططت لهما لتعكس بعضها البعض منذ

البداية؟
ب.أ: كلا. هكذا بدأت، عندما كنت أشتغل في مدينة الزجاج في عام 1981، أدركت أنني كتبت شيئًا مشابهًا قبل حوالي خمس سنوات في مسرحية بعنوان إغماءات، وقمت بإعادة النظر في المسرحية لمعرفة ما إذا كان من الممكن إعادة تشكيلها كقطعة من النثر السردي. لذا، عدت إلى الوراء، لتكييف الأفكار من المواد القديمة، وفي الواقع، أصبحتْ الإغماءات أصل الأشباح. بمجرد أني كنت أكتب المجلد الثاني، علمت أنه يجب أن يكون هناك مجلدا ثالثا. وهكذا، أصبحت ثلاثية.
إ.ب.س: أنت تقول إن الروايات الثلاث هي أبعاد مختلفة للقصة نفسها.
ب.أ: القضية التي تدور حولها جميعًا هي الغموض. الغموض وعدم اليقين. إذا اضطررت إلى اختصارها في عبارة واحدة وهي: "تعلم التعايش مع الغموض". هذا هو جوهر ثلاثية نيويورك. وهذا يفسر لماذا، في النهاية، قام الراوي بإلقاء مخطوطة Fanshawe بعيدًا.
إ.ب.س: لأنها تمثل الآن نهاية ميتة أخرى بالنسبة له؟
كانت كل الكلمات مألوفة بالنسبة لي، ومع ذلك بدت وكأنها قد تم تجميعها معًا بشكل غريب، كما لو كان هدفها النهائي هو إلغاء بعضها البعض. كل جملة تمحو الجملة التي أمامها، كل فقرة جعلت الفقرة التالية مستحيلة.
ب. أ: يتعلق الأمر بعدم اليقين، وحقيقة أنه لا توجد معطيات أبدية في العالم. بطريقة ما، علينا إفساح المجال للأشياء التي لا نفهمها. علينا أن نعيش في غموض. أنا لا أتحدث عن قبول سلبي وهادئ للأشياء، بل عن إدراك أن هناك أشياء لا علينا أن نعرفها.ص
إ.ب.س: هذا ممتع جداً، "التعلم من أجل العيش بغموض"
ب.أ: ربما...
إ.ب.س: افترض أنه اللعب على اعتبارات السارد هنا.
كنت اقاتل من أجل أن اقول وداعاً للأشياء لأمدٍ بعيدٍ الآن، وهذا الكفاح يعد وقائع حقيقية في الوقت ذاته.
اتخذت هذا الكفاح ليكون من أجل الكتابة.
إ.ب.س: حسنًا ، إذا كان هذا الكتاب هو الحيز الذي تم فيه توحيد بعض إنجازاتك الرئيسية المتعلقة بالمعرفة والحقيقة ، فهل يمكننا رؤية ثلاثية نيويورك كواحدة من أهم كتبك ، إن لم تكن أهمها على الاطلاق؟ كما يقول المتابعون والنقاد.
ب. أ: انا لا اعرف. أعتقد أن هناك ميلًا بين الصحفيين لاعتبار العمل الذي يضعك في نظر الجمهور لأول مرة كأفضل عمل لك. خذ مثلا، لو ريد. لا يستطيع مقاومة "المشي على الجانب البري". هذه الأغنية مشهورة جدًا، وبقيت لصيقة له طوال حياته، وسيظل دائمًا معروفًا بفعل ذلك. بغض النظر عن عدد الأفلام التي انجزها بعد ذلك ، وسيظل جودار معروفًا دائمًا بـ Breath-less. هذا صحيح بالنسبة للروائيين. وهذه حقيقة بالنسبة للشعراء. ومع ذلك، فأنا لا أفكر من حيث "الأفضل" أو "الأسوأ". إن صنع الفن لا يشبه في النهاية المنافسات في الألعاب الأولمبية.
إ.ب.س: أنا لا أعد أن ثلاثية نيويورك هي أفضل كتاب لك، ولكن بشكل عام، قد تكون

هذه هي أهم أعمالك.
ب.إ: ربما يكون الأمر الأكثر أهمية بمعنى أنها الأكثر قراءة ودراسة من بين كتبي.
إ.ب.س: لماذا تعتقد بذلك؟
ب.أ: لا أعرف، يبدو أنها فاجأت الكثير من الناس على أنها عمل مبتكر.
إ.ب.س: إنه مبتكر. إلى حد كبير، ولسبب أو لآخر، فإن الجديد فيه يتوافق مع الأفكار التي ظهرت في النظرية الفرنسية وظهرت في المشهد الأدبي حول الوقت الذي نشرت فيه ثلاثية نيويورك.
ب.أ: كما تعرفين، لم أكن متحمسا لأي منها.
إ.ب.س: أعرف. كانت مصادفة غريبة.
ب.أ: لدي شعور أنه مع مرور السنين تضاءلت أهمية النظرية الفرنسية ، سيتوقف الناس عن قراءة كتبي بهذه الطريقة. على الأقل أتمنى أن يفعلوا ذلك.
إ.ب.س: ربما. ومع ذلك، أعتقد أن بعض أعمالك المبكرة ستدرج في التاريخ على أنها ما بعد الحداثة. أظن أنك لست سعيدًا بوضعك في هذه الفئة.
ب.أ: ستكون ثلاثية نيويورك دائمًا مرتبطة باسمي، بغض النظر عن المكان الذي أذهب إليه، وبغض النظر عن عدد الأشياء الأخرى التي أكتبها. لا يمكنني فعل شيء حيال ذلك.
إ.ب.س: هل هو بالضرورة شيء سيء، هل يزعجك ذلك؟
ب.أ: الحقيقة هي أنني لا أعرف حتى ما إذا كنت أعتقد أن ثلاثية نيويورك جيدة جدًا. بالنسبة لي، يبدو الأمر فظًا إلى حد ما. أعتقد أنني أصبحت كاتبًا أفضل. هذه نصوص شبابية تشير إلى نهاية مرحلة معينة من حياتي.
إ.ب.س: ومع ذلك، جربت التقاليد الأدبية، وفتحت إمكانيات جديدة في الخيال، واستكشفت الأفكار. أثارت هذه الكتب المبكرة، وخاصة ثلاثية نيويورك، أسئلة مهمة جدًا حول الحقيقة، حول اللغة، حول الوجود الإنساني. إنها تدفع إلى التفكير في القضايا التي كانت محورية للغاية في النظرية الأدبية المعاصرة.
ب.أ: إنني لا ازعم بأنها كتب ليست فلسفية.
إ.ب.س: إنها أبعد من كونها ابتكار للعزلة، على ما اظن، حتى لو كانت تدعو كذلك الى قدر كبير من التفكير.
ب.أ: في الجزء الثاني من ابتكار العزلة، أستكشف العديد من نفس الأسئلة، ولكن من منظور تاريخي أكثر منه من منظور فلسفي بحت.
إ.ب.س: لقد استحوذت: ابتكار العزلة، وثلاثية نيويورك، على المتلقين في جميع أنحاء العالم. طلابي يحبونها تمامًا. لقد علّمتهم مرة أخرى (ربما للمرة العاشرة) الأسبوع الماضي وبعد المحاضرة جاء إلىّ أحد طلابي وطلب مني أن أقدم لك هذه الرسالة. إنها تقول أن عملك غيّر حياته وهو الآن يريد أن يصبح كاتبًا!
ب: (يضحك) إنني أشفق عليه.
إ.ب.س: لها ذلك التأثير. كان وقتها مرتبكًا. وكان يتنفس بصعوبة، مما اضطره إلى البقاء للتحدث عن تجربته.أ.
ب.أ: هل كانوا خريجين، أم ما زالوا طلابا جامعيين؟
إ.ب.س: حسناً. كانوا في سنتهم الرابعة أو الخامسة. قبل حصولهم على درجة الماجستير مباشرة، كان لديّ العديد من الطلاب لديهم ردود فعل مماثلة على مر

السنين.

ب.أ: حسنا، أنا سعيد جدا بهذا.

إ.ب.س: أعتقد أن الأمر يتعلق بمزيجك الخاص من سرد القصص الساحر والتحدي الفكري، إنه يفتح طرقًا جديدة للتفكير حول كيفية محاولة فهم العالم. إنه يعالج القضايا التي نتعامل معها جميعًا، ربما خاصةً عندما نكون صغارًا. واحدة من أكثر الميزات المدهشة، ليس فقط في عملك المبكر، هي الحقيقة بأن أسئلتك لا تفتح إلا لمزيد من الأسئلة. نادراً ما يتم تقديم الإجابات. أنت مهتم جدًا بعمليات وآليات الكتابة التي تجعلها عارية وتنسج أفكارك عنها في القصص نفسها.

ب.أ: كنت متفاعلا بهذه الأسئلة طيلة حياتي.

إ.ب.س: بالتأكيد، كل الكتّاب يفعلون ذلك.

ب.أ: يشعر معظم الكتّاب بالرضا التام عن النماذج الأدبية التقليدية، ويسعدهم إنتاج أعمال يشعرون أنها جميلة وحقيقية وجيدة. لطالما أردت أن أكتب عنما هو جميل وصحيح وجيد، لكنني مهتم أيضًا بابتكار طرق جديدة لرواية القصص. أردت أن أقلب كل شيء رأساً على عقب. أفترض أنه موقف طموح للغاية وعدم الاكتفاء بالابتكارات، واللعب معها في بعض الأحيان، ثم الكشف عن الصيغ التقليدية وتوسيعها إلى ما هو أبعد من حدودها.

إ.ب.س: بهدف تقديمهم عند تعريتهم او مجرد رؤيتهم لحظة الاكتشاف.

ب.أ: اريد أن أقلب الأمور رأساً على عقب. مثل مهندس معماري يبني منزلاً به جميع أنواع السباكة والأسلاك المكشوفة. إنني مفتون بصناعة الأدب. نعلم جميعًا أنه كتاب، عندما نفتحه، ندرك جميعنا أنه ليس العالم الحقيقي. إنه شيء آخر. إنه اختراع. أعتقد أن هذا هو السبب في أنني وجدت أنه من المثير للاهتمام أن أضع اسمي في المجلد الأول من الثلاثية. تمت طباعة الاسم على الغلاف ومن ثم...

حسنًا، أليس من الغرابة أن يكون لديك الاسم نفسه أيضًا داخل الكتاب - ثم انظر ماذا يحدث؟ كنت ألعب مع الانقسام بين ما أسميه "الذات الكاتبة" و "الذات المجردة". ها أنا ذا، ما زلت جالسًا على الطاولة الحمراء معك، أقوم بإخراج القمامة، وأدفع الضرائب، وأفعل كل ما يفعله الآخرون. هكذا أنا. وفي الوقت ذاته، هناك الكاتب الذي يعيش في عالم آخر تمامًا. أردت بطريقة ما ربط هذين العالمين.

يعد الانتماء الى بلد ما، هو الأساس في الكتابة الإبداعية؟
فهل نعد الذين يكتبون عن بلد عاشوا فيه العديد من السنوات، غرباء لا حق لهم في التعبير عنه والتفاعل معه؟
ان الانتماء الى الإنسانية، هو المصدر الأساس للكتابة.. سواء عشنا في هذا البلد أم تفاعلنا معه هنا.. نعنى بتقديم تجربتين إحداهما في كندا والأخرى في أستراليا، وذلك بهدف التعرف إلى آفاق ثقافية وإبداعية جديدة

محرر (أدب وفن)

إشكالية الانتمـاء في النص الروائـي الكنـدي

د. حسين الساعاتي

على الرغم من النجاح الكبير الذي حققه ادباء كندا من ذوي الاصول غير الأوربية محليا وعالميا، استمرت دائرة التشكيك، وان بدت اقل من ذي قبل، باستهداف هؤلاء الادباء وكتاباتهم. يشكّك بعض النقاد اليوم بان روايات ذوي الاصول غير الاوربية من آسيويين وأفارقه التي غالبا ما تتناول احداثا وقعت خارج كندا لا يمكن ان تحسب كنديـة لأنها ببساطة لا تمت بصلة الى التجربة الوطنية الكندية. ولكن المشككون يشعرون بالحرج حينما تتجـه دفة النقاش الى بعض الاعمال الروائية العالمية والمحلية.

المشككون بكندية كتابات ذوي الاصول غير الأوربية يلوذون بالصمت حيرة حين يدور الحديث عن رواية جوزيف كونراد (قلب الظـلام).

كونراد

تتناول رواية كونراد التي صدرت طبعتها الاولى عام 1899 احداثا وقعت في الكونغو، حين كان ذلك البلد يرزح تحت الاستعمار البلجيكي. ولم يكن كاتبها البولندي في حينه قد أقام في المملكة المتحدة او حصل على الجنسية البريطانية، ومع ذلك لم نسمع احدا يعترض حين اعُتبرت الرواية آنذاك وحتى اللحظة أحد الانجازات المهمة للأدب الانكليزي. وهذا يقودنا الى القول ان الرواية لا تنتمي بالضرورة الى البلد الذي وقعت فيه احداثُها.

تزداد حيرةُ المشككين بانتماء روايات الكنديين من اصول غير اوربية الى الفضاء الوطني حين يكون الحديث عن سجل الرواية الكندية. يتفقُ النقّاد في كندا، على نطاق واسع، ان (تأريخ ايميلي مونتيغ) تـعد الروايـة الاولـى في التـاريـخ الادبـي لـهذا البـلد.

غير أن المدافعيـن عن كنـدية روايـات هؤلاء الكتّـاب يحتجون بالقول ان صاحبة الرواية لم تـكن كنديـة بـل كـانت تحـمل الجنسية الـبريـطانـية وأنها فرانسـس بـروك قَدِمت لكندا لا لرغبتها في الاستقرار في هذا البلد واكتساب جنسيته بل لمرافقة زوجها الذي جاء للعمل في الانشطة الكنسية في ولاية كيبـك. وعلاوة على

ذلك، فأن بقاء بروك في كندا لم يستمر لأكثر من خمس سنوات. يتساءل بعض المعنيين بالشأن الادبي عن ماهية الاعتبارات التي تجعل من كتابات مَن لم يحمل جنسية كندا ولم يلبث فيها الا لبضع سنوات أعمالا كندية في حين تُحجب تلك الهوية عن كتابات أولئك المنحدرين من اصول غير اوربية وهم يقيمون في البلاد على نحو دائم ويحملون جنسيته.

وتزداد وتيرة النقاش والجدل بين المشككين والمدافعين عن كندية اعمال ذوي البشرة السمراء حدّة حين يتوسع الحديث ليتناول رواية (الجنرالات يموتون في الفراش). حيث يفخر الكنديون بان هذه الرواية تُعد من اساسيات ادب الحرب ليس في كندا حسب بل العالم اجمع. يمدح النقاد الكنديون هذه الرواية لأنها وثّقت يوميات الحرب من كاتب عاش جحيم الحرب في خنادق ميدان المعركة. ويمتد فخر الكنديين بالرواية الى الحد الذي جعلهم يعدونها انجازا ادبيا لا يقل من حيث الأهمية عن رواية (كل شيء هادئ في الجبهة الغربية) لريماك.

وقت اندلاع الحرب العالمية الاولى كان ريماك مراسلا لصحيفة كندية وكان هاريسن من بين المتطوعين للذهاب الى ميدان الحرب في فرنسا سوية مع افواج من الجنود الكنديين. فإذا كان المقصود ان العَمل الروائي يكون كندي الانتماء حين يتحدث عن تجارب الكنديين خارج بلدهم فلماذا تجرّد اعمال الكنديين من ذوي الاصول غير الأوربية من هذا الاعتبار حين يتحدثون عن تجاربهم الشخصية في موطنهم الاصلي!

يبالغ المشككون بكندية اعمال هؤلاء الروائيين حين يدّعون ان هذه الروايات ليس لها علاقة بالتجربة الوطنية الكندية. ولكن مثل هذا الادعاء يدحضه الواقع. فالروايات التي يكتبها ذوو البشرة غير البيضاء كرست جزءا كبيرا منها للحديث عن التجربة الكندية. فرواية (في جلد اسد) لمايكل اونداج اسيوية، وثقت التحوّل نحو الرأسمالية في ثلاثينيات القرن الماضي في المجتمع الكندي. وبذلك أصبح اسهام روايات ذوي البشرة السمراء في توثيق التجربة الكندية امرا واقعا لا يمكن نكرانه.

فيقول كين مككوكان:"يجوز للرواية الواحدة ان تنتمي لأكثر من تجربة وطنية"

ويقول ريتشارد فورد: " ان رواية اميركية لان مؤلفها فورد يحمل الجنسية الاميركية ويمكن في ذات الوقت ان نعدها رواية كندية لان احداثها تدور في كندا. لكن اقتراح مككوكان حول الانتماء المزدوج للرواية لم يجد قبولا لدى الكثير من المشككين بانتماء كتابات ذوي البشرة السمراء.

وتزداد حراجة المشككين بأحقية انتماء كتابات ذوي الاصول غير الاوربية الى الادب الكندي حين يكون الحديث عن اعمال الجيل الثاني من الملونين. فأدباء الجيل الثاني ولدوا ونشأوا في كندا بل ان البعض منهم لم يذهب حتى كزائر الى موطنه الاصلي. وتعكس كتابات الجيل الثاني واقعا كنديا محضا، واقعا عاشه الكاتب او ابناء الاقلية التي ينتمي اليها عرقا و/ أو ثقافة. لكن كتابات ذوي البشرة السمراء ظلت تتميز عن غيرها من حيث الاهتمامات فمواضيع مثل العنصرية وأزمة الهوية التي تهيّمن على كتاباتهم، لا تجد لها حيزا واسعا في كتابات ذوي الاصول الأوربية. لذا يبقى التميّز في الكتابة واقعا لا يمكن تجاهله. لكن المشككين يصعب عليهم، هذه المرة، ايجاد سبب يمنحهم الحق في تشكيكهم في انتماء كتابات الجيل الثاني من ذوي الاصول غير الاوربية الى الفضاء الوطني.

ان غياب الاعتبارات التي تجزم بهوية النص الادبي وانتمائه لكندا تجعل منه موضوعا غير محسوم، موضوعا قائما ومفتوحا على كل الاتجاهات.

الواقعية الاشتراكية في السياق الأدبي الأسترالي

البروفيسورة كاث إيليس
ترجمة جودت جالي

في السادس والعشرين من كانون الأول 1933 ساعد أحدهم كاثرين سوزانا بريتشرد، المريضة والنحيلة، لتنزل سلم السفينة الى رصيف ميناء فريمانتل. قبل هذا، في لندن، خلال عودتها من رحلتها الى الاتحاد السوفييتي، علمت من عنوان رئيسي في جريدة بأن زوجها الكابتن هوغو ثروسيل VC قد انتحر في البيت في غرينمونت. لقد تم في الميناء، على الرغم من وضعها الصحي الضعيف، تم تفتيش أمتعتها تفتيشا دقيقا. إدعى مفتش المسافرين المسؤول عن تفتيشها بأنه قد "جرى التحقق من أمتعة السيدة ثروسيل بمراعاة الخصوصية وبدون أي إجراء غير لائق خارج السياق القانوني"[1]، ولكن أزيلت عدة مواد من أمتعتها وصودرت. أشار تقرير لفرع تحقيقات الكومونولث في 12 كانون الثاني 1934 الى أنه قد "تم العثور فقط على ثلاث روايات مكتوبة بالروسية. كان عندها أيضا نسخ من مراسلات الصحافة الأجنبية، هي ضمن قائمة الممنوعات عندنا، وقد صودرت"[2].

إن جاك بيسلي في كتابه الرئيسي الثاني عن كتابات بريتشرد يخضع للمساءلة تثمين دروزيلا ماجيسكا لإلتزام بريتشرد بالواقعية

الاشتراكية. تنص ماجيسكا في (منفيون في الوطن) على أن " كاثرين بريتشرد ذهبت سنة 1933 الى الإتحاد السوفييتي وعادت ملتزمة بالواقعية الإشتراكية... لم يكن هذا تغيرا مفاجئا أو دراميا بالنسبة الى كاثرين بريتشرد، بل هو تقوية وتأكيد لجانب موجود أصلا في عملها"[3]. ينتقد بيسلي بسخرية عمل مسؤولي قسم تفتيش المسافرين "في ذلك اليوم المشرق المشمس في فريمانتل" الذين كانوا مسؤولين عن تفتيش أمتعة بريتشرد:

"إن المسؤولين، المهملين، قصيري البصر، الذين كانوا من دون شك متلهفين للذهاب الى بيوتهم ليجتمعوا مع عوائلهم في العطلة، لكن

هذا لم يمنعهم من أن يكونوا يقظين للإمساك بكائنات كانت ستغزو البلد وتنتشر فيه انتشار الأرانب، والعصافير، والزرازير، والثعالب، وضفادع الطين، ونقاد الأدب، لأنه قد أخفيت هناك، في أمتعة السيدة كاثرين بريتشرد ثروسيل، ببراعة، لعنة أدبية أجنبية، قرحة تدعى الواقعية الإشتراكية سرعان ما ستعلن كاثرين سوزانا بريتشرد أول ضحية لها"[4].

يوجد فهم مقبول عموما بأن مهنة بريتشرد الأدبية كانت متأثرة بالتزامها السياسي وأن عملها، خصوصا رواياتها الأخيرة، تضرر بشكل جذري ببروغاندا مائلة وبمحتوى وعظي. إن الميل الى نقد روايات بريتشرد بهذا الأسلوب يمثل التوجه العام للنقد الأدبي في تعليقه على الكُتّاب الشيوعيين، وفكرة الانشغالات ومتطلبات السياسة المتعارضة بالضرورة مع الكتابة كانت مأخوذا بها في الحلقات الأدبية على نطاق واسع. هذا الميل أدى الى فهم عام للكُتاب الشيوعيين، أمثال بريتشرد، بوصفهم معطلين بنتاج نظرية أدبية ازدهرت في استراليا وخنقت طاقاتهم الإبداعية.

إن اللجوء غير المناسب للعديد من المحاججات النقدية بخصوص كتابة بريتشرد، وأيضا، بخصوص عمل أي مؤلف منخرط في الحركة الشيوعية حول العالم في ذلك الزمن، بأن تميل هذه المحاججات الى استخدام مصطلح الواقعية الاشتراكية بطريقة قليلة الاحترام أو إقصائية. مع ذلك حين يكون المصطلح محللا عن قرب يتفق قليل من المفسرين على معناه الصحيح وأقل منهم يبقون مختارين لأن يضعوه في سياق تاريخي معين.

المهم أن نتذكر بأن نظرية الواقعية الاشتراكية تفردت في أنها نشأت كخطة سياسية وقُصد منها أن تطبق على ممارسة النتاج الثقافي وليست عملا فكريا قصد منه أن يكون منجزا. لقد صيغت وجرى الدفع اليها في بلد يعيش انقلابا سياسيا هائلا وفي زمن يتصف بعدم استقرار كبير في عالم السياسة. لهذه الأسباب فإنها جرى تعريفها في الوثائق الرسمية تعريفا صارما تماما، ولكنها من جانب آخر أثبتت أنها نظرية مطواعة ومتقلبة. بسبب الفشل في معرفة هذه العناصر حيث يقدم العديد من نقاد الأدب تفسيرات غير ملائمة للواقعية الاشتراكية في عمل بريتشرد.

أود أن ألقي نظرة سريعة في البداية على تطور الواقعية الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي. تأسس اتحاد كُتّاب الاتحاد السوفييتي بقرار من الحزب بتاريخ 23 نيسان 1932 وعقد المؤتمر الأول للاتحاد في آب-أيلول 1934. قدم أندريي زدانوف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في يوم 17 آب 1934 للكُتّاب المجتمعين أول ملامح نظرية إجبارية للنتاج الأدبي:

"لقد وصف ستالين الكُتاب بأنهم مهندسو الأرواح البشرية. ماذا يعني هذا؟ إنه يعني، في المقام الأول، معرفة الحياة لوصفها وصفا صادقا في أعمال الفن، لوصفها ليس مدرسيا، وليس بطريقة خالية من الروح، وليس بوصفها "واقعا موضوعيا" ببساطة، بل لوصف الوقائع في تطورها الثوري. علاوة على ذلك، إن الصدق والصلابة التاريخية في الوصف الفني يجب أن يكونا مرتبطين بمهمة التحول الأيديولوجي وتثقيف الشعب العامل بروح الاشتراكية. هذا المنهج في الأدب والنقد الأدبي هو ما ندعوه منهج

الواقعية الاشتراكية"[5].

حتى ولو ركزت الخطابات الأخرى على أهمية الحرية الإبداعية والمنافسة، فإن خطاب زدانوف قُبِل من دون سؤال كأمر من المكتب السياسي[6]. إن النظام الأساسي لاتحاد الكُتّاب السوفييت أقر بوضوح تام التزام الاتحاد بممارسة الواقعية الاشتراكية.

يتتبع سي فوغان جيمس الفرضيتين البارزتين اللتين يسلم بهما مؤرخو الأدب عن أصل النظرية التي أصبحت الواقعية الاشتراكية، وهو يجادل معارضيها بأن الواقعية الاشتراكية هي التجلي الثقافي للسياسة الستالينية. وبكلمات أخرى فإن الواقعية الاشتراكية ابتكرها ستالين، وزدانوف، وغوركي، وجرت دعوة الفنانين للالتزام بها في أوائل الثلاثينيات عن طريق الاتحادات الفنية.

إن الواقعية الاشتراكية بالنسبة الى أنصارها تطور على نطاق عالمي في الأدب الذي يبرز خصوصيات محلية فقط، وبعيدا لكي تكون نظرية جديدة.

إن الواقعية الاشتراكية ينظر اليها بوصفها أكثر من مجرد تمثيل، ضمن سياق أيديولوجية ماركسية لينينية، لتطورات فنية على النطاق العالمي لنهوض البروليتاريا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. هذه النظرية لم تسمى أو تعرَّف حتى 1934-1932[7] أصبحت الواقعية الاشتراكية هي "الأسلوب" الرسمي للأدب السوفييتي. آنذاك، ومنذئذ، فإن مشكلة التحديد بالضبط لما تعنيه الواقعية الاشتراكية وما تُكوِّنه نظريةً أدبيةً، هي مشكلة صعبة. إن النظرية وقد وضعت في حقل الواقعية التي نُظر اليها بوصفها نشأت من الحركات الفنية الواقعية للعشرينيات والتي كانت تتوافق مع المادية في الفلسفة، وهكذا استقبل الكُتّاب الماركسيون الإقرار الرسمي للحزب ليكون صحيحا.

وكما لاحظ داميان غرانت:

"كلمة الواقعية... يجب أن تكون بالتأكيد الأكثر استقلالا، الأكثر طواعية، الأكثر إستثنائية من بين المصطلحات النقدية. لا شيء يبرز عدم استقرار الكلمة المزمن بروزا أكثر وضوحا من ميلها غير القابل للسيطرة الى جذب كلمة أخرى، أو كلمات، مؤهلة لتقديم نوع من الدعم الدلالي"[8].

وهكذا فإن جمع "الاشتراكية" و"الواقعية" يعطي معادلة مثيرة للاهتمام.

يلاحظ إدوارد براون:

"بما أن المصطلح اشتراكية له مضمون إيجابي ولكن ليس له معنى أبدا كالمستعمل للأدب فإن معنى "الواقعية الاشتراكية" يمكن أن يعمل بنجاح في التطبيق ومن خلال التوجيه، ويكون في النهاية على وفق تعريف السلطة له"[9].

لقد وُصف مطورو الواقعية الاشتراكية بأنهم مخططون حسابيون، يركزون على كونهم "مهندسي الأرواح البشرية"، وينطلقون بمحض الاختيار، كثوريين عاطفيين غير مهيئين، يسوقهم شيء قريب من الذعر لإقامة شكل من أشكال السيطرة[10].

إذن، هل كانت بريتشرد، أم لم تكن، واقعية اشتراكية، وما كان لهذا من توريطات لكتابتها؟ لقد كانت سنة 1933 السنة الأكثر اضطرابا في حياتها. إنها السنة التي سافرت فيها السفرة الأولى والوحيدة الى الاتحاد السوفييتي والسنة التي أقدم فيها زوجها على الانتحار. حتى لو كان الأمر

تطلب سنة أخرى أو نحو ذلك قبل أن تُدعم الواقعية الاشتراكية رسميا ومن ثم تُفرض في الاتحاد السوفييتي، فمن المعترف به على نطاق واسع بأن تأثيرها في اتحادات الأدباء، بما فيها اتحاد الأدباء الأجانب الذي قضت فيه بريتشرد وقتا طويلا خلال زيارتها، قد ترسخ جيدا بحلول العام 1933. كانت تلك سنة بداية جديدة لكتابة بريتشرد ، حيث انتقلت بها من كونها كاتبة رومانسية مهتمة بالتراجيديا البشرية عموما، الى كاتبة واقعية اشتراكية ملتزمة. أعتقد أن علينا قبول تأكيد ماجيسكا بأن بريتشرد أصبحت على صلة بالواقعية الاشتراكية خلال زيارتها الى الاتحاد السوفييتي وقد تبنتها بحماس وسرعة بوصفها تناولا صحيحا وقيما للنتاج الأدبي[11]. بينما يوجد دليل بسيط لإثبات هذا تاريخيا، إذ يكشف التحليل النصي لأول نتاج طبع بعد عودتها، وهو (روسيا الحقيقية)، الى أي مدى طبقت فيه انتماءها الى النظرية كما طبقت فيه النظرية في كتابتها.

عند عودتها الى أستراليا وجدت بريتشرد نفسها في ظروف مالية صعبة، وقد قبلت بابتهاج العرض الذي تقدمت به اليها جريدة (ملبورن هيرالد) لنشر سلسلة مكونة من أربعة عشر مقالا تذكر فيها بالتفصيل ملاحظاتها وما اطلعت عليه في الاتحاد السوفييتي. ظهر (روسيا الحقيقية)، وهو كتاب يضم هذه المقالات مجموعة، في العام 1935 صدر عن (مودرن بوبلشرز) في سيدني.

لقد تم مدحه من قبل الصحافة الشيوعية كما مدحته نيتي بالمر في (كل شيء عن الكتب) بوصفه رواية وقائعية ونزيهة للحياة في الاتحاد السوفييتي. حقا لقد قدم الكتاب رواية متألقة عن الجمهورية الاشتراكية الناشئة بفصول تسرد كل شيء من المزارع التعاونية الى المسرح.

إن بريتشرد بالنظر الى لغة النص هي مراسلة وشاهدة على الأحداث أكثر من كونها شيوعية تزور بلدا شيوعيا. يُقرأ الفصل بالضبط كريبورتاج صحفي، وهذا لا يضع الفصول ضمن سياقها الأصلي كمقالات للنشر في جريدة فقط بل وباعتبارها ''أخبارا'' تقدم للقارئ روسيا والمطلوب فيها أن تكون ''حقيقية''. عناوين الفصول تشبه كثيرا العناوين الصحفية... ''الرفيق الطفل وأمه يملكان حق الأسبقية'' و'' امرأة مهندسة تروي قصتها'' و''العدالة الاجتماعية والمحاكم السوفيتية''. قدمت بريتشرد نفسها بوصفها مسافرة '' تختار طريقها الخاص بملء حريتها'' و ''تتجول بنفسها''[12]، هذا، كما لاحظ ديفيد كارتر، الذي يجيز لها بأن تكون '' السائح الذي يكتب، ويكتب ليطبع. المؤلف الرائي وليس مجرد الناظر''[13].

تنفر بريتشرد من أن تعطي رواية سفرية عن رحلتها، وبدلا من ذلك، مع ابتداء كل فصل يجد القارئ نفسه ''في وسط الأشياء'' في رواية أخرى أو قصة. إن تسلسل الفصول لا يتبع نظاما تاريخيا أو أي تصور لخط رحلة، بل كل فصل يقف بوصفه صورة قلمية موجزة عن الحياة الروسية، وبجمع الفصول معا تكون بورتريها للشعب الروسي ووجوده في اليوتوبيا الشيوعية. إن نص (روسيا الحقيقية) يقدم رواية دقيقة ومعبرة عما اطلعت عليه بريتشرد في الاتحاد السوفييتي. من المفيد، بحثا عن تلميحات، أو ربما نقطة بداية لإنمائها الى الواقعية الاشتراكية، أن نبحث في التحقيق الصحفي عن نظريات

ومنظرين تم اتخاذهم كمراجع في النص، والمرجع الأكثر تأثيرا وأهمية هو مكسيم غوركي الذي ظهر متأخرا في الكتاب، في الفصل الحادي والعشرين المعنون "الثقافة الأدبية في الاتحاد السوفييتي". هذا الفصل مثل باقي الفصول يتحدث بمصطلحات متقدة عن الشعب، والسياسة، والثقافة والحياة الاجتماعية في الاتحاد السوفيتي، يمجد اتحاد الكتاب السوفييت.

إن بريتشرد قد أغرمت بالطريقة التي كان بها الاتحاد المشكل حديثا تواقا لإقامة روابط بينهم وبين شعب الاتحاد السوفييتي العامل. تمضي في اقتباس طويل نوعا ما لأقوال غوركي وهو يسند الموقف السائد بين الكتاب لنظرية الواقعية الأدبية السوفييتية، إن تصريحات مثل "كلما كانت اللغة أبسط كلما كان أفضل" و"الحكمة الحقيقية تعبر عن نفسها أوضح" و"أغلب الكتاب السوفييت يقبلون الحقيقة البديهية من أن "الحقيقة أغرب من الخيال القصصي" ويعملون عليها حرفيا"[14] نموذجية للتصريحات التي ستستخدم فيما بعد لدعم الواقعية الاشتراكية المقررة والمقامة حديثا خلال سنة أو نحو ذلك.

تمزج بريتشرد في (روسيا الحقيقية) تشكيلة من الأنماط المختلفة للتعبير والتأليف، اتفاقا كما هو واضح، داخل مجلد يتحدي أي تصنيف سهل له. مع أنه يجب أن يكون منظورا اليه بوصفه ريبورتاجا فإن الادعاءات بأنه لم يَشُبْه شيء من الخيال الأدبي تمثل إشكالية باستخدام أدوات الواقعية الاشتراكية. إن تعريفات الأدب والنتاج الأدبي غير واضحة غالبا في نظرية الواقعية الاشتراكية السوفييتية. لقد تم تمييز صغير، مثلا، بين الأدب كفن والأدب كصحافة، فيما يمكن النظر الى هذا كمثال آخر على تشريع السياسيين للأدب بشكل أخرق، ينظر اليه كدليل على ما للواقعية الاشتراكية من تأثير على النتاج الأدبي. إن بها حاجة الى الخيال الأدبي، أو الأدب كفن، لأن يكون مهتما أكثر بالأفكار السياسية والاجتماعية أكثر من التسلية، كما أن بها بحاجة لأن يكون الأدب ذا طبيعة تعليمية. هكذا تميل الكتابة الخيالية الأدبية الى أن تكون أكثر واقعية، بينما الأدب بوصفه تقريرا صحفيا، أو ليس خياليا، مطلوبٍ منه أن يعرض الأحداث إيجابيةً وملهمةً، سيكون هذا التقرير بالضرورة، ميالا الى الخيال الأدبي. وفقا لهذا فإن ميل كلا هذين النوعين الأدبيين للتحرك نحو تسوية مركزية، مدمجة، شبه خيالية، ليست مفاجئة.

هذه النزعة مبرزة بإسهاب في (روسيا الحقيقية). تفتح بريتشرد سردها عن رحلتها بمقدمة للتناول المزمعة عليه في كتابتها: " أنوي الكتابة [عن الأماكن التي سافرت اليها] بنثار ملون، أو كما كان سيقول والت ويتمان أو مايكوفسكي، قطرات عبارات، أرسمها اقتداء بالرمزيين الفرنسيين، صورا تغلي وتندفع فوق بعضها بعضا، كما استقرت في ذهني[15]. إن القرار مباشرة بوضع هذا النص الرحلاتي على نمط فني، وبالنتيجة، خيالي أدبي، قرار مثير للاهتمام. في حين أن هذا يخدم في إبعاد النص عن "الصحفية" أو التقرير الصحفي الجاف، فإنه أيضا يجعل مصداقية ملاحظاته عرضة للمساءلة. إن اختيارها وصف صور رحلاتها وما شهدته فيها بإسلوب الرسامين بدلا من، على سبيل المثال، أسلوب فوتوغرافي، إختيار يوحي

بشيء أقل من " إظهار كل شيء". إن نظرة " الراوية" مركزة دائما بهذه الطريقة بحيث أن صوت الراوية يفقد بسرعة قوته المصداقية، وهذا قد بلغ قمته الصادمة في سرد قضية'chiska' أو ما عرف بـ "تنظيف الحزب" في الفصل16. بعد تعريف موجز وتفسير وتاريخ عملية "تنظيف الحزب" تسجل بريتشرد ملاحظاتها على حدث كهذا. أولا قصة (ماريا سيروشتانوفا) وهي في الشيخوخة عملت بجد واجتهاد خلال حياتها كلها لخير الحزب، انه "من الصعب عدم العمل فيما يوجد الكثير لعمله". إنها متنبئة على نحو ما، وهي تعطي ترحيبا حماسيا بينما تنزل من الحامل وتنضم الى حشد من الرفيقات وهن يضحكن ويثرثرن. القصة الثانية لـ (أوليا سميرنوفا) التي حُسبت أقل جدارة بالثقة من سابقتها. روت قصتها بوضوح ولكنها واجهت اعتراض زميلاتها العاملات اللواتي اتهمنها بأنها نشأت بعيدا عن العمال ناسية من ساعدها لتكون مهندسة جيدة ومهملة لطبقتها السياسية.

يعرض الفصل مثالا جيدا على استخدام بريتشرد لكل عنصر من عناصر الواقعية الإشتراكية معا لبناء نصها. يبدأ بمثال عن ideynost أو تجسيد الأفكار السياسية والاجتماعية ذات الطبيعة التقدمية كعناصر لمقاييس الضبط في الحزب الشيوعي موجزا بتفصيل غاية في الدقة. إن عنصر klassvost أو التعبير عن خصائص الطبقة في الفن متداول عندما يجري عرض ادعاءات خدمة، أو الفشل في خدمة البروليتاريا في محيط العمل. إن Partynost أو التعبير عن روحية الحزب بالتوافق مع أهداف ومناهج الحزب الشيوعي متأصل في عموم بنية الفصل، حيث نجد الحزب منظمة ديمقراطية جيدة التنظيم ونظيفة ويقظة. أما Narodnost أو التعبير عن أسلوب وطني أنموذجي مستخدم في عرض القصص مع الأسماء والأعمار. إن المهن والأماكن تمنحها نبرة محلية أو نموذجية. كل من هذه القصص لها ختمة ايجابية بتعابير العمال وحزبهم... البطل الاشتراكي. لم تبدر محاولة تقدمية وتقف بريتشرد معجبة جدا بالنشاط الذي يجري حولها، فالحكم الذاتي والحكم من الأنداد مرحب به، وربما مطلوب برغبة شديدة، من دون التفكير بصلاحية المقاييس الأخلاقية والقانونية التي تجري بموجبها هذه الأحكام. هذا الميل لتجاهل مساحات النقد الواضحة بشكل هائل ومحسوس عبر النص كله. بعيداً عن الاستسهال الذي تطبق بها نظرية الواقعية الاشتراكية في (روسيا الحقيقية) فإن نقلها الى أستراليا ما قبل الاشتراكية كان إشكاليا الى أبعد حد، خصوصا حين يكون الموضوع غير الاتحاد السوفييتي.

يتفحص فيك وليامز في مقال معنون (الفن يمكن أن يكون خط الجبهة الأمامي) نشر سنة 1951 المشاكل التي واجهت الكُتّاب الشيوعيين الأستراليين في محاولاتهم وضع الواقعية الاشتراكية موضع التطبيق في بلد لا اشتراكي[16]. ينص وليامز على أن دور الفنون في الصراع الطبقي جرى التقليل من أهميته والتقليل من استخدامه باستمرار، وهذا، كما يجادل وليامز، ابتداء " لأن الفن التقدمي في أستراليا غالبا لا يذهب الى أبعد من الواقعية الاشتراكية"، ويمضي وليامز ليوجز الدور الذي يلعبه الأدب داخل الاتحاد السوفييتي " في هذه الوحدة الوليدة حديثا لليد

والعقل" كما دلت نظرية غوركي القائلة بأن العمل الإبداعي " هو الجذر الوتدي للثقافة" ثم يطرح سؤالا:" ولكن ماذا عنا نحن الذين لم ننجز الاشتراكية؟ هل لدينا الأساس في ظل الرأسمالية لخلق فننا الاشتراكي الخاص بنا.. يقول غوركي: بأن الواقعية الاشتراكية في الأدب يمكن أن تعلن عن نفسها فقط كانعكاس لحقائق العمل الإبداعي في ظل الاشتراكية.

وأن النظير لهذا العمل الإبداعي في السياق الأسترالي هو " النضال السياسي الطبقي الواعي لبناء حركة ثورية وحزب ثوري لإزالة الرأسمالية وخلق الاشتراكية".

تعلن إيفيلين والترز في العام 1952 بأن جي دي بليك انتقد أعضاء في جمعية فناني (فيكتوريان) لخلقهم أعمالا حيث التركيز " يبقى على نقد القديم" الذي لا يزال ضمن تصنيف واقعية برجوازية حقيقية". تتفق والترز مع هذا التقييم وتضيف: "هذا الفشل في الإشارة الى الجديد بشكل واف... يظهر كم هي الأفكار المتقدمة ناقصة النمو إن لم يجر التمكن من ترجمتها الفنية في الرسم"[17].

إن التطبيق الفعلي لهكذا توكيدات هو مفقود بشكل بيِّن عند بليك ووالترز، ولكنه بالتأكيد ليس مفقودا عند إيفيلين هيلي التي تفتتح القسم المعنون " الواقعية" في كتابها (فنان اليسار) هاتفة:" الفنانون لا يعملون بشكل عادي وفقا للتعريفات"! ردا مباشرا على مقال والترز ونقد بليك. إنها تثير السؤال:

" كيف يمكن لفنان يعمل في مجتمع لا اشتراكي أن يقحم هدفا اشتراكيا في فضاء- إطار الرسم ما عدا كليشة ما مثل علم، أو شمس، أو قبضة يد، أو نص... علاوة على ذلك فإن الرسومات في الاتحاد السوفييتي التي تعبر عن عمال واثقين قد تعكس رضا بالمهنة أو قبولا بالنظام"[18].

وعلى الرغم من عدم وجود تنظيم شيوعي في زمن الثلاثية، وصراع للعثور على ناشرين لأعمالها التالية، خصوصا روايتها الأخيرة (اللهب السامي)، وصراع مع استقبال النقد السائد غير المتحمس لأعمالها. فأن كل هذه الصراعات بقيت موثقة توثيقا جيدا. إن بريتشرد وهي واقعة بين ضغوط أقصى اليسار وأقصى اليمين للطيف السياسي بقيت مخلصة للواقعية الاشتراكية كنظرية بغض النظر عن المعوقات التي تضعها في طريقها. كان تناولها للنتاج الأدبي عند هذه المرحلة من حياتها ككاتبة يرجع صدى أفكار عظماء المنظرين الجماليين الشيوعيين أمثال غوركي، ولوكاش، وبريخت. إن المضمون السياسي التقدمي كان حاسما لترسيخ أدب يذهب الى أبعد من مجرد التسلية أو الهروبية، ولكنه يواجه نظام النشر الرأسمالي ويعلم الناس بوجوب أن لا يبقوا بعزلة قومية، بل يجب أن يتعاونوا في فهم لآداب بلدانهم العظيمة، يجب أن يبرز أفكار الحزب الشيوعي، ولكن ليس بمجرد ترديدها كالببغاء أو محاولة فرضها فرضا، بل على الأصح يجب أن لا تقحم النوايا إقحاما في عمل فني، يجب أن تكون جزءا لا يتجزأ منه ويجري التعامل مع العمل ككل متجانس[19].

إن هذا الكلام يلقي الضوء على التعقيد الذي عاشته الواقعية الاشتراكية في أستراليا من زمن إدخالها في العام 1933، لقد كانت نظرية أدت الى الازدهار وشهدت تطورا جديدا مثيرا ومحفزا في الأدب والنظرية الجمالية.

هوامش

1- Katharine Susannah Prichard Security notes. Date 11/12/33. ANL MS 8071/22/5/155 (Ric .(Throssell MS 8071, Box. 22, series 5, Folder 155
2- .Ric Throssell, My Father›s Son, Richmond, 1987, p. 141
3- .Drusilla Modjeska, In Exiles at Home, 1991, p. 120
4- Jack Beasley, A Gallop of Fire. Katharine Susannah Prichard: On Guard for Humanity, .Earlwood, 1993, p. 142
5- Andrey Zhdanov, quoted in George Becker, Documents of Modern Literary Realism, New .Jersey, 1967, p. 487
6- Herbert Ermolaev, Soviet Literary Theories 1917-1934: The Genesis of Socialist Realism, .Los Angeles, 1963, p. 143
7- .Vaughan James, Soviet Socialist Realism: Origins and Theory, New York, 1973, pp. x-xi
8- .J. Damian Grant, Realism, 1970, p. 1
9- Edward Brown, Russian Literature Since the Revolution, New York, 1963, p. 33. This is an idea
10- which is pursued further by Gleb Struve in Russian Literature Under Lenin and Stalin, .London, 1971, 10 James, op. cit., pp. 42-3
11- .Modjeska, op. cit., p. 120
12- .Katharine Susannah Prichard, The Real Russia, 1935, p. 7
13- David Carter, 'A Career in Writing: Judah Waten and the Cultural Politics of a Literary .Career', PHD Thesis, Deakin University, 1993. p. 3
14- .The Real Russia, op. cit., pp. 254-5
15- .Ibid., p. 1
16- Vic Williams, 'Art can be a Front Line Weapon', Communist Review 117, September 1951, .pp. 924-7
17- Evelyn Walters, 'Close Formalist Gaps in Art and the Party!', Communist Review, no. 128, .August 1952, pp. 241-6
18- Evelyn Healy, Artist of the Left: A Personal Experience 1930s-1990s, Left Book Club, Sydney, 1993, p. 9. She points out that: 'Texts at that time made a work either "commercial" or "literary" .'and were largely unacceptable in western "fine" art until the promotion of pop art in the sixties
19- .Throssell, op cit, p. 126

***

العنوان الأصلي

Socialist realism in the Australian literary context: With specific reference to the writing of Katharine Susannah Prichard, Journal of Australian Studies Volume 21, 1997 - Issue 54-55, pp:38-44

تجليات الشتاء الحزين

قصة للكاتب الأمريكي: وارين كين
ترجمة فاطمة حكمت حسن*

في ذلك الصباح البارد في 29تشرين الثاني عام 2021، لم أستفق، اليوم السابق كان حاضراً في ذاكرتي بجلاء، قطعت مسافة طويلة، نحو الغرب البعيد في مينيسوتا، حاملاً معي مهمة استبدال بعض الصمامات التالفة في محول الطاقة المثبتة على القاعدة وتركيب أخرى جديدة، كانت المهمة سهلة بشرط أن تكون الصمامات المناسبة متوفرة، لم يكن لدي أدنى توقع في أنني سأضطر للوقوف في البرد القارس طوال اليوم.

تصورت أن العملية لن تأخذ وقتاً طويلاً، في انتظار هذه الصمامات. أن الانتظار في هذا الجو يعد أصعب شيء يمكنك أن تفعله، وعلى الرغم من أنني قد قرأت أحوال الطقس في ذلك الصباح، إلا أنني رفضت الاعتراف بحلول فصل الثلج الذي يطلب ارتداء اللباس الحراري ”لا تتحمل هذا البرد، أليس كذلك؟“، قال الرجل الذي ظهر من المتجر وهو يرتدي قبعة صوفية ومعطفاً ضخماً. ”هل يتبرز الدب في الغابة؟“، كان ردي، وسط برودة الطقس، ارتجفت كل خلية في جسمي، وأسناني تصطك بعنف كأنها تلعب دورًا في أوركسترا مجنونة مؤدية رقصة الهنود الحمر الحربية. كان من البديهي أني لا أقوى على تحمله.

عندما عدت إلى منزلي في وقت متأخر من تلك الليلة، كنت أشعر برغبة ملحة في النوم للأبد.

قيل لي إن ديب شقيقتي هي من اكتشفتني. كانت تمتلك موقفًا للسيارات في بروس، جنوب داكوتا، وكان يغلق في فصل الشتاء في اليوم السابق لقدومه. كنت خارج الخدمة في ذلك اليوم، ولذلك كان لدي الوقت الكافي لإلغاء التوصيل، وتجهيز العربة للشتاء، وربطها، وسحب مقطورتي إلى غرفة التخزين، ثم قررت الانتقال للعيش مع والدتي في سوو فولز لبقية الشتاء. لم يخطر ببالي أبدًا أن أقفل بابي في بروس، ولكني سعيد لأنني لم أفعل ذلك، حيث أتاح ذلك لديب الدخول مباشرة إلى منزلي حينما لاحظت عدم مغادرتي له كان ذلك في الأول من كانون الأول. تستمتع ديب دائمًا بفرصة سرد القصة. كم كانت مرتاحة لعدم شم رائحة جثة متعفنة، وكيف كانت تقف فوقي كما كانت تفعل

مع أبنائها، وتطالبني بالنهوض. كيف كانت هي وزوجها يحاولان فعل أي شيء لإنقاذي قبل أن يستدعوا سيارة الإسعاف، الهزات، والركلات، والأواني، والمقالي، والماء البارد، وبعض الصفعات على الوجه. والدتي تأخذ دورها في سرد ما حدث عندما وصلت المستشفى. هرعت إلى الطبيب. ''هل ابني على قيد الحياة؟''

''أنا آسف، سيدة إيرفينغ''، قال، محطمًا والدتي، ''ولكن في هذه المرحلة لسنا متأكدين تمامًا.''

كررت مجددا بصوت مرتجف'' لسنا متأكدين تمامًا؟ أتقول لي لا يمكنك معرفة ما إذا كان شخص ما على قيد الحياة أم ميت؟ أي نوع من الأطباء...'' نظرت حولها في الممر وصاحت، ''هل يمكنني الحصول على طبيب حقيقي هنا؟''

''سيدة إيرفينغ، حرارة جسم ابنك ومعدل ضربات قلبه منخفضان للغاية، وهو لا يستجيب لجهودنا لرفعهما، لكنه لم يمت بعد. لم أر من قبل شخص يتمسك بالحياة في هذه الحالة طويلًا كما فعل. نحن نفعل كل ما في وسعنا، ولكن يمكنني القول بتأكيد أنه إذا لم يبدأ في الاستجابة للعلاج فوراً، فلن يكون معنا لفترة طويلة، وإذا تعافى، فمن المرجح أن تكون لديه إصابة خطيرة في الدماغ.'' استيقظت على أشعة الشمس تتسلل بلطف من خلال شقوق الستائر المصنوعة من الألومنيوم في غرفتي في المستشفى. حاولت النهوض ولكني شعرت بألم وصعوبة في الحركة وكأن جسدي كان مدفون في الرمال لفترة طويلة جداً، عندما دخلت الممرضة كانت معتادة على كوني ميتًا تقريبًا لدرجة أنها لم تلاحظ أن عيني كانتا مفتوحتين، عندما وصلت إلى جانب السرير لتثبيت أنبوب التغذية، أدرت رأسي نحوها، وتذمرت متألماً وكادت أن تقفز من جلدها. كانت أمي مستعدة لتقبل الأمر بشكل أفضل، كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة بهدوء عندما ظهرت لاحقًا بزي عملها. ضمتني لصدرها بقوة آلمتني. كان ذلك في الثالث من كانون الثاني من العام الماضي. قالوا إنها معجزة طبية أنني استيقظت، ناهيك عن الشفاء التام. لم تخبرني أمي أبدًا بهذا، لكنني اكتشفت من إحدى الممرضات أن أمي جعلتهم يسحبون القابس مني في وقت ما، لكن الأمر لم يستغرق كثيراً، إذ سرعان ما وصلوني مجدداً، لم أحمل حقداً ضدها، كان الطبيب مقتنعًا بأنني كنت في غيبوبة طبيعية طوال الوقت، وكان معدل ضربات القلب ودرجة حرارة الجسم طبيعية، لكن معدات المستشفى كانت معطلة، لذلك أرسلها كلها لإعادة المعايرة. ''هذا هو التفسير الوحيد المعقول''، استمر في تكرر ذلك، على الرغم من أنه لم يكن راضياً تماماً بهذا التفسير. كان العمل لطيفًا بما يكفي لإعطائي إجازة مرضية تشبه حالة إعاقة قصيرة الأمد، مما يعني أنني حصلت على 60% من راتبي، وأبقيت على التأمين الخاص بي. وكأن هناك الكثير من الخير فعلته بإبقائي عليه!، فأن هذا الإجراء لم يكن ذا فائدة كبيرة بشكل ملموس، فلقد اتضح أنه بينما كنت أنقر دون قصد على ''فتح التسجيل'' للحصول على تأميني الصحي، قد أهملت دفع تكاليف تغطية ''الأمراض الخطيرة'' التي لم تكن لتمنعني من الإفلاس تمامًا، ولكنها كانت ستعني أنني سأبقى مدينًا لبقية حياتي بالديون الطبية، أنا، الرجل الذي كان من الممكن أن يذهب إلى كلية مدتها أربع سنوات، ولكن عاش مع والدته، وعمل وحصل على درجة الزمالة في كلية المجتمع التي تقدم برامج دراسية قصيرة الأمد، غالباً تستمر لعامين، وتمنح درجات الدراسات العليا عوضاً عن ذلك، والذي عاش في مقطورة سفر وادخر كل دولار ممكن لشراء منزله الأول يومًا ما

نقدًا، لا يوجد رهن عقاري، ولم يكن يشرب كثيراً أو لديه أي هوايات باهظة التكاليف. هذا الرجل، إذا، كان الآن يغرق في الديون.

لقد تبين أن العلاقة بين الديون والقلق ليست خطية. هناك نقطة حيث يكون دينك كبيرًا جدًا لدرجة أنك لم تعد تهتم حقًا بأي شيء اخر، المال لا يعني شيئا بالنسبة لك. إنه ليس لك أبداً ليس لديك أي حافز لكسب المال، ولا شيء تدخر من أجله، ولا شيء تتطلع إليه، ولا يوجد مخرج. أصبحت مقطورتي الآن منزلي للأبد. أصبحت حياة العزوبية مجرد جزء من الحياة بلا أمل أو طريقة للخروج من هذا الوضع، كنت أحب العمل، الآن أريد فقط أن أنام، على الأقل كان النوم مجانياً، كل ما فعلته في ذلك الربيع الآخر والصيف والخريف هو النوم والعمل، حتى جاء اليوم البارد في منتصف تشرين الثاني عندما لم أستيقظ مجدداً. هذه المرة أسقطني العمل. وبما أنه لم يكن لدي أي دخل، كان على أمي أن تدفع أقساط كوبرا الخاصة بي(نظام COBRA هو تقديم الرعاية المستمرة للموظفين وعائلاتهم، أنه نظام في الولايات المتحدة يسمح للأفراد الذين يفقدون تأمينهم الصحي بسبب تغيير في وضع العمل (مثل فقدان الوظيفة أو تقاعد) بالاستمرار في التأمين الصحي نفسه لفترة محددة. يمكن للمستفيدين في نظام COBRA الاستمرار في تلقي التغطية الصحية على حسابهم الخاص، ولكنهم يتحملون تكاليف الأقساط فضلاً عن تكلفة الإدارة، هذا النظام يسمح بحماية الأفراد وعائلاتهم من فقدان التأمين الصحي فور فقدان الوظيفة أو تحول الظروف العملية بطريقة تقلل من التأثير الاقتصادي لهذه التغييرات) هذا هو الهدف الحقيقي لنظام الرعاية الصحية في الولايات المتحدة، فهو لا يفلسك فحسب، بل يفلس أي شخص يحبك بما يكفي لإبقائك على قيد الحياة، خلاف ذلك، القصة نفسها كما في المرة السابقة، مع نفس الطبيب الحائر ونظرية المعدات المعيبة التي أثبتت خطأها بشكل متكرر، لقد أبقاه ظهور فيروس كورونا مجددًا هو والمجتمع الطبي منشغلون بذلك الشتاء، لذلك فكرت في الأمر لاحقًا. حتى إنني أخفت الممرضة نفسها بالطريقة نفسها عندما استيقظت بعد أربعة أشهر. "خدعني مرتين، عار علي!" قالت للمستشفى كله. لقد أصبح ديني الطبي الآن الناتج المحلي الإجمالي لدولة صغيرة. ما زلت لم أدفع تكاليف تغطية الأمراض الخطيرة، لأنه من يدخل في غيبوبة مرتين؟ انتهى العمل بتوظيفي مجدداً، رغم ذلك، من الواضح أن السبب أنهم لم يحالفهم الحظ في استبدالي. لقد طردوني مجدداً، عندما حدث ذلك في الشتاء الثالث على التوالي. الآن كان هناك نمط معين، يبدأ الأمر دائمًا في اليوم الأول من فصل الشتاء، وهو اليوم الذي نعرفه جميعًا، ولكنه يختلف في كل منطقة. أنا أتحدث عن أول يوم تشعر فيه بالشتاء. في اليوم الأول الذي تخشى فيه الخروج من بيتك الدافئ. ذلك اليوم الأول الذي يبدو فيه إخراج ملابس الشتاء والاختناق بها عمل روتيني لا يطاق. كان ذلك الانقلاب يشكل نقطة تحول كبير في حياتي، وهو اليوم الذي نزلت فيه في كل سنة من السنوات الثلاث الماضية غرفة المشفى ذاتها. وفي ذلك الشتاء، اعتقدت أمي والأطباء والممرضات، وكل من عرفني أنني سأستيقظ مجدداً على العكس من ذلك، ففي بداية الربيع وهو الوقت المتوقع للاستفاقة من حالتي تلك، وقبل أن يثبت صحة اعتقادهم، أصبحت الأمور جنونية بعض الشيء. لقد بدأ الأمر بوسائل الإعلام المحلية، وفي غضون 24 ساعة انتشر على نطاق واسع. ثم التقطته وسائل الإعلام الوطنية للتأكد من أن أي شخص

حتى الذي يعيش في مكان معزول أو غير مطلع على الأحداث او يعيش تحت صخرة ما، قد رأى صوري فاقدًا للوعي وبالكاد على قيد الحياة في سريري في المستشفى. الآن كان على أمي أن تمر عبر مجموعة من الكاميرات والميكروفونات في موقف السيارات بالمستشفى للوصول إلى سيارتها والعودة منها. لم تكن اللقطات تسليها، لكنني طردتها لاحقًا. بالطبع، كان هناك الكثير من الاتهامات التي كنت أكذبها، ومعها كل أنواع الأفكار حول كيفية إثبات ذلك: ضع قداحة على قدمي، خنقني بالوسادة، أفتح عيني على شكل البرتقالة الآلية(يشير إلى مشهد في فيلم "A Clockwork Orange"، حيث يتم فيه تثبيت عيون الشخص المختارة مفتوحة بالقوة، في الفيلم، يتم تطبيق هذا الفعل كجزء من عملية تأديب قاسية. الإشارة إلى هذا المشهد تُستخدم هنا للتعبير بشكل مجازي عن تجربة صعبة أو قاسية قد يواجهها الشخص)، ثم استأجر راقصة، وانتظرني حتى أنصب خيمة. طُرِحَت كلمة "طفيلي" أكثر من أي كلمة أخرى مستخدمة لوصفي، وقال البعض إنني كنت استهلك موارد المستشفى القيمة. وبطبيعة الحال، أولئك الذين يقولون ذلك لم يكونوا مسؤولي الرعاية الصحية. ثم بدأ حشد "لا أحد يريد العمل من الآن فصاعداً" في التعامل معي كمنبوذ. لكن الاهتمام كان له جانب إيجابي. وكما هو الحال هنا في أمريكا، إذا كنت محظوظًا بما يكفي لإصابتك بمرض فيروسي (يجب عدم الخلط بينه وبين فيروس فعلي)، فيمكنك الاستعانة بمصادر خارجية لفواتيرك الطبية. لقد أحدثت تأثيرًا في الواقع. أعتقد أن كل "طفيلي" هو بطل الطبقة العاملة بالنسبة لشخص ما. تطور اتجاه جديد في اسمي: السبات. بدأ الإنترنت باستخدام الكلمة، على الرغم من رفض الأطباء والعلماء لذلك. كانت هناك العشرات من البرامج التعليمية حول السبات البشري عبر الإنترنت، والتي نصحت بشأن الوظائف والاعمال التي يجب الإقلاع عنها كل شتاء، وكيفية توفير الطعام وتخزينه، حتى لا تتمكن من فعل أي شيء سوى النوم واللعب لعدة أشهر متتالية. انتقدت صحيفة وول ستريت جورنال وما شابه ذلك السبات باعتباره أزمة الجيل الذي يلي جيل الألفية الكبرى القادمة. لم أكن متأكداً مما سأفعله في الربيع الثالث بعد أن استيقظت واستوعبت كل شيء. هل أصبحت من المشاهير الآن؟ لم تكن هناك طريقة لاستعادة وظيفتي القديمة. لقد اضطررت بالفعل إلى مشاهدة بعض هذه البرامج التعليمية لمعرفة ما يجب فعله. لم أتمكن من الحصول على وظيفة بدوام كامل، لذلك لا يوجد تأمين صحي من خلال العمل. وعلى الرغم من أنه من غير القانوني الآن رفض التغطية لشخص يعاني من حالة مرضية موجودة مسبقًا، إلا أنه لا يلزم أي شركة تأمين بتغطية الإقامة في المستشفى لمدة أربعة أشهر بسعر معقول. كانت الأمور تبدو قاتمة جدًا. ثم وجدني الملياردير التقني المشهور والمعروف بسلوكه المزعج أو المتعجرف. اعتقدت أنه سيأتي لاغتيالي نيابة عن الرأسمالية التي يمثلها، نظر إلي بحدة غريبة، مثل مشاعر جولوم المستقيمة (العبارة تستخدم مقارنة بين القرب الرأس مالي وشخصية "Gollum"، وهي شخصية خيالية من رواية "The Lord of the Rings"، للتعبير عن طابع غريب أو غير عادي. التعبير "مشاعر جولوم المستقيمة" يعني أن الشخص يبث إحساسًا أو طابعًا يشبه شخصية Gollum، والتي تُعتبر في القصة شخصية غريبة ومتقلبة، وعبارة "بعينين بدت أكبر سنًا من بقية جسده"

تشير إلى أن عينيه تبدو أكبر سناً مما هو عليه بالفعل، مما يضيف إلى الطابع غير الواقعي أو غير الطبيعي الذي يُراد التعبير عنه حول هذا الشخص)، بعينين بدت أكبر سنًا من بقية جسده. لقد بدا غير واقعي، مثل شخصية في قصة كاتب متهور كتب "رجل أبيض يبلغ من العمر 50 عامًا ويبدو 35 عامًا" في مولد صور يعمل بالذكاء الاصطناعي. قال أن اسمه ميشال.

"نعم، لقد قدمك "شعبك" لي بالفعل. انظر، أنا لم أبدأ عملية السبات عن قصد" قلتها مرتاباً.

ضحك دون أن يكسر التواصل البصري. قال لي: "أعتقد أنك غير عادي". "أنت تحمل المفتاح." من الواضح أن السبات البشري ضروري للسفر إلى الفضاء، لأنه لا فائدة من الذهاب إلى أي مكان إذا لم تنجو بعد انتهاء الرحلة، ويعتقد هذا اللزج أنه سيكون أول من يفعل ذلك بمساعدتي. وفي مقابل محو ديوني الضخمة، أصبحت موضوع اختبار مايشال الشخصي. لقد أخذني إلى منزله في جاكسون هول (لا بد أن يكون هناك شتاء، وهذا ما أكدته التجربة)، وقام أطباؤه الخاصون بدراستي على مدار العام، لم يكن علي أن أعمل، كان إجراء المسح الضوئي والطعن والحث هو وظيفتي. وحصلت على أفضل رعاية يمكن شراؤها بالمال، لا مزيد من سرير المستشفى الكريه. لقد كنت أطفو في نوع من الجل في نوع ما من الكبسولة طوال فصل الشتاء. اكتشفوا أن السوائل الوريدية وأنبوب التغذية الذي أعطاني إياه المستشفى غير ضروريين. كان مجرد التبول والتغوط كافي فقط، كان ميشيل يتحكم بشكل كامل في إجراءات الحفاظ على حياتي ولم يكن هناك حاجة لتلك الإجراءات الطبية.

سنتي الثانية في جاكسون هول لم يبد أن الشتاء سيأتي في الوقت المحدد له هذا العام، من منا لا يريد رؤية أول تساقط للثلوج على جبال تيتون؟ بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لدي ما أفعله، لذلك لم يكن هناك ما يجبرني على الخروج إلى البرد. يكون الشتاء رائعًا عندما تشاهده من خلال نافذة شقة فاخرة يمكن التحكم في مناخها بشكل مثالي، حافي القدمين على أرضيات دافئة. لقد اكتشفت ذلك أمام الأطباء وتوصلت إلى خطة.

"أنا راحل." "لكنك لا تستطيع ذلك" اردف ميشال متوسلاً: "لا يزال أمامنا الكثير من العمل للقيام به". "وماذا سيحدث لي عندما تجدون يا رفاق الصلصة الخاصة، هاه؟ أنت فقط ستعيدني إلى البرد دون أن يكون هناك أي شيء باسمي، يجب أن أتوقف عن هذا بينما أنا قادر على ذلك"

"سوف تكون بطلاً! ستكون أسطورة."

"سوف أكون مفلساً."

لقد تفاوضت من أجل صندوق ائتماني وحصلت على واحد. سنتي الثالثة في جاكسون هول كانت تجربة رائعة، بقيت مستيقظًا لفترة كافية للاستمتاع ببداية موسم التزلج واستمتعت به بسرعة كبيرة. ومنذ ذلك الحين، كنت أتطلع إلى فصل الشتاء. ولم أكن بحاجة إلى العمل، ولا القلق، ولا الديون. كنت سمين وسعيد، وفي هذه الأثناء كان ميشال وعلماؤه في حيرة من أمرهم. لم يعرفوا كيفية تحفيزي على السبات أو إنهاءه عند الطلب، ولم يتمكنوا من تفسير سبب توقفي فجأة. الآن يبدو أن وقتهم قد نفد. ضحكت من وراء ظهورهم. لا يوجد تداعيات على حالتي. كما ترى، على الرغم من كل عبقريتهم، فقد أخطأ إخوانه في مجال التكنولوجيا وعلماؤه في فهم هذا الأمر الواضح: الدببة في حدائق الحيوان لا تدخل في سبات شتوي

---

*كاتبة ومترجمة عراقية، تعمل مهندسة نفط

مطبوعات وصلتنا :

1. زهير الجزائري، سيرة الفاسد من الحواسم الى المافيات المسلحة، دار سطور، بغداد، 2023
2. إبراهيم المشهداني، امراض الاقتصاد العراقي وسبل معالجتها،اصدار دار الرواد المزدهرة، بغداد 2024
3. كرار فياض، كبي نو / مسرحية، دار اكد ، بغداد 2022
4. عبد الخالق كيطان، شارع دجلة / سيرة ناقصة في حدث عاصف، اصدار دار الشؤون الثقافية، بغداد
5. صميم حسب الله يحيى، لذة النقد / تطبيقات في التجربة المسرحية في العراق، اصدار الهيئة العربية للمسرح، الشارقة 2023.
6. ا.د. قاسم حسين صالح، اللغة والتفكير والاقناع في وسائل الاتصال ـ تحليل سيكولوجي اعلامي، اصدار: اتحاد الادباء والكتاب في العراق – بغداد 2023